هـ . ج . ولز

أول من وصل الى القمر

ترجمة
ميشيل عبد الأحد
مراجعة
الدكتور شوق

ا ف كتاب

(٢٣٣)

أول من وصل إلى القمر

بإشراف ادارة الثقافة
بوزارة التربية والتعليم

تقديم

هربرت جورج ولز

(١٨٦٦ — ١٩٤٦)

تقلد زعامة الأدب الإنجليزى فى أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين رجلان ، أسهم كل منهما بقسط موفور فى توجيه الرأى العام العالمى . هذان الرجلان هما الأديب الساخر برنارد شو ، بمسرحياته الاجتماعية الانتقادية ، وهربرت جورج ولز بقصصه وكتاباته فى جميع نواحى الحياة الإنسانية من اجتماع واقتصاد وعلم وأدب وفلسفة .

ولد ولز فى بروملى من أعمال كنت بانجلترا عام ١٨٦٦ . وكانت والدته ابنة لصاحب نزل يزود عربات السفر بالجياد ، وذلك قبل ظهور القاطرة البخارية . أما والده فكان ابن بستانى ، وكان يدير حانوتاً صغيراً فى إحدى ضواحى لندن . ولما لم تزدهر تجارته اضطرت والدته للاشتغال ربة دار فى أحد البيوتات الكبيرة .

وكان ولز فى تلك الأثناء فى الثانية عشرة من عمره واضطر إلى ترك المدرسة ليشتغل « صبى » صيدلى ثم « صبى » تاجر أجواخ . ولكنه انتهز الفرص التى كانت فى ذلك الوقت تتواتى للشعب فى انجلترا ليتزود بالتعليم العالى ، فحصل على منحة دراسية فى كلية العلوم الملكية بلندن

وتخرج عام ١٨٨١ بدرجة الشرف فى بكالوريوس العلوم مما أهله لتدريس علم الأحياء حوالى سنتين أو ثلاث سنين .

ولم تدر عليه مهنة التدريس ما كان يرجوه ، فولى وجهه شطر الصحـــافة وراح يدبج المقالات العلمية فى مجلتى Nature و Saturday Review التى لفتت إليه الأنظار . وكانت مقدمة لسلسلة من القصص التى تعالج المشاكل الاجتماعية والسياسية والتعليمية معالجة تحليلية تدل على آفاقه البعيدة فى التفكير . ذلك أنه وجد فى الكتابة لذة وتسلية وأداة للتعبير عما يجول فى رأسه الكبير من أفكار خطيرة نصب نفسه للدفاع عنها ، وكان دفاعه يتسم بحرارة الإيمان المأثورة عن الأنبياء والمصلحين ، فشخص أمراض المجتمع بعبقرية الطبيب الذى يعرف موضع الداء ، ورسم للحياة خططا بريشة فنان مبدع . فإذا ما أخذته حمية الكتابة واندفع فى غيرته الإصلاحية نسى نفسه ، ونسى الأساليب وقنن اللغة ، وراح يستخدم غريب الكلمات والتراكيب وأسلوب الصحفيين ، وهو فى ذلك يقول : « ما أهمية كونك فنانا عظيما ؟ هناك شخص ما فى مكان ما ، لم ينل الاهتمام الواجب . عليك به وارعه ! » لقد اتخذ ولز الأدب وسيلة لبث دعوته ومنبراً للإصلاح . ولم يتخذه غاية فى ذاته .

ويمكننا أن نقسم كتابات ولز إلى خمسة أنواع ، لكل نوع منها طابعه الخاص ، وهدفه المعين ، فقد ابتدأ بمجموعة من القصص التى تتسم بالخيال ، استخدم فيها الأفكار التى زخرت بها العلوم الحديثة

فى زمانه منها « عجلة الزمن »(١) سنة ١٨٩٥ ، و « الزيارات العجيبة »(٢) و « جزيرة الدكتور مورو »(٣) سنة ١٨٩٦ ، و « الرجل الخفى »(٤) سنة ١٨٩٧ ، و « حرب العوالم »(٥) سنة ١٨٩٨ ، و « عندما يستيقظ النائم »(٦) سنة ١٨٩٩ و « عجلات القدر »(٧) و « فى عصر المذنبات »(٨) و « أول من وصل إلى القمر »(٩) سنة ١٩٠١ ، و « طعام الآلهة »(١٠) سنة ١٩٠٤ ، و « الحرب الجوية »(١١) سنة ١٩٠٨ و « الحرب التى تضع حداً للحروب »(١٢) .

فى « عجلة الزمن » يصف ولز آلة تسير بسرعة هائلة تتوقف كلما حتى على حياة الإنسان فى سالف التاريخ وفى مستقبله، فإذا هو يجد أن البشر تطوروا إلى نوعين، نوع راق استخدم الآلات واستغرق فى حياة الراحة والدعة فضعفت وقلت حيويته ونوع آخر استقل وسكن باطن الأرض

---

1. The Time Machine.
2. The Wonderful Visits.
3. The Island of Dr. Moreau.
4. The Invisible Man.
5. The War of the Worlds.
6. When the Sleeper Awakes.
7. The Wheels of Chance.
8. In the Days of the Comet.
9. The First Men in the Moon.
10. The Food of the Gods.
11. The War in the Air.
12. The War That Will End War.

فصار أقرب إلى الوحوش منه إلى الإنسان ، وأراد ولز بذلك أن يرينا أن اعتماد الإنسان على الآلات له مزاياه ومساوئه .

وفى « الزيارات العجيبة » يصف ولز زيارة أحد الملائكة الأرض فى شكل طائر يصيده أحد رجال الدين ، فيصف لنا هذا الملاك ما رآه على الأرض من أحوال وعادات . أما « جزيرة الدكتور مورو » فهى قصة عالم توصل إلى اكتشاف عقار يعجل عملية التطور ويحيل القردة إلى بشر أو ما يشبه البشر ، ويجعلها الدكتور مورو تعيش فى نظام اجتماعى معين وفق قوانين وضعها لها ولكنه يخرق القانون فينقلب عليه مجتمعه ويفتك به . و « الرجل الخفى » قصة عالم آخر اكتشف عقاراً يخفى شمائله عن الأنظار . فلما تعاطاه مكتشفه ليجربه على نفسه لم يستطع أن يعيد نفسه جسماً محسوساً مرة أخرى ، ولما علم به الناس ثاروا عليه ولم يمهلوه حتى يتابع تجاربه فاضطر الرجل إلى ارتكاب عدة جرائم انتهت بقتله على يد رجال الحكومة . أما فى « حرب العوالم » فيتخيل ولز غزو سكان المريخ للأرض وتفوقهم عليها لولا الجراثيم التى تعيش فى الجو الأرضى التى فتكت بهم . وفى هذه القصة يتنبأ ولز من الطائرات ودورها فى القتال فيذكرنا بجول فرن الكاتب الفرنسى الذى تنبأ بالطائرات والمناطيد والغواصات قبل أن يعرفها الإنسان .

وفى « عندما يستيقظ النائم » يتخيل ولز أن أحد معاصريه أخذته سنة من النوم مثل رجال أهل الكهف فنام مائتى سنة واستيقظ ليرى كل شىء فى دنياه يسير بالآلات ولكن الرأسمالية قد طغت واستبدت بالناس فتقع حرب أهلية تهدف إلى إقامة العدل والمساواة وتكافؤ

الفرص . ويتخيل ولز فى قصة « طعام الآلهة » اكتشاف أحد العلماء لمادة كيميائية تعجل نمو المخلوقات مطرداً فلما جربها العالم على الأطفال والدجاج وتسرب بعضها خطأً إلى طعام الجرذان والزنابير والأعشاب نمت نمواً مرعباً وشكلت خطراً على الإنسان فوقعت بينه وبينها حرب عدائية طاحنة انتهت بغلبة البشر واختفاء هذه المادة العجيبة .

ويبين لنا هذه الكتب فيما لا يدع مجالا للشك شدة تعلق ولز بالعلم وضرورة التجائنا إليه لحل مشاكلنا الاجتماعية على ألا يستحوذ استخدامنا له على الروح الإنسانية العليا .

على أن أول كتاب نشره ولز بعد مقالاته الصحفية كان « مختارة من الملاحظات مع أحد الأعمام »[1] سنة ١٨٩٥ وكتاب « علم الحياة »[2] الذى اشترك فى تأليفه معه أستاذه فى مادة علم الأحياء الأستاذ جوليان هكسلى حفيد هكسلى الكبير أحد دعاة نظرية التطور .

ثم نأتى إلى النوع الثالث من كتابات ولز : قصصه الرومانتيكية ذات الطابع الواقعى . وقد اشتهرت شهرته الأدبية على القصص الأربع التالية منها : « الحب ومستر لويشام »[3] سنة ١٩٠٠ ، و« كيبس »[4] سنة ١٩٠٥ و« تونو بنجاى »[5] سنة ١٩٠٩ ، و« تاريخ مستر بولى »[6] سنة ١٩١٠ .

---

1. Select Observations with An Uncle.
2. The Science of Life.
3. Love and Mr. Lewisham.
4. Kipps.
5. Tono Bungay.
6. The History of Mr. Polly.

ويأتي بعدهما في الروعة الأدبية « آن فيرونيكا »[1] سنة ١٩٠٩ « ومكيافللي الجديد »[2] وكانت هذه المرحلة من أنجح مراحل حياته بوصفه أديبا فنانا . أما قصتاه الرومنتيكيتان الأخريان « الأصدقاء المتحابون »[3] و « زوجة سير أيزك هرمن »[4] لم تصلا إلى هذا القدر من الشهرة .

ومن هذا النوع من القصص قصة « أطفال الغابة المظلمة »[5] سنة ١٩٤٠ وقصة « لا يمكنك أن تكون حريصاً جداً »[6] سنة ١٩٤٢ .

ويصف هنري جيمس قصة « كيبس » بأنها أول قصة يسير فيها التهكم والهجاء سيراً مطرداً مقترنا بالذكاء . وتشترك مع قصة « الحب ومستر لويشام » في نقد النظم والتقاليد الاجتماعية التي تؤدي إلى ضياع الفرص وفقدان السعادة . وكثير من حوادثهما قريب مما وقع لولز ذاته . أما « تونو بنجاي » فهي قصة الدجل الطبي في عصرنا الحاضر وهي نقد للمجتمع الذي يسمح للدجالين بالإثراء على حساب البسطاء . ويعدها النقاد من أحسن ست قصص ظهرت منذ بداية القرن العشرين .

وفي قصة « آن فيرونيكا » عالج ولز مشكلة الفتاة الثائرة التي تدرس

---

1. Ann Veronika.
2. The New Machiavelli.
3. The Passionate Friends.
4. The Wife of Sir Isaac Harmon.
5. Babes in the Darkling Wood.
6. You Can't Be Too Careful.

العلم وتفكر بحرية وتخرج على التقاليد فتصبح حياتها ، وقد انتقض عليها الناس ، فريسة للنزعات النفسية العنيفة . أما « مكيافللي الجديد » فبحث سياسي فضلا عن كونه دراسة جريئة لعاطفة الحب الجارفة .

ويعتقد ثقات النقاد أيضاً أن قصة « تاريخ مستر بولي » هي على قصرها خير ما سطر يراع ولز . فقد ولد مستر بولي هذا وله روح الفنان ولكن القدر أراده أن يكون تاجر جوارب فاشل في مدينة ساحلية وأن يتزوج زواجا غير متكافئ من امرأة غنية ، وأن يعاني عسر الهضم بسبب رداءة ما كانت تطهو له من طعام ويثور الرجل آخر الأمر ويهجرها ، فيستعيد صحته وسعادته . وتمتاز هذه القصة دون غيرها بروح المرح والفكاهة التي تجعلها أشبه ما تكون بقصص دكنز على الرغم من الفلسفة الوازنة التي تكون لحمتها وسداها .

وفي سنة ١٩١٦ ظهرت له قصة « مستر بريتلنج ثاقب البصر »[1] التي نرى فيها أثر الحرب على نفسيته والتي عرض فيها لمخاوف الطبقة المفكرة في انجلترا خلال الحرب العالمية الأولى ، كما نقد فيها أساليب التربية العصرية وبسط آراءه وأفكاره التعليمية . ولم يكن بريتلنج هذا سوى ولز ذاته في مرحلة من مراحل تطوره الروحي . وذلك حين يتكلم بلسان بريتلنج فيقول إن البطولة النادرة التي أظهرها شباب العالم أجمع وهو يضحي بنفسه في تلك الحرب قد أورثنا الله .

وفي قصة « أطفال الغابة المظلمة » نرى ولز يعطف على الشباب والطلبة الذين يخوضون غمار الحرب العالمية الثانية . أما في القصة

---

1. Mr. Britling Sees It Through.

الأخرى التى حاما ، لا يمكنك أن تكون حريصا جدا ، فقد أنحى باللائمة على الرجل الذى يهرب من الحرب حرصاً على سلامته وبضعوة ركوب المخاطر وتجربة حظنا فيها وتمعن فى هذه القصة بالحراف فى مراج المؤلف فإن بطلها يقتل دخيلا أجنبياً ويكافأ على ذلك على الرغم من أن القتل حدث عرضاً .

وأتبع ولا قصة « مستر بريتلنج ثاقب البصر » بقصة « قصة الأسقف[1] » وقصة « جون وبيتر »[2] التى ينتقد فيها المعلمين وبرامج التعليم الكلاسيكية وهى امتداد فكرى وروحى للقصة الأولى وعرض للدين الجديد الذى يتراءى لنا فى القصتين متلاق العبارة ، أنه يوصفه الملك الذى لا تراه العين . ثم ظهر له كتاب « الزواج[3] » الذى يعالج فيه هذه المشكلة وكتاب « البحث العظيم »[4] الذى يبشر بآمال جديدة تخليص عالمنا من التفاهات والحماقات التى تملؤه . وفى سنة ١٩١٤ خرج إلى الوجود كتابه « إنجليزى ينظر إلى العالم »[5] و « العالم بعد إطلاق سراحه »[6] وهما بمثابة نزعة ترقيبة فلسفيا جديدة كتاباته الأخرى . وأتبع فى سنة ١٩٢٨ كتابه « المؤامرة المكشوفة »[7] الذى يصفه

1. The Soul of a Bishop.
2. John and Peter.
3. Marriage.
4. Research Magnificent.
5. An Englishman Looks at the World.
6. The World Set Free.
7. The Open Conspiracy.

بالنموذج الأساسى للحياة والصورة المستقبلة للعالم ، وفى سنة ١٩٢٣ كتابه « التكوين فى دور التكوين »[1] .

أما النوع الثالث من كتاباته ولو فهو أدبه غير القصصى الذى استخدمه أداة لتصميم نظامه الاجتماعى والسياسى والتربوى فأخرج فى عام ١٩٣٢ « عمل الجنس البشرى وصحته وسعادته »[2] يمكن أن نعده بمثابة كتاب فى علم الاجتماع . ومن هذا النوع كتاب « التنبؤات »[3] الذى ظهر سنة ١٩٠١ وهو مقالات مترابطة فى علم الاجتماع الإنشائى ، وكتاب « النظام العالمى الجديد »[4] سنة ١٩٤٠ ، الذى يعلن فيه حقوق الإنسان فى عشر مواد هى وليدة الحاجة الإنسانية فى مجتمعنا الجديد بعد أن فشلت الديموقراطية ووجب الثورة على نظمها البالية . والكتاب ملحق منطقى لكتابه « المصير للإنسان المفكر »[5] ومن هذا النوع أيضاً كتابه « الانتصار على الزمن »[6] سنة ١٩٤٢ وهو تصحيح لآرائه التى أدلى بها فى كتاب « البداية والنهاية »[7] . وهو أى « الانتصار على الزمن » مجموعة من المقالات الفلسفية البسيطة التى يعلق فيها بطريقته الخاصة على آراء الفلاسفة فى موضوع الزمن والفضاء .

1. Making in the Making.
2. The Work, Health and Happiness of Mankind.
3. Anticipations.
4. The New World Order.
5. The Fate of Homo Sapiens.
6. The Conquest of Time.
7. First and Last Things.

وعلاقتهما بالإنسان والحياة والموت والإنسان الجديد وديانته . وفى سنة ١٩٣٣ خرج له كتاب «صورة المستقبل»[1] وهو بمثابة نبوءة عن الكارثة التى حلت بأوروبا بعد مرور سبع سنوات على ظهور الكتاب وقد اتسم هذا النوع من الكتابات الاجتماعية بتسرعه فى الحكم على الأشياء أحيانا . هذا التسرع الناشئ عن نفاد صبره لسير الديموقراطية الحقيقية التى رسم صورتها فى ذهنه . هذا على الرغم من أنه من أعضاء الجمعية الفابية[2] التى تدعو إلى التؤدة والتروى وتنبذ الثورات .

ولعل أعظم عمل قام به ولز على الرغم من الأخطاء التى وردت فيه هو كتابه «ملخص تاريخ العالم»[3] سنة ١٩٢٩ وهو محاولة لإيجاد صلة بين شعوب الأرض دعما لفكرته عن الدولة العالمية ، وطريقة جديدة فى دراسة التاريخ باعتباره قصة مثيرة محكمة الحلقات لتطور الإنسان والحيوان والنبات والأرض ، وليس مجرد سرد لأحداث تاريخية ووقائع حربية وأمجاد استعمارية . فولز كبرنارد شو يكره الاستعمار والمستعمرين ويسخر من دعاة الحرب .

واهتم ولز بالسينما بوصفها أحد المنابر العامة التى يستمد منها الشعب مواعظه — وهنا نأتى إلى النوع الرابع من كتاباته — فقدم

1. The Shape of Things to Come.

(٢) Fabian Society نسبة إلى فابيوس القائد الرومانى الذى كان يكسب معاركه الحربية بكسب الوقت وليس بالقتال .

*3. Outline of History.

لها فى سنة ١٩٢٨ قصة «الملك الذى كان ملكا»[1] يصف فيها الملوك كما قد يبدون على الشاشة الفضية وأخرج له فى نفس السنة شريط سينمائى آخر لم تنشر قصته «أسماك الزجاجات الزرقاء»[2] استغرق عرضه عشرين دقيقة . وفى سنة ١٩٣٦ أخرج للسينما «ما سيأتى به الغد»[3] مبنياً على كتابه «صورة المستقبل» . وفى سنة ١٩٣٧ أخرج له شريط سينمائى مبنى على أقصوصته الطويلة «صانع المعجزات»[4] وهو قصة إنسان لا يؤمن بالمعجزات ، ومع ذلك يحاول أن يحل مشكلة السلام . ومن قصصه العلمية الأخرى التى أخرجت للسينما ولاقت نجاحا عظيما قصة «الرجل الخفى» و«جزيرة الدكتور مورو» . ولا شك فى أن كثيراً من الموضوعات العلمية التى تعالجها السينما مبنى بصورة مباشرة أو غير مباشرة على الأفكار التى جادت بها قريحته العلمية .

ونأتى أخيراً إلى القصة القصيرة وهى تؤلف النوع الخامس من كتابات ولز ، وله فيها جولات بارعة بوصفها أقرب السبل للتعبير عن فكرة أساسية . وقد بلغ أسلوبه الفنى فى بعضها مبلغ الروعة ومنها قصة «بلد العميان»[5] و«العنكبوت»[6] و«الجرثومة المسروقة»[7] سنة ١٨٩٥ و«حقيقة بايكرافت»[8] و«الرجل الطائر»[9] .

1. The King Who Was King.
2. Blue Bottles.
3. Things to Come.
4. The Man Who Could Work Miracles.
5. The Country of the Blind.
6. The Web.
7. The Stolen Bacillus.
8. The Truth About Pyecraft.
9. The Flying Man.

وكان ولز كاتبا مكثرا ، ظل يكتب بانتظام زهاء خمسين عاما فأخرج للعالم أكثر من تسعين كتابا غير الكتيبات والقصص القصيرة والمقالات الصحفية . فكان يكتب ويمحص ويصحح كتاباته السابقة ويعيد إصدارها تحت عناوين جديدة . كانت كتبه كصوره تتسم بالحيوية والشباب وتسود الصراحة كل صفحاتها . كان يكتب بلاهوادة وبلا تنسيق ، وحسبه أن يقدم للعالم شيئا جديداً ، فكراً أو خاطراً يعرضه على الرأى العام ليقول قوله فيه . ونشعر ونحن نقرأ فى أفكاره أنه لايعبأ بما يقوله الناس عنه ، فقد انتقد بلا رحمة حوالى تسعة أعشار آراء مواطنيه كما قال برنارد شو عنه مرة . ونلاحظ أن بعض نواحى المشاعر الإنسانية ظلت بعيدة عنه فلا نجد بين أشخاص قصصه من جاشت نفسه بالحب العميق الصادق ، وهو فى هذه الناحية أيضاً يشبه معاصره شو ، هذا على الرغم من أن اهتمامه الأخص كان بالطبيعة البشرية وبالرجل العادى ورجل الشارع على عكس معاصره شو الذى لم يكن يهتم بالبلهاء والعاديين من الناس ، إن ولز لا يسلينا ، بل يجعلنا نفكر . وسواء اتفقت آراؤنا معه أو لم تتفق ، نجد أنفسنا مستغرقين فى تحليل النتائج التى وصل إليها فى قضايا كنا قبل قراءتنا لكتبه نقف منها موقف المتفرج فحسب أو المسلم بها دون سؤال .

توفى ولز فى شهر أغسطس من عام ١٩٤٦ بعد أن حنى لذكراه الخلود ، على الرغم مما قيل فى حياته الخاصة . لقد ترك وفاته فراغاً ملحوظاً فى العـــالم الذى يبدو أنه لم يستفد كثيرا من دعوته العالمية السلمية .

أول من وصل إلى القمر

نشرت هذه القصة أول مرة سنة ١٩٠١ فتقبلها الجمهور كما تقبل سائر قصصه الخيالية ، أما اليوم فلنا معها شأن آخر فموضوعها يشغل أفكارنا نحن الذين عشنا لنرى محاولات غزو الفضاء الخارجى ، وعلى الرغم من أن القصة ليست من أمهات القصص التى كتبها ولز فهى تمثل لنا صراع الإنسان للتغلب على العقبات وتذليلها للوصول إلى هذا التابع التقليدى الذى عبده أجداده والذى سحر الشعراء والفنانين وحير العلماء والفلكيين فراحوا يرسلون إليه الأقمار الصناعية لتدور فى فلكه وتنقل لنا أخباره .

بطلا القصة رجلان عالم وأديب ، كلاهما يمثل ناحية من شخصية ولز العالم الأديب ، جمعتهما الصدف فى مدينة ساحلية بإنجلترا ، قصد كل منهما إليها ليتفرغ لدراسته الخاصة .. كافور ليتحقق من نظرية علمية تجول فى رأسه ، وبدفورد ليكتب مسرحية ويضع مناظرها ، وتوصل كافور إلى اكتشاف مادة تبطل عمل الجاذبية وتجعل الشىء بدلا من أن يهوى إلى الأرض يندفع إلى الفضاء . واستطاع بعد تمكنه فى هذه المادة أن يبنى منطاداً يسافر به إلى القمر هو وبدفورد . ويصلان إليه فى الفجر فلا يعثران فوق سطحه إلا على أحياء نباتية غريبة ويضايقهما جوه وبرده ، وإذا هما يلمحان حيواناً ضخماً غريب الشكل يسوقه مخلوق أغرب منه شكلا وأطواراً ، ويستبد بهما الجوع

فيفتنان بأحد الأحياء التي عثرا عليها، ويكون لهذا النبات عليهما تأثير مخدر ضار، وعندما يفيقان يجدان أنفسهما مكبلين بالأغلال فيدركان أنهما في أسر مخلوقات قمرية عجيبة، وأن جوف القمر يعج بهذه المخلوقات التي تتفاوت في التركيب والمظهر والعادات، ولكنها جميعاً ذات أشكال هي أقرب إلى الحشرات منها إلى الآدميين، وتتعدد أشكالها وتتنوع بتعدد الوظائف التي تقوم بها وتنوعها، فإن كانت الوظيفة ذهنية تضخم الرأس وتطور وإن كانت عضلية تضخمت العضلات أو الأعضاء التي تقوم بها وتطورت. وتتفاوت هذه المخلوقات أيضاً في الرتبة الاجتماعية بشكل هرمي فالمناصب الخطيرة في أيدي جماعة تطورت أحجام رءوسها فبلغت شأواً عظيماً من العلم، وعلى رأسها جميعاً القمري الأعظم حاكم القمر، ويساعده في الحكم علماء واجتماعيون ومهندسون وفنيون تخصصوا تخصصاً فريداً في الوظائف التي يمارسونها.

وتقوم بين البطلين وسكان القمر مناوشات وصدام في محاولتهما الهروب من الأسر، ويضطر بدفورد إلى استعمال العنف فيقتل عدداً من المخلوقات القمرية استخدمت أسلحة بدائية غريبة، ويتمكن في نهاية الأمر من العثور على المنطاد الذي كانا قد ضلا السبيل إليه، ويهرب به عائداً إلى الأرض على أن يقوم بمحاولة أخرى لغزو القمر والحصول على ما فيه من ذهب وتأسيس شركات استغلالية ونفوذ استعماري ويضطر إلى ترك كافور وحده دون أن يعلم ما أصابه.

ويتجلى الأمر عن وقوع كافور مرة أخرى في الأسر، فيحاول

أن يكتسب ثقة آسريه فما إن اطمأنوا إليه حتى عكف على دراسة أحوالهم ولغتهم ومجاهل القمر، وقد نجح أخيراً في إرسال إشارات إلى أهل الأرض يحيطهم فيها علماً بكل ما وقف عليه من معلومات، ومنها أن القمريين يعيشون في سلام وتعاون وقد حفروا مغاور وطرقاً في جوف القمر يلجئون إليها هرباً من حرارة السطح وبرودته اللتين لا تحتملهما أجسادهم الهشة. وقد وقف بدفورد على سر هذا الإرسال مع أحد علماء الأرض المهتمين بهذا الموضوع. ولما وصل كافور في المعلومات التي كان يمد أهل الأرض بها إلى مسألة المادة الكافورية وبدأ يشرح طريقة صنعها وقف الإرسال فجأة، ويرجح أن أهل القمر حالوا بينه وبين إعطاء هذه البيانات خوفاً على أنفسهم ونظامهم من غزو الأرض لهم وتعكير صفو السلام في دنياهم الآمنة.

ويعدنا الفصل العشرون بوصف وافٍ لبدفورد وأفكاره. وتنتهي من القصة بفكرة تتركنا حيارى، وهي الفكرة التي يصرح بها كافور حين يتساءل: لم أتينا وما هو هدفنا؟ ماذا يعني القمر لنا؟ ومن نكون نحن بالنسبة له؟ وإن هذا العلم اللعين يتحرش بك.. ويضحك الثبات فلا تفتأ تحررها حتى يحطمك. إنه يحارب عواطفك القديمة بأسلحة جديدة، وهو تارة ينقلب على ديانتك وطوراً على آرائك الاجتماعية.

وتنتهي القصة كما بدأت. ينزل بدفورد بمنطاده على أحد شواطئ إنجلترا، ويستبد حب الاستطلاع بغلام غريب الأطوار فيصعد إلى المنطاد في غياب صاحبه ويدير آلاته بطريقة عشوائية فيصعد به المنطاد إلى طبقات الجو العليا، ولا نعود نعرف عنه شيئاً.

وهكذا تركتنا القصة حيارى . . . نفكر فى القضايا المتعددة التى تركها لنا ولز ، ولا تنتهى إلى شىء ، ولكن كلماته لا تفتأ ترن فى آذاننا وهو يقول على لسان بدفورد : « كنت على استعداد لمواجهة العالم كما اعتدت أن أواجهه دائماً منذ بلوغى سن الرشد » .

لقد واجه ولز العالم بشجاعة وعارض التقاليد الموروثة التى كانت تقف فى سبيل التقدم ، وعارض الحرب ودعاتها ، ودعا إلى إنشاء دولة عالمية ولغة عالمية وتساو فى الفرص أمام الجميع وقد بقيت رسالته حافزاً لنا كى نحمل شعلة العلم فى ثبات وإقدام .

(المترجم)

الفصل الأول

أول من وصل إلى القمر

مستر بدفورد يقابل مستر كافور فى ليمبنى

جلست لأكتب ، وسط ظلال الكروم ، تحت زرقة سماء جنوبى إيطاليا ، وحينذاك غمرنى شعور يمازجه نوع من الدهشة ، بأن اشتراكى فى مغامرات المستر كافور المذهلة كان ، فى نهاية الأمر ، نتيجة المصادفة المحضة التى تحدث لأى إنسان . وقد اندفعت فى هذه الأمور فى وقت خيل إلى فيه أنى بمنأى عن أية أحداث مقلقة قد تقع لى . وكان الباعث على ذهابى إلى ليمبنى هو ظنى أنها أهدأ الأماكن فى العالم ، وأبعدها عن الأحداث ، وقلت فى نفسى : « هنا ، على أية حال ، سوف أجد السكينة والفرصة للعمل » .

وجاء هذا الكتاب نتيجة لذلك ، فما أشد ما كانت القدر بجميع الخطط التى يضعها الناس ، حتى صغيرها .

وقد يصح لى أن أذكر هنا ، أنى قد فشلت فى الأيام الأخيرة ، فشلا ذريعا فى بعض المشروعات التجارية . أما وأنا أجلس الآن تحيط بى

جميع مظاهر الثروة ، فإني أرى أنه من الإسراف أن أعترف بأن طاقتي محدودة ، بل ويحكمني الاعتراف بأن مصائبي — كما عرفتها — كانت من صنعي إلى حد ما . ربما أوتيت المقدرة في بعض النواحي ولكني لم أوتها في إدارة العمليات التجارية ، على أني كنت صغير السن آنئذ ، واتخذ شبابي ، حين ما اتخذ من أردية مقلوبة ، رداء الزهو والكبرياء في مقدرتي على تصريف الأمور ، ومازلت حديث السن ، ولكن الأحداث التي مرت بي سلبتني جانباً من شباب الروح ، وإنه لأمر مشكوك فيه أكثر من غيره ، إن كانت قد كشفت عن جانب من الحكمة وراء ذلك العقل .

ولا ضرورة للضرب في بيـــداء الظنون التي ألمت بي في ليلتي في مقاطعة « كنت » . ففي أيامنا هذه حوافز قوية للمغامرات حتى في المعاملات التجارية . وأقدمت على المغامرة ومن طبيعة المغامرة بلا شك قدر من الأخذ والعطاء ، فكان من المقدر لي في نهاية الأمر أن أقوم بعملية العطاء على الرغم مني . ولم ير أحد الدائنين المشاكسين أي حرج عليه في أن يكون خبيثاً — حتى بعد خروجي من جميع المآزق — ولعلك صادفت من يتحرق غيظاً إذا ما انتهكت القضية ، أو لعلك قد شعرت بذلك بنفســك . فقد ضيق على ذلك الرجل النبيل ، حتى لقد خيل إلي في النهاية ، أنه لا مخرج لي من الورطة إلا بكتابة مسرحية ، اللهم إلا إذا أردت أن أكدح وأنصب لكسب قوتي كما يفعل المشتغل بعمل كتابي . ولما كنت صاحب خيال وذوق مرهف فقد عزمت على أن أناضل نضالا شديداً في سبيل الوصول

إلى هدف ، قبل أن يصيبني ذلك القدر . وفضلا عن اعتقادي بمقدرتي وحسن تدبير أعمالي ، كانت تخامرني في تلك الأيام فكرة بأني كفء لكتابة مسرحية جيدة جداً ، وهذا — كما أرى — اعتقاد شائع بين الناس . كنت أظن أنه ليس في وسع الإنسان أن يضطلع بشيء خارج نطاق العمليات التجارية المشروعة التي تهيء له مجالات واسعة للإثراء . ومن المحتمل جداً أن أكون قد انحرفت إلى هذه الفكرة . وكنت قد اعتمدت في الحقيقة على أن أنظر إلى هذه المسرحية غير المكتوبة ، بوصفها شيئاً احتياطياً مناسباً أدخره للأيام السود ، وهاقد جاءت الأيام السود فشرعت في العمل فعلا .

وسرعان ما تبين لي أن كتابة مسرحية أمر يتطلب وقتاً أطول مما كنت آمل . وكنت قد قدرت له في بادئ الأمر عشرة أيام ، ولم أجد أمامي إلا سعياً وراء مكان أستقر فيه ، والمسرحية في ذهني . وحدثت نفسي محظوظاً حين حصلت على هذا الكوخ الريفي الصغير بإيجار مداه ثلاث سنوات . وأثثته ببعض قطع الأثاث البسيط وكنت وأنا أكتب أقوم بطهي طعامي الخاص ، هذا الطعام الذي كانت تعافه نفس المترف لو أنها تناولته ، على الرغم من طيب مذاقه ، كما لا يخفى عليك . وكنت أملك وعاء لغلي القهوة ومقلاة لقلي البيض وأخرى للبطاطس ، ومقلاة للسمك ، ولحم الخنزير . هذه كانت آنيتي البسيطة التي هيأت لي الراحة ، ذلك أنه لما كان الإنسان عاجزاً عن أن يحيا دائماً حياة الترف ، فالبساطة بديل ميسور . وأنفقت زيادة على ذلك دناً من البيرة سعته ثمانية عشر جالونا ، ابتعتها بالنسيئة . وكان يجيئني

بالخبز كل يوم خبازاً أميناً . قد لا يكون ذلك على نسق أهل سيباريس[1] ولكنى عرفت أوقاتاً أتعس ، وكنت أرثى لحال الخباز فقد كان فى الحقيقة رجلا شريفاً وكان يحدوه الأمل بتحسن الأحوال حتى له .

لاشك أن تيبنى خير مكان لراغب فى العزلة ، فهى مدينة تقع فى الجزء الصلصالى من مقاطعة « كنت » . وكان منزل الرق يقع على حافة تل قديم مشرف على البحر ، ويطل على بطاح « رومنى مارش » عند البحر فى مواجهة التل ، ويكاد يتعذر الوصول إلى هذا المكان فى الجو الطين . وقد وصل إلى سمعى أن عامل البريد اعتاد ، فى بعض الأحيان ، أن يقطع الطريق فى أجزائه الطافحة بالماء على لوحين من الخشب يثبتهما فى قدميه ، وعكنتى تخيله جيداً وهو يفعل ذلك وإن لم أره بعينى رأسى . وترى خارج الأكواخ والمنازل القليلة التى تتألف منها القرية الحالية ، مكانس كبيرة من الأغصان قائمة عند الأبواب ، لإزالة قبح صلصال القرية . وهو عمل يعطى الإنسان فكرة عن تكوين المقاطعة . وأشك فى بناء هذا المكان فى حيز الوجود إلى الآن لو لم يكن ذكرى زائلة لأشياء اندثرت إلى الأبد . فقد كانت القرية فى أيام الرومان مرفأ انجلترا الأكبر ، وكان يسمى ميناء ليانوس أما الآن فقد انحسر عنه البحر مسافة أربعة أميال . وتقع فى أسفل هذا التل السريع الانحدار أحجار ورخام من القرميد من صنع الرومان ،

---

(1) سيبارس (Sybaris) مدينة قديمة فى جنوبى إيطاليا اشتهر أهلها بعيشة الترف والبذخ .

يخرج منها شارع وطئته القديم الذى ما زال معبداً فى بعض أجزائه ، والذى يمتد كسهم إلى الشمال ، وقد اعتدت أن أقف على التل وأفكر فى جميع هذه الأمور : فى سفن الرومان القديمة وفرقهم العسكرية ، والأسرى والموظفين والنساء والتجار ، والمضاربين أمثالى ، وفى الضوضاء والضجيج اللذين يلازمان حركة النقل داخل الميناء وخارجها . والآن لم يبق من هذه جميعاً سوى بضع كتل من ركام الأحجار على المنحدر المغطى بالحشائش ، وسوى خروف أو اثنين ، وسواى ! وتقع فى مكان الميناء القديم مستويات المستنقع الذى يحف به فى منحنى عريض يصل إلى مدينة ضنجنس البعيدة ، تتناثر عليه هنا وهناك الأشجار المتشابكة وأبراج كنائس المدن القديمة التى عاشت فى القرون الوسطى ، والتى أخذت تسير فى طريق الانقراض شأنها فى ذلك شأن ميناء ليانوس سواء بسواء .

وكنت وأنا أطل على المستنقع أشاهد منظراً هو بحق من أجمل المناظر التى شاهدتها فى حياتى . وأظن أن مدينة ضنجنس تقع على مسافة خمسة عشر ميلا ، وتبدو كعوامة على سطح البحر ، وإلى مسافة ما تجاه الغرب تمتد التلال القريبة من هيستنجز ، تحت أشعة الشمس الغاربة . وكانت تارة تبدو قريبة واضحة ، وتارة أخرى باهتة خفيضة ، وكثيراً ما حجبتها الرياح الجارفة عن الأنظار . وكانت الأطراف القريبة من المستنقع تنازعها الخفر والقنوات وتغشيها .

وكانت النافذة التي أحتل بالقرب منها تطل على الأفق الذي يحف بهذا التل، فوقع نظري منها على كافور لأول مرة، وكنت آنئذ أبذل غاية جهدي لوضع السيناريو بكل ما يقتضيه هذا العمل من إجهاد ذهني وعناء شديد، فاسترعى كافور انتباهي بطبيعة الحال.

وكانت الشمس قد مالت للمغيب، وبدت التلال تشع الضوء الضيق بلونيها الأخضر والأصفر، فانعكس شبحه عليها بلون أسود ورأيت أغرب جسم صغير شهدته.

كان صغير البدن، قصير القامة، مستديراً، نحيل الساقين، اتسم حركاته بالاضطراب، وقد رأى من المناسب أن يغطي بدلته الغريب العجيب بشبيهة من التي يلبسها لاعبو الكريكت، وأن يلبس معطفاً وسروالا قصيرا وجوارب طويلة كراكبي الدراجات، ولم أعرف سبب اتخاذه هذا الزي لأنه لم يركب دراجة قط في حياته ولا لعب الكريكت. وقد اجتمعت هذه الثياب على جسده اتفاقا وعرضا، ولكني لا أدري كيف كان ذلك. وكان يحرك يديه وذراعيه ويهز رأسه، فيحدث أزيزا كأزيز جهاز كهربائي.. أزيزا لا يمكن أن تكون قد سمعت شبيها له، وكان بين الفينة والفينة يتنحنح ويفعل ذلك دون انقطاع، فيحدث صوتاً لا يفوقه شيء في غرابته.

كان المطر يتساقط حينئذ، فأسرع في مشيته المضطربة بسبب شدة زلاقة الطريق، ولما صار في مواجهة الشمس تماماً، وقف وأخرج ساعته. وبدا عليه شيء من التردد، ثم بدت منه حركة تنفس، فدار على عقبيه، ورجع القهقرى، ومظاهر السرعة جميعها بادية عليه، ثم

سار دون أن يحرك جسمه، بخطوات واسعة يثبت كل قدميه تثبيتاً، وأذكر أنهما كانا مفرطين في الضخامة، بصورة غريبة، وذلك بسبب ما علق بهما من صلصال، فكان لذلك أكبر حرية ممكنة.

حدث ذلك في أول يوم لإقامتي في ذلك المكان، حين كان نشاطي في كتابة تمثيليتي في أوجه، وعددت الحادث مجرد عارض مزعج، أضاع من وقتي خمس دقائق. وعدت إلى السيناريو، ولكن لما تكرر ظهوره في المساء التالي بدقة عجيبة، وعاد ظهوره في كل ليلة خلت من المطر، عندئذ أصبح تركيز ذهني في إعداد السيناريو أمراً يقتضي مجهوداً غير قليل. فقلت في نفسي: «لعن الله هذا الرجل، إن المرء ليظن أنه يتدرب ليصبح "قرقوزا"». ورحت أستنزل عليه اللعنة من كل قلبي، ثم استحال انزعاجي إلى دهشة وحب استطلاع، فبالله عليك ماذا يدعو إنساناً للقيام بهذا العمل؟ ولما كانت الليلة الرابعة عشرة لم أعد أطيق صبرا، وما إن لاح الرجل حتى فتحت باب الشرفة وخرجت، وتوجهت إلى الموضع الذي وقف فيه دون أن يخطئ.

وكان حين وصلت إليه، قد أخرج ساعته، وبدا وجهه متقداً محمراً وعيناه صغيرتين مع ميل إلى الحمرة، ولم أكن قد رأيته قبل ذلك إلا في مواجهة الضوء، فقلت له وهو يدور على عقبيه ليمضي: «لحظة واحدة يا سيدي».. ولكنه تفرس وقال: «لحظة واحدة، بكل تأكيد. أما إذا أردت أن تتحدث إلى وقتاً أطول، وليس هذا بالشيء العسير، لقد انقضت اللحظة التي طلبتها. أيضيرك أن تسير معي؟».

فقلت له ، وقد انتقلت فصرت إلى جانبه : « لن يضير في ذلك في شيء » .

قال : « أنا منتظم في عاداتي ، ووقتي للكلام محدود » .

ـ أظن أن هذا الوقت بالذات هو وقت رياضتك ؟ .

ـ إنه لكذلك . إني آتي هنا لأتمتع بالغروب .

ـ ولكنك لا تتمتع به .

ـ ماذا تعني بقولك يا سيدي ؟ .

ـ إنك لا تتطلع إلى الشمس أبداً .

ـ لا أتطلع إليها أبداً ؟ .

ـ أبداً . لقد راقبتك ثلاث عشرة ليلة ، ولم تتطلع في أثنائها إلى الشمس ولا مرة واحدة ، ولا مرة واحدة .

فقطب جبينه كمن تعترضه مشكلة ، ثم قال :

« أجل ، إني أتمتع بضوء الشمس ، بالجو ، أسير في هذه الطريق ، خلال تلك البوابة » . وجعل يحرك رأسه فوق منكبيه ، ثم تابع حديثه فقال : « وحول ... » .

فقطعت عليه الحديث معترضاً : « ولكنك لا تفعل . إنك لم تفعل ذلك قط . كل هذا كلام لا معنى له ، فليس هناك طريق ، وهذه الليلة مثلا ... » .

فقاطعني قائلا : « أوه . هذه الليلة ! دعني أفكر ... آه إنني لم أفعل شيئاً سوى أني ألقيت نظرة خاطفة على ساعتي ، ووجدت أنني

قد خرجت من البيت متأخراً ثلاث دقائق لا غير عن نصف الساعة المحدد بدقة . فقررت أنه ما عاد لدي من الوقت فسحة التجول ، فدرت على عقبي ... » .

فقلت متأملا : « إنك تفعل ذلك دائماً » .

فنظر إلي مفكراً ، وقال : « قد يكون ذلك صحيحاً ، لقد خطر ذلك ببالي الآن . ولكن ما الذي جئت تحدثني به ؟ » .

ـ في هذا الأمر بعينه .

ـ في هذا الأمر ؟

ـ نعم ، ولكن لم تفعل ذلك ؟ . إنك تخرج كل ليلة فتحدث ضوضاء ...

ـ أحدث ضوضاء ؟ .

قلت وأنا أقلد أزيز صوته : « هكذا ؟ » .

فنظر إلي ، وكان جلياً أن الأزيز أحدث عنده تقززاً .

وسألني : « هل أفعل ذلك ؟ » .

ـ كل مساء !!

ـ لم يخطر ذلك ببالي قط .

ووقف فجأة ، ثم وجه إلي نظرات قاسية وقال : « أيمكن أن أكون قد كونت عادة جديدة ؟ » .

قلت : « أجل ، يبدو الأمر كذلك . أليس كذلك ؟ » .

فأمسك بشفته السفلى بين سبابته وإبهامه . ومطها إلى أسفل ، ثم

وجعل ينظر إلى بركة صغيرة من الوحل عند قدميه ، وقال :

« دماغى فى شغل شاغل . وتريد أنت معرفة السبب . أجل ياسيدى ، أستطيع أن أؤكد لك أنى لست أجيل لحسب لماذا آتى هذه الأعمال . بل إننى لم أكن أدرى أنى أقوم بها . وقد بدأت أرى أن الأمر كما تقول . وأنى لم أتعد قط حدود ذلك الحقل .. هل تضايقك هذه الأمور ؟ » .

وكنت لسبب من الأسباب ، قد بدأت آلين له ، فقلت : « ليست المسألة مسألة مضايقة . ولكن تخيل نفسك تكتب مسرحية ! » .

فقال : « ما استطعت إلى ذلك سبيلا . » .

فقلت : « أجل . وأنا أحوج ما يكون إلى كل ما يساعدنى على تركيز الذهن . » .

ثاب إلى نفسه متأملا وقال : « بطبيعة الحال » .

وراحت أساريره تعبر تعبيراً فصيحاً عما يعانيه الرجل من حيق حتى إلى ازددت شفقة عليه ، وهناك على أية حال شىء من التبجح إذا سألت رجلا لاتعرفه عن سبب أزيزه وهو يسير فى طريق عام واستطرد الرجل يقول بصوت خافت : « إنها كما ترى عادة . » .

— أوه أعرف ذلك .

— يجب أن أقلع عنها .

— لا تفعل . إذا كان ذلك يضجرك . ولا شأن لى بالأمر على أية حال ، فهو متعلق بحريتك أنت .

— ليس ذلك بتاتا ياسيدى ، ليس ذلك بتاتا . إنى مدين لك بالشىء الكثير ، إذ يجب على أن أحتاط لنفسى من هذه الأمور . وسأفعل فى المستقبل . هل لى أن أزعجك مرة أخرى فأطلب منك أن تقلد تلك الضوضاء ؟

فقلت مقلدا : « إنها شىء من هذا القبيل : ززوو . . . ززوو . . . ولكنك فى الحقيقة تعرف » .

فقطع على سبيل الكلام قائلا : « أنا شاكر لك جدا . وأنا أعرف أنى قد أصبحت فى حقيقة الأمر شارد العقل بصورة سخيفة . أنت محق ياسيدى . محق جدا ، وأنا مدين لك حقيقة ، ولأقلعن عن هذه العادة والآن ياسيدى لقد اصطحبتك معى مسافة أطول مما يجب . » .

فقلت له معتذراً : « أرجو جاداً ألا تكون وقاحتى ..... »

فقال مقاطعاً : « أبداً ياسيدى أبداً » .

وجعل كل منهما ينظر إلى الآخر برهة ، ورفعت قبعتى التحية ، متمنياً له مساء سعيداً ، فرد التحية بحركة تشنجية ، وسار كل منا فى طريقه .

ولما بلغت السور الخشبى المنخفض الذى يحيط بالعشب ، نظرت خلفى إلى شبحه المتوارى ، فإذا هيئته قد تغيرت تغيرا ملحوظاً ، وقد بدا جسمه رخوا منكمشاً ، ورحت أقارن - بشىء من الإشفاق - بين شخصيته الأولى وهو يهتز ويتنفض ويئز ، وشخصيته الحالية ، وجعلت أراقبه حتى غاب عن نظرى ، وعدت إلى منزل الريفى وإلى مسرحيتى وأنا

أتمنى لو أنى اهتممت بشئونى الخاصة ولم أقحم نفسى عليه .

ولم أره فى الليلة التالية ، ولا التى بعدها ، ولكنه كان يشغل حيزاً كبيراً من تفكيرى . وخطر لى أنه قد يؤدى غرضاً نافعاً فى تطوير المقدمة التى أبنى عليها مسرحيتى ، بشخصيته العاطفية المثيرة للضحك .

ولما كان اليوم الثالث جاء لزيارتى .

ولبثت بعض الوقت فى حيرة من أمر هذه الزيارة والدافع إليها . كان حديثه فى أول الأمر محايداً ومصوغاً فى قالب رسمى لا يدانيه شئ . ثم دخل فجأة فى الموضوع العملى الذى جاء من أجله ألا وهو رغبته فى شراء منزل الريف وإخراجى منه .

وقال : « أنت ترى أنى لا ألومك بتاتاً ، ولكنك قد هدمت عادة كونتها ، وفى هذا قلب لنظامى اليومى . لقد مررت بهذا المكان سنوات سنوات طوالا ، ولا شك فى أنى كنت أحبه أيضاً . لقد أصبح هذا بسببك أمراً مستحيلا الآن ! »

فاقترحت عليه أن يحاول اتخاذ وجهة أخرى ، فقال : كلا ، ليس ثمة وجهة أخرى ، فهذه هى الوجهة الوحيدة . لقد استقررت من ذلك والآن كلما حلت الساعة الرابعة مساء أجد حائطاً لا يمكن اجتيازه .

فقلت معترضاً : « ولكن إذا كان الأمر ياسيدى العزيز على هذه الغاية من الأهمية ... »

فقاطعنى قائلا : « إنه لأمر حيوى ، فأرجو أن تلاحظ أنى رجل بحاثة ، وأنا بصدد عمل بحث علمى . وسكت قليلا ، وكان يبدو أنه يفكر ، ثم تابع حديثه ، وأشار بأصبعه فجأة مقربا إياه من عينى بشكل

خطير ، وقال : « إنى أسكن هناك فى ذلك البيت ذى المداخن البيض ، الذى يقوم وراء الأشجار . وظروفى شاذة غير عادية . وأنا على وشك الانتهاء من إقامة الدليل على مسألة من أعظم المسائل أهمية . وأستطيع أن أؤكد لك أنها من أخطر الظواهر ، وتحتاج إلى تفكير مستديم وراحة ذهنية وعمل متواصل . وخير الأوقات عندى لذلك هو بعد الظهر[1] إذ تختمر فيه الأفكار الجديدة ووجهات النظر الجديدة . »

فقلت له : « ولم لا تتمشى كما كنت ؟ » .

قال : « سوف يكون الأمر مختلفاً ، وسوف أكون على الدوام شاعراً بوجودك ، مفكراً فيك وأنت منكب على مسرحيتك . تراقبنى منزعجاً ، فى الوقت الذى يجب على فيه أن أشغل فكرى فى عمل . كلا ، يجب أن أحصل على منزلك الريفى » .

فجعلت أتأمل ، وأردت بطبيعة الحال أن أفكر فى الأمر جيداً قبل اتخاذ خطوة حاسمة فيه . وكنت فى تلك الأيام على استعداد للقيام بصفقات تجارية ، وكان البيع مشوقاً لى على الدوام ، ولكن ، وقبل كل شئ ، لم يكن المنزل ملكاً لى . وحتى إذا بعته له بثمن مجز فقد أقع فى متاعب عند تسليمه « البضاعة » إذا بلغ خبر الصفقة المالك الحالى . ومن الجهة الأخرى لم أكن « خالى الطرف » . فقد كانت صفقة تتطلب معالجة دقيقة . على أن احتمال قيامه باختراع ذى قيمة أمر اهتممت له أيضاً ، وخطر لى أن أزداد معرفة بهذا البحث الذى يجريه ، دون أن

(١) هذا بالنسبة لسكان البلاد الباردة .

تكون لى أية صبغة بصدده ، بل لمجرد الترويح عن النفس من عناء الكتابة . ورحت أجس نبضه فى هذا الشأن .

فإذا به يرغب رغبة صادقة فى إمدادى بالمعلومات . وحدث ذات مرة أن جرفه تيار الحديث فعلا ، فكان كمن يدلى بحديث منفرد ، وتكلم كرجل طال حبسه ، كرجل تحدث مع نفسه مراراً وتكراراً فى الموضوع ذاته . وأخذ يتكلم زهاء الساعة . ويجب الاعتراف بأنى وجدت الإصغاء أمراً ينطوى على درجة كبيرة من الصعوبة . ولكن كان هناك شعور بالرضا — خلال الحديث كله — الرضا الذى يحسه المرء عند ما يصل حلا رصد له نفسه . لم أستخلص الكثير فى اجتماعى الأول به ، عن منحى العمل الذى اضطلع به . ذلك أن نصف المفردات التى استعملها كانت مفردات فنية غريبة على كل الغرابة . وأقام الدليل على مسألة أو مسألتين ، مستخدما ما سره أن يسميه المبادئ الرياضية الأولية ، وقد خط حساباته بالقلم الكوبيا على مظروف ، بصورة كان من الصعب فهمها . فكنت أقول له بين الفينة والفينة : « أجل .. أجل .. استمر » ، ولكننى فهمت مع ذلك ما يكفى لأن يقتنع بأن الرجل لم يكن واحداً من أولئك الذين يلعبون بالاكتشافات كانت تحيط به هالة من القوة يستحيل معها أن يكون من المزيفين بالرغم من مظهره الذى جعله يبدو كواحد منهم . ومهما يكن ذلك الكشف فهو شيء آلى له إمكانياته .

وأخبرنى بأنه يملك معملا ، ويعاونه ثلاثة نجارون دربهم بنفسه ، كانوا فى الأصل يشتغلون على أساس القطعة . والمسافة بين المعمل

ومكتب الرخص خطوة واحدة . ودعانى لأرى هذه الأشياء ، فقبلت الدعوة فوراً ، وحرصت فى ملاحظة أو ملاحظتين أبديتهما على تعليق أهمية كبرى على هذه الزيارة . أما اقتراحه بالتنازل عن المنزل الريفى فقد تركناه معلقا بطريقة أرضتنا ما جد الارتياح .

ونهض فى آخر الأمر لينصرف بعد أن اعتذر لطول الزيارة التى صرح أثناءها أن الحديث عن عمله لذة قل أن تمتع بها . ذلك أنه لم يجد دائما المنصت الذكى مثلى ، فضلا عن أنه قليل الاختلاط برجال العلم المحترفين .

وصاح قائلا : « ما أكثر السفلة وما أكثر الدساسين ، وذلك عندما يعثر المرء مصادفة على فكرة أو شيء جديد ، أو فكرة خصبة ، لا أريد أن أكون جائراً عليهم ، ولكن . . . . . »

وأنا رجل يعتقد بإطلاق النفس على سجيتها ، فقدمت له اقتراحا ، ربما كنت مفرطا فى تقديمه ، ولكن لا يخفى عليك أنى كنت قد قضيت أربعة عشر يوما فى تهيئة أكتب المسرحية وتأنيب الضمير الذى شعرت به لإلغائى نزهته اليومية ما زال ماثلا أمامى ، فقلت له : « لم لا تجعل من هذه عادة جديدة بدلا من العادة التى حثتك على الاقلاع عنها ؟ وعلى الأقل إلى أن تستقر على شيء فيما يتصل بالمنزل الريفى . إن ما تحتاجه هو التفكير فى عملك . لقد كنت تؤدى هذا التفكير بعد الظهيرة ، ولكنه لما يؤسف له أن هذا قد انتهى الآن ولا يمكن إعادة المياه إلى مجاريها لم لا تأتى إلى وتتحدث عن عملك لى ، وتتخذ منى حائطا تقذف عليه أفكارك ، وتتلقفها ثانية من المؤكد أنى لا أعرف عن

أفكارك مايكفيني لأقدم على سرقتها ، فضلا عن أنى لا أعرف هنا أحدا من رجال العلم . . . . . . »

وأمسكت عن الكلام ، وراح هو يفكر ، إذ من الواضح أن الاقتراح قد راق له . فقال : « ولكنى أخشى أن يكون فى ذلك مضايقة لك ؟ »

— أو تظنني بليد الذهن إلى هذا الحد ؟ .

— كلا ، ولكن المسائل الفنية . . .

— لقد جعلتني هذا المساء أشغف بموضوعك على أى حال .

— لا شك أن فى ذلك عونا كبيرا لى ، فليس ثمة شىء يوضح أفكار الإنسان أكثر من شرحها ، وقد كنت إلى هذه الساعة . . .

— لا تزد شيئاً ياسيدى العزيز .

— لكن هل تستطيع حقيقة أن تجد متسعاً من الوقت لذلك ؟

فقلت عن إقتناع عميق : « وليس أدعى إلى الترويح عن النفس من تغيير عملك . »

وتم الاتفاق عند ذلك ، وانثنى يقول ، وهو على درج شرفة المنزل : « أنا من الآن مدين لك بالكثير . »

فأحدثت صوتا يدل على التساؤل .

فعاد يشرح معنى قوله السابق : « لقد شفيتني شفاء تاما من تلك العادة السخيفة ، عادة الأزيز . »

وأظن أنى أجبته آنئذ بأنه يسرنى أن أقدم له أية خدمة . فانصرف إلى سبيله

ولابد أن سلسلة الأفكار التى تمخض عنها حديثنا قد أحدثت أثرها سراعا ، فقد بدأ ذراعاه يتحركان كسابق عهدهما ، وحمل إلى النسيم صوت أزيزه المعهود — ززرو — خافتا ضعيفا .

لم يكن هذا من شأنى على أية حال .

وجاء فى اليوم التالى ، وفى اليوم الذى بعده وألقى محاضرتين فى علم الطبيعة نالا ارتضائى ، وكان يتكلم بطريقة جعلت منه المحدث الملح الموضح إلى أبعد درجات التوضيح ، عن موضوعات « الأثير » و « أنابيب القوة » و « قوة الجذب الكامنة » إلى غير ذلك من الموضوعات . وكنت أجلس على أحد كرسيين من الكراسى التى تطبق ، وأقول له لأحثه على الكلام : « أجل ، استمر ، أنا متابع لحديثك » لقد كانت مسائل بالغة فى الصعوبة ، ولكن لا أظن أنه فطن إلى المقدار الذى كنت أعجز عن فهمه منها ، ومرت على لحظات تطرق إلى الشك أثناءها وتساءلت هل أحسن اختيارى لهذا العمل ، ولكنى كنت على أية حال أجد ترويحا عن النفس من تلك المسرحية المطولة ، وكنت بين آونة وأخرى أرى بعض الأشياء بوضوح لفترة من الزمن ، على أنها سرعان ما كانت تتلاشى فى الوقت الذى خلتها فيه فى متناولى . وكنت فى أحايين أخرى أعجز عجزاً تاماً عن الانتباه إلى ما يقول ، فأجلس متقلبا أحدق النظر إليه وأتساءل : أليس الأجدر بعد كل هذا أن أتخذ من الرجل شخصية أساسية فى ملهاة ساخرة ، وأطرح جانباً كل ما عدا ذلك وقد أستطيع بعد ذلك متابعة بحثه مرة أخرى لفترة من الزمن .

وذهبت لأرى منزله فى أقرب فرصة سنحت لى . لقد كان منزلا فسيح الأرجاء سهل التأثيث ، ولم يكن به من الخدم سوى معاونيه الثلاثة . وتميزت مآكله وحياته الخاصة ببساطة فلسفية فلم يكن يشرب إلا الماء ولا يأكل إلا الخضروات ، ولا يفعل إلا ما يوحى به الذوق والمنطق على أن منظر معداته وضع حداً لجميع الشكوك ، فقد كان الأمر يبدو من أوله إلى آخره ، وكأنه حلم جنى ، وكان مما يثير الدهشة أن تجد مكاناً صغيراً كهذا فى قرية منعزلة . وكانت حجرات الطابق الأرضى تحتوى على المناضد والأجهزة ، وقد انقلب المخبز والمرجل الذى تتصل فيه آنية الطهو إلى فرن لا يمكن الحط من شأنهما ، وكانت أجهزة إدارة القوى (الدينمو) تشغل قبو المئونة الذى يقع تحت الطابق الأرضى ، وكان يقوم فى الحديقة جهاز لقياس استهلاك الوقود (جازوميتر) . وأرانى الجهاز بحماس الثقة التى يشعر بها رجل عاش زمناً طويلاً وحده ، وكانت عزلته فى تلك الساعة تزخر بفيض من الثقة ، وكنت لحسن الحظ معداً لتلقى ذلك الفيض .

وكان معاونوه الثلاثة نماذج أمينة لطبقة رجال الحرف التى انحدروا منها ، فكانوا مخلصين فى عملهم وإن أعوزهم الذكاء ، أقوياء مؤدبين ودائبين فى العمل . وكان اسبارجس أحدهم يقوم بطهو الطعام وتنفيذ الأعمال المعدنية ، وقد كان فى سابق عهده ملاحاً . وكان ثانيهم نجاراً بسيطاً ، أما الثالث وهو وكيله العام ، فقد كان فيما مضى بستانياً يشتغل بالمقاولة ، لم يكونوا سوى فعلة . . أما كافور فقد اختص بكل

عمل يحتاج إلى ذكاء . وكانوا على جهل تام بما يجرى حولهم ، شأنهم فى ذلك شأنى فى الانطباعات المضطربة التى انطبعت فى .

والآن وقد جاء دور الحديث عن طبيعة تلك الاستفسارات أجد نفسى لسوء الحظ تجاه مشكلة عويصة فلا أنا بالخبير ولا من رجال العلم وإن قدر لى أن أحاول وصف الهدف الذى تتجه إليه تجارب المستر كافور باللغة العلمية العالية التى يستعملها ، فسوف أخلط الأمور على القارىء كما أخلطها على نفسى ، ولسوف أرتكب حماقة تجلب على سخرية كل طالب مصرى فى هذا البلد ممن درسوا رياضيات علم الطبيعة . لذلك كان خير ما أستطيع عمله هو فى شرح الأداة بانطباعاتى الخاصة غير الدقيقة دون أية محاولة منى فى ارتداء ثوب المعرفة الذى لا حق لى فيه .

وكان هدف بحوث المستر كافور هو الاهتداء إلى مادة يتحتم أن تكون « معتمة » ولقد استعمل هو كلمة أخرى غابت عن بالى ولكن اللفظ « معتمة » تنقل الفكرة ، ألا وهى ضد أى نوع من أنواع النشاط الإشعاعى . وأوضح لى أن عبارة « النشاط الإشعاعى » إنما تعنى أى شكل من أشكال الضوء أو الحرارة أو أشعة رونتجن (الأشعة السينية) التى كثر الكلام عنها منذ سنة أو نحوها (١) أو الأمواج الكهربائية التى تكلم عنها ماركونى أو الجاذبية . وقال لى إن هذه جميعاً تشع ضوءاً من مركزها ، وتؤثر على أجسام بعيدة عنها ومن ثم نشأ التعبير

---

(١) نشر هذا الكتاب سنة ١٩٠١ .

• النشاط الإشعاعي • فمعظم المواد • معتمة • لشكل من أشكال النشاط الإشعاعي ، فالزجاج مثلا شفاف ينفذ منه الضوء ، ولكن شفافية الحرارة منه أقل بكثير من شفافية الضوء ، ولذلك يصلح لشغله ستارا ضد النار . وحجر الشب شفاف للضوء كذلك ، ولكنه يمنع الحرارة منعا باتا من النفاذ فيه ، بينما محلول اليود في ثاني كبريتيد الكربون يصد الضوء تماما ، ولكنه نفاذ جدا للحرارة . يحجب عنك النار ولكنه يسمح للدفء كله أن يصل إليك . والمعادن ليست معتمة للضوء وحاجبة للحرارة فحسب بل ومانعة للنشاط الكهربائي أيضا ، وهو النشاط الذي ينفذ خلال محلول اليود والزجاج كأنهما لا يعترضان طريقه وإلى غير ذلك من الأمثلة .

هذا وكل المواد المعروفة • شفافة • للجاذبية أي تتأثر بها ، فيمكنك أن تلجأ إلى حجب من أنواع مختلفة تمنع الضوء أو الحرارة أو كهربائية الشمس أو حرارة الأرض من الوصول إلى أي جسم . ويمكنك أن تستعمل ألواحا من المعادن حجباً ضد أشعة ماركوني ، ولكن ليس هناك من شيء يستطيع أن يمنع الشمس أو الأرض من اجتذاب الأشياء إليهما . على أنه من الصعب أن تقول بأن هذا الشيء لا وجود له ، وكان كافور لا يرى سببا يمنع من وجود هذه المادة التي توقف تأثير الجاذبية . ولم يكن في إمكاني بطبيعة الحال أن أدلي له بشيء ، وذلك لأني لم أفكر من قبل في احتمال ذلك ، وأراني ذلك بحسابات وأرقام خطها على الورق ، كان يمكن للورد كلفن بلاشك أو الأستاذ لودج أو الأستاذ كارل بيرسن أو غيرهم من عظماء رجال العلم أن يفهموها ،

ولكنها أوقعتني في اضطراب يدعو إلى اليأس . فهذه المادة ليست مختلقة الوجود فحسب بل إنها يجب أن تخضع لشروط معينة . لقد كان سوقه للحجج داعيا للدهشة . وبرغم أن ذلك أذهلني ودعاني إلى التفكير في ذلك الوقت ، فمن المستحيل عليّ أن أعيد سوقها هنا . وكنت أجيب دائما ، • أجل . . . أجل . . . استمر • ويكفي لأغراض هذه القصة أن أذكر أنه كان يعتقد بأنه قد يستطيع أن يصنع هذه المادة المبطلة لتأثير الجاذبية ، من سبيكة معدنية معقدة التركيب ، ومن شيء آخر جديد . أظنه عنصرا جديداً ، يسمى هليوم كما أعتقد ، أرسل له من لندن داخل أوان حجرية مختومة ، ولقد ألقى ظل من الشك على هذا الجزء الأخير من التفاصيل ، ولكني أكاد أجزم بأنه كان هليوم ذلك الذي أرسل له في أوان من الحجر مختومة . لقد كان ذلك بالتأكيد شيئاً غازياً رقيقاً يا ليتني كنت قد دونت مذكراتي .

ولكن كيف كان يمكنني في ذلك الوقت أن أتنبأ بضرورة تدوين المذكرات ؟

يمكن لأي إنسان عنده ذرة صغيرة من الخيال أن يفهم الإمكانيات العجيبة لمادة كهذه ، وسوف يفهم الشعور الذي اختلج في حين بدأ إدراكي لما يرمي إليه من بين العبارات المبهمة التي عبّر بها كافور عن نفسه فأسلمه يحق أن يحظى بدور المضحك الذي يروح عن النفس في المسرحيات . لقد كان ذلك شعوري قبل أن أعتقد بوقت قليل أني فهمت الرجل جيداً . فحرصت على ألاّ أوجه إليه أسئلة قد تكشف له عما أتردى فيه من جهل إزاء عرضه العلمي اليوم ، ولكن لن يفهم

قارىء القصة اليوم فهماً تاماً دقائق ذلك الفرض لأنه من المستحيل أن يستخلص شخص من هذا السرد الجاف قوة الإيمان التي كانت عندي بأن هذه المادة المدهشة سوف يتم صنعها بكل تأكيد .

ولا أذكر أني خصصت صرحيتي بساعة من العمل المتتابع في أي وقت ، بعد زيارتي لمنزله . ذلك أن خيالي كان منصرفاً إلى أشياء أخرى ويبدو أنه لم يكن ثمة حد تقف عنده إمكانيات هذه المادة ، فأي طريق سلكته كان يسلمني إلى عالم من المعجزات والعجائب مثال ذلك ، إذا أراد شخص رفع ثقل من الأثقال ، مهما كان كبيراً ، فما عليه إلا أن يضع ساحة من هذه المادة تحته ، وعندئذ قد يتيسر له رفعه كأنه قطعة من القش . وكان أول شعور طبيعي خارق هو أن أطبق هذا المبدأ على المدافع والمدرعات ، وعلى كل المواد الحربية وطرق القتال ، ثم أنتقل بعد ذلك فأطبقه على أعمال السفن والنقل والبناء وعلى كل ما يخطر ببالنا من الصناعات البشرية وهذه الفرصة التي واتتني في الحجرة ذاتها التي شاهدت مولد هذا الزمن الجديد — لقد كانت حقبة كاملة — هذه الفرصة من الفرص التي تمر على الناس مرة واحدة كل ألف سنة ، وقد انكشف الاختراع أمامي ، وجعل يتمدد شيئاً فشيئاً والله وجدت فيه ضمن ما وجدت ، ما يشبه تمثيل بوصفي رجل أعمال . شاهدت الشركة الأم ، وما تفرع عنها من الشركات الأخرى ، وكانت الطلبات عن يميني وعن يساري . وكانت الحقات والأمانات والامتيازات والمنح ، وإذا هذه الشركات تنتشر رويداً رويداً إلى أن قامت بينها شركة

هائلة كبيرة هي الشركة الكافورية التي راحت تحكم العالم وكنت أنا في تلك الشركة !

فاخترت ذلك الطريق لحياتي وكنت أعرف أني أقامر بكل شيء ولكني قدرت قدرتي في تلك الساعة ، وفي ذلك المكان .

وقلت : « نحن بصدد أعظم اختراع ظهر إلى الآن » ، وركزت على الضمير « نحن » ثم واصلت الكلام : « فإذا أردت أن تمنعني من مشاركتك فيه ، فعليك أن تستخدم الرصاص في ذلك . إني قادم إليك منذ الغد لأكون العامل الرابع عندك » .

وبدا أنه دهش لحماستي ولكنه لم يبد أي ارتياب أو يفصح عن عداوة بل كان منتقصاً لقيمة نفسه .

وقال وهو ينظر إلى نظرة الارتياب . « ولكن أنظن حقاً ... وصرحيتك ؟ ماذا ستعمل بصرحيتك ؟ » .

فصحت قائلا : « لقد اختفت . ألا ترى ياسيدي العزيز الشيء الذي تملكه ؟ ألا ترى ما أنت مقدم عليه ؟ » .

كان كلامي معه بأسلوب الاستفهام الاستنكاري ، فإذا هو قطعاً لا يرى شيئاً . ولم أستطع أن أصدق ذلك في البداية إذ لم يكن لديه أي أثر أو فكرة أولية عما هو فاعل فقد كان هذا الرجل المدهش الصغير الجسم يشتغل طيلة ذلك الوقت على أسس نظرية ، وحين قال لي إنه بصدد أهم بحث عرفه العالم لم يكن يعني إلا أن البحث ألم بعدد كبير من النظريات ، وأنه أزال الشك الذي كان يلازم جزءاً كبيراً منها ، ولم يبد

قدراً من الاهتمام بالتطبيق العملى للمادة التى كان يزمع إيجادها أكثر مما لو كانت آلة لصنع المدافع . لقد كانت مادة فى حيز الإمكان ، وكان هو متلهفا على صنعها ، وهذا كل ما فى الأمر كما يقول الفرنسيون .

أما فيما عدا ذلك فسلكه حيرنى بعض الشىء ، وهو أن صنع هذه المادة فسوف تتقبلها الأجيال القادمة بوصفها عمل كالورى ، وسوف يصبح عضوا فى الجمعية الملكية ، وسوف توزع مجلة ، الطبيعة ، صورته على المشتركين بوصفه صاحب جائزة علمية ، إلى غير ذلك من الأشياء التى من هذا القبيل . وهذا كل ما كان يراه كان سيلقى هذه القنبلة فى العالم وكأنه قد اكتشف فصيلة جديدة من البعوض ، لو لم أدخل أنا إلى الميدان ، وانبثت فى مكانها تحدث أثرها كما حدث لجسمين آخرين صغيرين أشعلهما هؤلاء العلماء وأثرهما حولنا .

وانقلبت الآية حين تحققت من ذلك أسرعت أنا المتحدث وصار هو الذى يقول : « استمر ! » ورحت أقفز فى الغرفة وأقطعها ذهابا وإيابا محدثا حركات كفتى فى العشرين من عمره . وحاولت أن أنبهه وأحياه ومسئولياته بصدد هذا الأمر ، إلى واجباتنا ومسئولياتنا معا وأكدت له أننا قد نحصل على مقدار من الثروة يؤهلنا للقيام بأية ثورة اجتماعية نتخيلها وقد نملك العالم كله ونحكمه . وتحدثت إليه عن الشركات وحقوق الاختراع وسير العمليات السرية ، ويبدو أن هذه الأمور قد استهوته كما استهوتنى رياضياته من قبل ولاحت على وجهه الأحمر الصغير نظرة تنم عن الحيرة ، وتمتم وهو يتمتم شيئا عن عدم مبالاته بالثروة فأزلت

ذلك كله من مخيلته ، مبينا له أنه يتحتم عليه أن يثرى ، ولا فائدة من تلعثمه . وأقفته على طبيعة الرجل الذى يخاطبه وعلى الخبرة التى جنيتها فى الأعمال التجارية ، ولكننى لم أخبره فى تلك الساعة بأى مفلس لم يخل طرفه ، لأن ذلك كان حدثا وقتيا ، بل أطلقنى وأنت بين قترى الماضى العيان وأماني المالية . وهكذا قامت بيننا شركة كالورية احتكارية بصورة غير معقولة من حيث الطريقة التى تقوم فيها أمثال هذه المشروعات وتنمو . واتفقنا على أن يقوم هو بصنع تلك المادة وأقوم أنا بالترويج لها.

وتشبثت باستعمال كلمة « نحن » تشبثاً تاماً فلم يكن الضميرين « أنا » و « أنت » وجود عندى .

وكان يرى أن الأرباح التى تحدثت عنها يمكن أن توقف على البحوث ولكن هذا أمر كان علينا بطبيعة الحال أن نسويه فيما بعد فصحت : « حسناً ، حسناً » .

ذلك أن الأمر الذى أصررت عليه هو حمله على صنع المادة .

ورحت أقول له بصوت مرتفع : « هذه مادة لا يمكن أن يتخلى بيت أو مصنع أو حصن أو سفينة الاستغناء عنها . وسيستخدمها العالم أكثر من استخدامه للأدوية الجاهزة التركيب ولا تستعمل هذه المادة فى غرض واحد ولكن فى أغراض عدة ستعود علينا بالثراء العريض الذى لم يخطر ببال أحد قط . . . »

فقال : « كلا . . . لقد بدأت أرى . . . أنه لأمر غاية فى الغرابة كيف تتسع وجهات النظر أمام الانسان حين يتحدث عن أموره مع الآخرين ! » .

قلت: «كما حدث الآن حين تحدثت أنت عن أصلح رجل لهذه المهمة..»

فالتفت يقول: «لا أظن أن ثمة إنسان يكره على الإطلاق أن يكون واسع الثراء. هذا شيء واحد بطبيعة الحال...»

وتوقف عن الكلام. جمدت في مكاني.

ثم استطرد يقول: «لا يغرب عن بالك أنه من الممكن ألا نستطيع، بعد كل ما قلناه أن نصنع هذه المادة، فإنها قد تكون من تلك الأشياء المحتملة نظريا ولكنها لا تتحقق عمليا أو حتى إن نجحنا في إيجادها، فقد تعترضنا عقدة صغيرة».

قلت متفائلاً: «سوف نعالج هذه العقدة حين تبرز لنا»

الفصل الثاني

المادة الكافورية تصنع لأول مرة

لم يكن ثمة سبب لمخاوف كافور فيما يتصل بعملية الصنع ذاتها ففي اليوم الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٨٩٩ تم صنع هذه المادة العجيبة.

وإنه لمن غرائب الأمور أن يتم صنعها مصادفة واتفاقا في الوقت الذي كان فيه كافور أقل توقعا لها من أي وقت آخر. كان قد صهر بعض المعادن وخلطها معا بعد أن أضاف أشياء أخرى إليها — وكم تمنيت معرفة التفاصيل الآن! — كان في نيته أن يترك السبيكة أسبوعا أو نحوه لتبرد تدريجيا، وكان من المفروض أن تهبط حرارتها إلى درجة ٦٠° فهرنهايت، إذا لم يكن قد أخطأ الحساب، ولكن حدث ما لم يكن لكافور علم به، وهو قيام خلاف حول تعهد أمر فرن الصهر، فقد حاول جبز الذي سبق له الاضطلاع بهذا العمل، أن يحيله فجأة على الرجل الذي كان بستانيا فيما مضى، معللا ذلك بأن الفحم تربة، لأنه يستخرج من الأرض، ولذلك فهو لا يمكن أن يقع في اختصاص نجار بسيط. ومع ذلك فقد قرر البستاني الذي يشتغل بالمقاولة — وناهيك عن أنه الطاهي — أن الفحم مادة معدنية، أو تشبه الفلز. ولكن اسبرجس أصر على أن يقوم جبز بتعهد الفحم نظرا إلى أنه، أي اسبرجس، نجار

بسيط وأن الفحم من المفرقعات كما هو معلوم . ونجم عن ذلك أن كف جبز عن تغذية فرن الصهر ولم يقم سواه بهذا العمل ، وكان كافور منهمكاً جد الانهماك فى دراسة لمسائل شائقة معينة تتصل بطائرة كافورية ، تقوم على إغفال المقاومة الهوائية ، وعلى مسألة أو مسألتين أخريين ، فلم يفطن إلى وجود خطأ ما . وهكذا ولد هذا الاختراع سابقاً لأوانه فى الوقت ذاته الذى كان فيه كافور يعبر الحقل فى طريقه إلى منزل الريفى لنتحدث حديثنا العادى بعد الظهيرة ونشرب الشاى .

وأذكر هذه الحادثة جيداً جداً ، فقد كان الماء يغلى ، وقد أعد كل شىء ، وحلق الصوت الذى أحدثه كافور إلى الشرفة ، وإذا شبحه الصغير النشيط يلوح ظلمة على شمس الخريف الغاربة . وبدت مداخن بيته من الجهة اليمنى فوق مجموعة من الأشجار التى اصطبغت بلون بهيج ، وعلى بعد منها برزت تلال ويلث فى زرقة طفيفة بينما امتد إلى الغرب المستنقع القاتم ، متسعاً هادئاً ، وعندئذ انطلقت المداخن نحو السماء ، واستحالت وهى تصعد متحطمة إلى عمود من الترميد وتبعها السقف وقطع من مختلف الأثاث ، ولحق بهذه جميعها لهب أبيض ضخم ، وراحت الأشجار المحيطة بالمكان تتمايل وتطير فى الجو وهى تتناثر وتندفع شظاياها فى اتجاه بريق اللهب . وصفع أذنىّ هدير الرعد فأصاب إحداهما بصمم لمدى الحياة ، وراحت النوافذ تتحطم حولى دون أن يحفل بها أحد .

وسرت ثلاث خطوات من الشرفة فى اتجاه منزل كافور ، ولم أكد أفعل ذلك حتى هبت الريح .

« وقد كافور : هتى . . . هتى ! »

وإذا بذيل معطفي يغطي رأسي ، وإذا بي أنطلق نحو كافور بخطوات واسعة بالرغم مني ، وإذا بالقفزع يهاجم في اللحظة ذاتها فيدور مع الريح ويطير في الهواء المدوي وأبصرت وعاء من أوعية مدفأتي يضرب الأرض على بعد ست ياردات مني ، ثم يقفز عشرين قدماً في الهواء ويندفع حثيثاً نحو مركز الاضطراب . أما كافور فقد سقط على الأرض ثانية وهو يرفس ويزفر ، ثم تدحرج على الأرض إلى مسافة ما وجعل يكافح لينهض على قدميه ، ولكنه رفع وحمل إلى الإمام بسرعة هائلة إلى أن اختفى أخيراً بين الأشجار الطلية المتخبطة التي كانت تلوى حول المنزل .

وانطلقت نحو صحت المكان كتلة من الدخان والرماد وطبقة سريعة من مادة براقة ذات زرقة خفيفة . وسيحت على مقربة مني قطعة كبيرة من السور تساقطت عند أطراف المكان وهي تضرب الأرض ثم استوت عليها وانتهى بذلك أسوأ ما في الأمر وسرعان ما خف اضطراب الهواء إلى أن أصبح في قوة الزوبعة الشديدة ، وبدأت أشعر مرة أخرى بأني ما زلت أملك أنفاسي وقدمي ، فبدأت محاولة الوقوف بعد أن أملت جسمي في الاتجاه المضاد للريح واستطعت أن أستجمع ما تبقى من تفكير .

في تلك اللحظة كان وجه الأرض كله قد اعتراه التغيير ، فقد تلاشى ذلك الغروب الهادئ ، وبسطت السحب المتدافعة ستاراً من الظلام على صفحة السماء ، وتقلقلت جميع الأشياء واندفعت مع العاصفة . وألقيت نظرة خاطفة إلى الوراء لأرى ما إذا كان منزلي لا يزال قائماً بوجه عام ثم سرت إلى الأمام مترنحاً في اتجاه الأشجار التي اختفى كافور بينها .

وكانت اللهب الصاعدة من بيته المشتعل تلمع من خلال أغصانها العالية العارية من الأوراق .

ودلفت إلى الأجمة أتنقل بين أشجارها وأستند عليها وأنا أبحث عن كافور دون جدوى ، ثم لمحت شيئاً يتحرك وسط كومة من الأغصان وقوائم السور المهشمة المتراكمة على جانب من حائط الحديقة ، فعدوت نحو الكومة ، ولكن قبل أن أصل إليها انسلخ منها شبح بني اللون يقف على ساقين موحلتين ، وقد مد يدين ذابلتين داميتين ، وبرز من الجزء الأوسط منه أسمال ثياب راحت أطرافها تتطاير أمام الريح .

ومضت لحظة لم أتعرف فيها على هذه الكتلة المكسوة بالتراب ثم تبينت أنها لم تكن سوى كافور ، وقد اتخذ قالباً معيناً في الوحل الذي غاص فيه .

ثم مال إلى الأمام في الاتجاه المضاد للريح وهو يمسح التراب من عينيه وفمه ، ومد إلى يداً تكتل الطين عليها وترنح خطوة نحوي وعلى وجهه أمارات الانفعال ، بينما أخذت قطع صغيرة من الطين تتساقط منه ، وبدا حطاماً بائساً كأي مخلوق بشري وقعت عليه عيناي الآن في مثل محنته وبؤسه ، فلا غرو إن دهشت وهو يلهث قائلاً :

« صفني ، صفني ! » . .

قلت : « أصفك ؟ يا للسماء ! أصفك علام ؟ »

فقال : « لقد فعلتها » .

قلت : « فعلتها ! بالله عليك أخبرني ما سبب ذلك الانفجار ؟ »

وهبت الريح فتلاشت معها كلماته ، وفهمت منه أن ذلك لم يكن انفجاراً البتة ، وأطاحت بي الريح فصدمتني به ووقفنا ملتصقين الواحد بالآخر .

وصحت فى أذنه: محاولاً أن نعود إلى منزل الريق ، ولكنه لم يسمعنى وذكر بصوت مرتفع شيئاً عن « ثلاثة شهداء فى سبيل العلم » وكذلك ليس هناك جدوى من ورائه . وكان فى ذلك الوقت قد وقر فى ذهنه أن معاونيه الثلاثة قد لاقوا حتفهم فى الإعصار ، ولكنه كان لحسن الحظ غلطاً ، ذلك أنه فى اللحظة التى خرج فيها يقصد منزلى كانوا هم قد توجهوا إلى الحانة فى ليتى ليتحدثوا فى أمر أفران الصهر وهم يتعاطون بعض المرطبات الخفيفة .

وكررت له اقتراحى بالعودة إلى منزل الريق فقبل فى هذه المرة مرادى . وسرنا متأجلى الأذرع ، وحاولنا فى نهاية الأمر أن نصل إلى الملجأ بما بقى فيه من سقف ، وجلسنا لحظة على كراسينا المرتعة ونحن نلهث ، فقد كانت النوافذ جميعها قد تهشمت ، وتبعثرت قطع الأثاث الخفيف بغير نظام ، على أنه لم يلحق بها تلف يصعب إصلاحه ، وتحمل باب المطبخ لحسن الحظ الضغط الذى وقع عليه ، وهكذا سلمت من التلف جميع آنية الطهو والقطع المصنوعة من الصلصال . وكان النفط لا يزال مشتعلا فوضعت عليه الماء ليغلى الشاى . وما أن أعد الشاى حتى التفت إلى كافور طالبا منه شرح المسألة فراح يقول فى إصرار : «صحيح جداً ، صحيح جداً ، لقد فعلتها ، وكل شىء يسير سيراً حسناً» .

فقلت محتجاً : «حسناً ! ولكن ما من بيدر قائم وما من سور أو سقف إلا لحق به التلف فى نطاق عشرين ميلا من حول المكان» .

فأخذ يقول : «كل شىء يسير سيراً حسناً ، حقيقة لم آبه أبداً بطبيعة الحال بوقوع هذا الاضطراب البسيط فقد كانت رأسى مشغولة بمسألة أخرى . وأنا أميل إلى عدم الاهتمام بهذه النتائج الثانوية ولكن كل شىء يسير فى طريقه الحسن» .

فصحت به : «ولكن ألا ترى ياسيدى العزيز أنك قد أتلفت ما قيمته آلاف الجنيهات !» .

فأجاب : «أنا أعتمد على حكمتك فى هذا الشأن ، فما أنا بالرجل العملى بطبيعة الحال . ولكن ألا تظن أنهم سيعدون المسألة إعصاراً ؟» .

فقلت : «ولكن الانفجار» .

فراح يؤكد قوله : «إنه لم يكن إعصارا ، فالأمر غاية فى البساطة . إلا أنى أميل ، كما قلت ، إلى أن أضرب صفحا عن هذه الأشياء الصغيرة إنه ذلك الأثير على نطاق واسع . لقد صنعت مادتى الكافورية سهوا وخطأ على شكل لوح رقيق عريض . . . .» .

وسكت عن الكلام ثم تابع حديثه فقال : «هل اتضح لك جيداً أن المادة غير قابلة للجاذبية ، وأنها توقف تجاذب الأشياء نحو بعضها ؟» .

فقلت : «نعم . نعم» .

فاستطرد يقول : «حسنا ، لحين بلغت درجة حرارة المادة ٦٠° فهرنهيت ، وكانت عملية صنعها مستوفاة ، أصبح الهواء الذى يعلوها

وأجزاء السقف والأرضية التي فوقه ، أصبحت هذه جميعها عديمة الثقل وأظنك تعرف — كما يعرف كل إنسان في يومنا هذا — أن الهواء ثقلاً وهذا أمر طبيعي ، إنه يضغط على كل شيء موجود على سطح الأرض ، من جميع الجهات ، وأن هذا الضغط يعادل أربعة عشر رطلا ونصف الرطل على البوصة المربعة الواحدة . »

فقلت : « أعرف ذلك ، استمر »

فقال : « وأنا أيضاً أعرف ذلك . على أن هذا يبين لك عدم جدوى المعرفة إن لم تطبق عملياً وأنت ترى أن الحال لم تكن كذلك فوق مادتنا الكافورية ، فقد انعدم ضغط الهواء الذي يعلوها . أما الهواء الذي على جوانبها — وليس الذي فوقها — فقد كان يضغط بثقل ١٤ رطلا على كل بوصة مربعة على الهواء الذي يعلوها والذي أصبح فجأة عديم الوزن ، آه ، لقد بدأت تدرك . فالهواء الذي حول المادة الكافورية اندفع بقوة لا تقاوم نحو الهواء الذي فوقها ، ودفعه بشدة إلى أعلى ، والهواء الذي اندفع فوراً ليحل محله فقد وزنه للتو ، وأصبح لا ضغط له . وتبع سابقه فاخترق السقف وأطاح بالسقيفة .

واستطرد في كلامه . « وهكذا ترى أن هذه المادة كونت في الجو نافورة هوائية أو ما يشبه المدخنة . فهل يخطر ببالك ماذا كان يحدث لو أن هذه المادة الكافورية ذاتها كانت مثبتة غير طليقة ؟ »

فقلت له بعد تفكير : « أظن أن الهواء كان يستمر إلى الآن في اندفاعه إلى أعلى ، فوق تلك المادة الجهنمية . »

فقال : « بالضبط ، نافورة ضخمة » .

وقاطعته مستطرداً : « لتبثق في الفضاء ! بالسموات ! إذن لقذفت بعيداً الهواء الجوي كله ، ولسلبت العالم ما فيه من هواء . ولقضت على الجنس البشري بأجمعه ! هذه القطعة الكافورية الصغيرة ! »

فأجاب كافور : « لم تكن لتنقذف في الفضاء بالضبط ، ولكن في مكان لا يقل عنه سوءا في الواقع ، بل إنها كانت تنزع الهواء من الأرض ، كما ينزع الإنسان قشرة الموز ، وتطيح به آلاف الأميال ليعود إلى الأرض ثانية بطبيعة الحال ، ولكن بعد أن يكون سكان العالم قد اختنقوا ، وهذا من وجهة نظرنا نحن أحسن قليلا مما لو أنه لم يعد إلى الأرض بتاتاً »

واختلت أحملق فيه ، إذ كانت حيرتي إلى تلك الساعة أشد من أن أدرك معها أن جميع آمالي قد انهارت . وقلت له : « وماذا تنوي أن تفعل الآن ؟ » .

فقال : « أود قبل كل شيء أن أستعير معطفاً إذا استطعت ، لأزيل بعض الأتربة التي تحيط بي ، ثم استحم بعد ذلك إذا أذنت لي في الإفادة من وسائل الراحة التي في بيتك . وحين يتم لي ذلك نستطيع أن نتحدث بحرية أكثر » ثم استطرد يقول ، بعد أن وضع على ذراعي يده التي يعلوها الطين : « وأظن أنه من الحكمة ألا يعرف أحد سوانا عن هذا الأمر شيئاً ، ولا يخفى على أنني قد سببت قلقا عظيما . وقد يكون الدمار قد حل بمنازل متفرقة في الريف . على أني من الجهة الأخرى لا أستطيع

بأية حال من الأحوال أن أنقذ شيئاً مما أنفقت. فإذا ذاع السبب الحقيقى فسوف يحز ذلك فى نفسى وسوف يحول دون انجاز العمل. إذ ليس فى قدرة الإنسان أن يتنبأ بكل شىء، كما لا يخفى عليك. ولا يمكننى قط أن أوافق على إضافة عبء الاعتبارات العملية إلى دراستى النظرية. ولكن قد تسوى الأمور فيما بعد مع أولئك القوم، عندما تكون أنت قد تدربت فيها بتكنيك العمل، وعندما تكون المادة الكافورية قد راجت . . . «راجت» هى الكلمة المناسبة، أليس كذلك؟ وحققت جميع ما كنت تتوقعه لها. أما تعويضهم عن خسائرهم فليس فى مقدورنا الآن. والناس إن لم يقدم لهم تعليل آخر، فسوف يعزونه هذا كله إلى إعصار وقع، لا سيما أن علم التنبؤات الجوية الآن ليس فى حالة يعتمد عليها، وقد تجمع التبرعات من الشعب لهذا الغرض. ولما كان منزلى قد انهار واحترق فسوف أحصل على نصيب طيب من التعويض يساعدنا مساعدة كبيرة على متابعة بحوثنا. أما إذا عرف القـوم أنى أنا السبب فى هذا، فلن تكون ثمة اكتتابات للتبرع، وسوف يعم التذمر، ولن تتوافر لى قط فرصة للعمل بهدوء بعد الآن. أما أعوانى الثلاثة فقد يكونون بين الهالكين وقد يكونون على قيد الحياة، وهذا أمر يطول شرحه، فإن كانوا قد ماتوا فليس فى موتهم خسارة كبيرة، وذلك لأنهم كانوا متحمسين للعمل أكثر من أن يكونوا قادرين عليه، فضلاً عن أن هذا الحادث السابق لأوانه يعزى، إلى حد كبير، إلى إهمالهم المشترك فى تعهد فرن الصهر. أما إذا لم يهلكوا، فإنى أشك فى أنهم على درجة من الذكاء تمكنهم من تعليل

الأمر. وسوف تنطلى عليهم قصة الإعصار. وإذا تيسر لى فى الفترة التى أصبح فيها منزلى لا يصلح للسكنى، أن أشغل وقتياً الغرف غير المؤجرة فى منزلك الريفى».

وسكت عن الكلام موجهاً نظراته إلى.

ورحت أكمل الفكر، وقلت فى نفسى إن رجلاً بهذه المقدرة ليس بالضيف العادى.

وقلت له وأنا أهم بالوقوف: «قد يكون من الأجدر أن تبحث عن معطف»، ثم سرت به إلى الأطلال المتناثرة من محل تربية النباتات.

ودخل ليستحم، ورحت أثناء ذلك أفكر فى الأمر كله منفرداً. واتضح لى أن فى معاشرته مساوىء لم أكن قد تنبهت إليها. وهـذا الشرود الذهنى الذى كاد يقضى على سكان الكرة الأرضية قد تنجم عنه متاعب جسيمة أخرى فى أى وقت. على أنى من الجهة الأخرى كنت حديث السن، أشغالى مضطربة وفى حالة نفسية تزين لى المغامرة الطائشة مع توقع نتيجة طيبة لى فى نهاية الأمر، وكنت قد بيت أمرى على أن أحصل على نصف تلك الصفقة على الأقل. وكنت لحسن الحظ قد حصلت على ذلك المنزل الريفى كما بينت آنفاً، بعقد مدته ثلاث سنوات مع خلوى من مسئولية إجراء الترميمات. أما أثاث المنزل — ما بقى لى منه — فكنت قد ابتعته فى عجلة، دون أن أنقد ثمنه، وقد كان مؤمناً عليه وجميعه من قطع لا تشابه بينها، لذلك قررت فى نهاية الأمر أن أظل مع كافور، وأتابع العملية إلى آخر مراحلها.

وتحولت تطرق إلى الموضوع بشكل تأكيد تغيراً كبيراً ، فلم أعد أشك فيما للمادة من إمكانيات ، ولكنني بدأت أشك في عربة المدفع والأحذية الجاهزة .

وشرعنا في العمل فوراً لإعادة بناء المعمل ومتابعة تجاربنا العلمية . وكان كابور يتحدث بلغة في مستوى العلى أكثر مما كان يفعل في أية مرة من قبل ، وذلك عندما طرقنا موضوع صنع المادة وكيف يجب أن يتم في المرة القادمة .

وقال : « يجب أن نصنعها ثانية طبعاً . قد يكون اختراعنا أقوى من أن نستطيع وقف خطره . ولكنا قد تخلينا عن المسائل النظرية إلى الأبد . وإذا تسنى لنا أن نجتنب دمار كوكبنا الصغير فلنفعل ، ولكن لا بد لنا أن نخاطر . ولكن لا بد من وجود أخطار إذ لا غنى عن ذلك في أي تجربة علمية . وهذا هو الدور الذي يجب أن تضطلع أنت به بوصفك رجلاً عملياً . أما من جهتي أنا فينبغي أن تكون المادة التي سوف أصنعها رقيقة جداً وعلى وجه ضيق جانبي . على أني لا أدري كيف سيكون ذلك ، لدي فكرة غير واضحة عن طريقة أخرى لصنعها ولست بمستطيع إلى الآن أن أشرحها ، ولكن الغريب فيها أنها خطرت ببالي بوصفها الشيء الذي كان يجب علي عمله ، وذلك بينما كنت أتدحرج وأتمرغ في الوحل أمام الريح ، وأنا في شك كبير من أمر هذه المغامرة أتساءل كيف ستنتهي .

وقد اعترضتنا صعوبة صغيرة حتى بعد أن تمت عمارته ولكننا

كنا في الوقت ذاته ماضيين في عملنا ، نعيد بناء المعمل . وكان أمامنا أعمال كثيرة تتطلب الإنجاز قبل أن تسعفنا الضرورة القصوى لتقرير الشكل والطريقة بوجه التحديد لتجاربنا الثانية . وكانت العقبة الوحيدة التي اعترضتنا آنئذ هو إضراب معاونيه الثلاثة عن العمل واعتراضهم على قيامي رئيساً عليهم ، ولكننا سوينا الأمر بيننا بعد أن تعطل العمل يومين .

الفصل الثالث

بناء الكرة

أذكر بوضوح تام تلك المناسبة التي أطلعني كافور فيها على فكرته عن الكرة. لقد كانت له عنها خواطر من قبل، ولكنها بدت في تلك الساعة وكأنها تتدافع إليه سراعا. كان كل ذلك عند عودتنا إلى منزل الريف لتناول الشاي، فراح يطقطق ونحن نسير، وإذا هو يصيح على حين غرة: «هاهي ذي! هذا يصل بها إلى المرحلة النهائية! هذا النوع من الستائر اللفافة».

وسألته: «يصل بماذا إلى المرحلة النهائية؟».

فقال: «الفضاء! أي مكان! القمر».

وانثنيت أسأله: «وماذا تعني بذلك؟».

فقال: «أعني؟ عجبا. لابد أن تكون كرة. هذا ما أعنيه».

ورأيت نفسي في واد آخر، وتركته بعض الوقت يتكلم بطريقته، ولم يكن عندي حينئذ أية فكرة عن اتجاه كلامه، ولكنه أوضح الأمر لي بعد أن احتسى الشاي.

وراح يقول: «هذه هي المسألة: في المرة السابقة، أدخلت المادة

التي تحول دون تأثير الجاذبية في صهريج مسطح له حافة تنطبق عليه فتثبته في مكانه، وحدث ذلك التضبيح فور برودة المادة واكتمال صنعها وفقد ما فوقها كل ثقل، وانطلق الهواء إلى أعلى، كما انطلق المنزل أيضا ولا أدري ما الذي كان سيحدث لو أن المادة ذاتها لم تندفع إلى أعلى. ولنفرض أن هذه المادة كانت طليقة غير مثبتة في شيء؟».

— كانت تنطلق في الجو فورا.

— بالضبط، ودون أن يؤدي ذلك إلى اضطراب أكثر مما تحدثه طلقة مدفع كبير.

— وما نفع ذلك؟

— سأنطلق معها.

ووضعت كوب الشاي على المقعد وصوبت نظري إليه.

فأخذ يشرح المسألة. قال: «تخيل كرة تتسع لرجلين ومتاعهما، سوف تصنع من الصلب وتبطن بالزجاج السميك، وتمون بكمية مناسبة من الهواء المضغوط والأطعمة المركزة وجهاز لتقطير الماء، إلى غير ذلك. وسنكسو الصلب الخارجي كأنها طبقة من الميناء».

فسألته متقاطعا: «تعني أنك ستغطيها من الخارج بالمادة الكافورية

— نعم.

— ولكن كيف ستدخل إلى داخلها؟

— قامت مشكلة مماثلة حول «لقمة القاضي».

— أعرف ذلك ، ولكن كيف ستدخلها ؟

— الأمر في غاية السهولة . كل ما نحتاج إليه هو فتحة صغيرة لا يتسرب منها الهواء . سينطوي صنعها بالطبع على بعض التعقيد ، فيجب أن يكون لهذه الفتحة صمام بحيث يمكن إلقاء الأشياء منها إلى الخارج إذا استدعت الضرورة ، دون فقدان قدر كبير من الهواء .

— كالذي صنعه جول فرن في كتابه « رحلة إلى القمر » .

ولكن كافور لم يكن من قراء القصص .

واستأنف أحاديثه بتؤدة : « لقد بدأت أدرك . تعني أنك تدخل الجهاز وتغلق الباب على نفسك . بينما المادة الكافورية لا تزال دافئة ، فإذا بردت أصبحت قشورها مانعة للجاذبية لا تتأثر بها ، فتقذف في الجو وتطير . . »

فقال : « بانحراف شديد » .

فقلت : « بل إنك سوف تنطلق في خط مستقيم » . .

وسكت عن الكلام لحظة ثم استطردت متسائلا : « وماذا يمنع هذا الجهاز من السير في خط مستقيم في أجواز الفضاء إلى الأبد ؟ لن تكون في أمان أينما ذهبت ، وهب أنك وصلت مكاناً ، فكيف تعود إلى الأرض ؟ »

وقال كافور : « لقد فكرت في هذا الأمر الساعة . وهذا ما عنيته حين قلت إن الاختراع قد تم . نستطيع أن نجعل الكرة الزجاجية الداخلية محكمة الغلق لا يتسرب منها الهواء ، في جميع أجزائها باستثناء الفتحة الصغيرة ، ونستطيع كذلك أن نبني الكرة الصلب من أجزاء

يسهل على كل جزء منها أن يلتف كما تلتف الستائر اللفافة ، بواسطة « زنبلكات » ، كما يمكن أن تحل وتضبط بتيار كهربائي تحمله إليها أسلاك بلاتينية تسبك داخل الزجاج ، وهذه مسائل تفصيلية فحسب . وهكذا ترى أن الجزء الكافوري الخارجي من الكرة سوف يصنع من هذه النوافذ أو الستائر أو سمها ما شئت ، باستثناء سمك بكرات الستائر .

وحين تغلق جميع هذه النوافذ أو الستائر لا يمكن لأي ضوء أو حرارة أو قوة جاذبة أو نشاط إشعاعي من أي نوع كان ، أن ينفذ إلى الداخل وسوف تطير في الفضاء طيراناً متواصلا في خط مستقيم كما تقول . ولكن افتح إحدى النوافذ أو تخيلها مفتوحة ، حينئذ سوف يجذبنا إليه سريعاً أي جسم ثقيل يتصادف وجوده في طريقنا » .

وجلست أستوعب ما قاله وقال :

أفهمت ؟

— أجل ، فهمت !

— وحقيقة الأمر أنه سوف يتأتى لنا أن ندور في الفضاء كما نرغب يجذبنا هذا الشيء أو ذاك .

— أجل ، هذا واضح بما فيه الكفاية ، ولكن . .

— ماذا ؟

— لا أدرك تمام الإدراك ماذا نحن صانعون بهذا الاختراع ، فهو ليس في واقع الأمر إلا النفور من العالم والعودة إليه ثانية .

— بكل تأكيد ، ويستطيع الإنسان مثلاً أن يذهب إلى القمر .

— وماذا عساك تجد عند وصولك إلى القمر .

— سوف نرى ... أجل نأمل المعارف الجديدة التي يمكن أن نحصل عليها .

— هل هناك هواء فيه ؟

— قد يوجد فيه .

— إنها لفكرة بديعة ، ولكنني أشعر بأن القمر نظام كوني كبير مع كل ذلك . أليس الأجدر بك أن تحاول أشياء أصغر منه أولاً ؟

— لقد ضربت عنها صفحاً بسبب مشكلة الهواء .

ولم لا تطبق فكرة الستائر الوميركية ، ستائر كافورية في صناديق فولاذية قوية ، لحل الانتقال ؟

فأجاب في إصرار بأنها سوف لا تصلح واستطرد يقول : « والسفر في الفضاء ليس أسوأ على أية حال ، من رحلة استكشافية إلى القطب ، إذا كان هذا يبدو سيئاً ، ودائم الناس يلعبون في رحلات استكشافية إلى القطب . »

قلت : « لا يقوم بها رجال الأعمال ، فضلاً عن أن القائمين بهذه الرحلات يتقاضون عنها أجراً ، وإذا وقع ما لا تحمد عقباه ، فهناك فرق الإغاثة . أما رحلتنا هذه فليست إلا إطلاق أنفسنا بعيداً عن العالم وبلا أجر »

— سمها رحلة استكشافية .

— يجب أن تسميها كذلك رغماً عنك ... وقلت : « وقد أؤلف عنها كتاباً ... »

فقال كافور : « ولا شك عندي في أننا سوف نعثر على بعض المعادن هنـــاك ... »

— مثال ذلك ؟

— أجل ، كبريت ، فلزات ، وربما الذهب ، ويحتمل أن نجد عناصر جـــديدة . .

— وهذا يغطي نفقات السفر . أتدري أنك لست رجلاً عملياً ، فالقمر يبعد عن الأرض ربع مليون من الأميال .

— يبدو لي أن نقل أي حمل إلى أية مسافة لن يكلفنا كثيراً ، إذا نقلناه في صندوق مصنوع من المادة الكافورية

— لم يخطر ذلك ببالي . تعني أنه سينقل مجاناً على حساب المشتري أليس كذلك ؟

— لن يكون ذلك كما لو كنا متعاقدين على القيام برحلة إلى القمر

فقلت له : « أتعني . . . ؟ »

— هناك المريخ بجوه الصافي ومناطقه الجديدة والشعور بالبهجة بسبب خفة الوزن . وقد يكون من الشائق الذهاب إليه .

— أثمة هواء في جو المريخ ؟

— نعم !
يبدو لي أنك قد تستخدمه مصحة . وبهذه المناسبة كم يبعد عنا المريخ؟

فأجاب كالفور بهزء السرور : « إنه يبعد عنا مائتي ميل في الوقت الحاضر ، وفي طريقك إليه تمر بالقرب من الشمس » .

وراح خيالي يلح شحذه مرة أخرى ، فقلت له : « لا تخلو هذه الأمور من فائدة على أية حال ، فهناك السفر » .

وتطرق إلى رأسي سراعاً احتمال غريب . وإذا بي أشاهد فجأة كمن يرى رؤيا ، النظام الشمسي بأجمعه ، وقد ربطت بينه السفن الكوكبية والكور الكافورية الفاخرة ، وتواردت إلى رأسي حقوق الشفعة الخاصة بالكواكب السيارة ، وتذكرت احتكار أسبانيا القديم للذهب الأمريكي ولم يكن الأمر يبدو كأنه متعلق بهذا الكوكب أو ذاك فحسب ، بل كنت أفكر في احتكارها جميعاً . وحدقت النظر في وجه كافور الأحمر وأنا بخيالي يتقد ويرقص فجأة . فنهضت من مكاني ، وجعلت أقطع المكان ذهاباً وإياباً ولساني منعقد .

إن انتقال الإنسان من الشك في أمر من الأمور إلى التحمس له لا يكاد يستغرق وقتاً يذكر . ولذا قلت له : « ولكن هذا أمر جليل ! إنه لأمر عال رفيع . ما كنت قط لأحلم بشيء مثله » .

ولم يكد الجمود الذي لازم اعتراضي الأول يزول حتى بدأ تأثره المكبوت يظهر ، فنهض من مكانه وجعل هو أيضاً يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً ، ويأتي بحركات ويصيح . لقد كان سلوكنا سلوك من جاءه الإلهام . كنا رجلين ملهمين حقاً .

وقال رداً على صعوبة طارئة كانت قد عقدت لساني : « سوف نسوّي الأمر جميعه ، سوف نسويه سريعاً ، وسنشرع من هذه الليلة في عمل الرسوم للقوالب » .

فأجبته بأننا سوف نشرع فيها من تلك الساعة ، وهرعنا إلى المعمل لنبدأ العمل فوراً .

وكنت طيلة تلك الليلة كطفل في بلاد العجائب . وانبلج الفجر ونحن لا نزال نعمل ، حتى إننا تركنا المصابيح الكهربائية مضيئة دون أن نشعر بضوء النهار . وإني لأذكر الآن جيداً منظر تلك القوالب ، وكنت أظلل تلك الرسوم وأصبغها بينما كان هو يرسم ، وبدا كل خط عليها ملوثاً عليه آثار السرعة ، ولكنها كانت جميعها صحيحة دقيقة بشكل يدعو إلى العجب . وفي تلك الليلة عينها أرسلنا في طلب الفولاذ للستائر والإطارات اللازمة ، ووضعنا تصميم الكرة الزجاجية فاستغرق ذلك منا أسبوعاً . وتخلينا عن حديثنا المسائي على أقداح الشاي ، كما تخلينا كلية عن الأعمال الاعتيادية العادية. وكنا نشتغل وننام ولا نأكل إلا حين نعجز عن العمل بسبب الجوع والكلل . وتطرقت عدوى حماستنا إلى معاونينا الثلاثة ، رغم أنه لم تكن لديهم أية فكرة عن سبب صنعنا للكرة . وكف رجلنا جبز في تلك الأيام عن المشي ، لأنه كان ينتقل إلى أي مكان حتى إذا كان ذلك عبر الغرفة في حركة تشبه الجري الدال على الانهماك .

وأخذت الكرة تكبر ، وانقضى شهر ديسمبر ومن بعده يناير وقضيت يوماً من أيامه أكتسح الثلج بمكنسة من الطريق بين منزل الريف والمعمل ، ثم أقبل فبراير وخلفه مارس ، الذي كان اكتمال الكرة فيه

واحدا قبل أن ينتهى . وكان قد أتانا فى يناير جوادان وصندوق ضخم لاحتواء الكرة ، وكانت كرتنا المصنوعة من الزجاج السميك قد أعدت ووضعت تحت رافعة الأثقال والونش ، على أهبة إنزالها داخل غلافها الفولاذى وتسلمنا فى فبراير كافة القضبان والستائر اللازمة لهذا الغلاف الذى لم يكن فى الحقيقة كرويا بل متعدد الجوانب ، وقد جهز كل كل جانب بستائر لفافة وربط بالكرة جزؤها السفلى وقبل أن يدبر شهر مارس كان نصف المادة الكافورية قد تم ، وكان المعجون المعدنى قد مر على مرحلتين من مراحل صنعه ، وكنا قد استهلكنا ما يقرب من نصفه فى طلاء القضبان الفولاذية والستائر ، ومما يدعو إلى الدهشة إننا لزمنا الخطوات ذاتها التى ألهمها كافور فى خطته ، وحين تم ربط جزئى الكرة رأى أن يزيل السطح الخشن الذى يغطى معمله الوقتى حيث يجرى تجاربه وأن يبنى حوله مصهرا ، وهكذا تم المرحلة الأخيرة فى صنع المادة الكافورية ، وهى المرحلة التى يسخن فيها المعجون بعد طلاء الكرة به مباشرة فى تيار من غاز الهليوم حتى تتوهج بلون أحمر قاتم .

وكان علينا بعد ذلك أن نبحث ونقرر نوع المؤن التى يجب أن نتزود بها من أطعمة مضغوطة وخلاصات مركزة واسطوانات فولاذية تحوى مقادير احتياطية من الأكسجين وأجهزة لتنقية الهواء من أكسيد الكربون واستخلاص الأكسجين باستعمال ثانى أكسيد الصوديوم وأجهزة تكثيف الماء إلى غير ذلك . وأذكر الكومة الصغيرة فى الركن

من علب الصفيح واللفائف والصناديق وجميعها من الأشياء التى اقتنعنا بأهميتها .

وكان الوقت ضيقا لا يسمح بالتفكير ، وفى ذات يوم عندما أوشكنا على الانتهاء انتابتنى حالة نفسية غريبة . كنت قضيت الصباح كله فى تشييد بناء المصهر فجلست على مقربة من المتاع المتراكم فى حالة إعياء شديد ، وبدا لى كل شىء كشيئا بعيدا عن التصديق ، فقلت لكافور :

« انتبه لى يا كافور ، ما الغرض من هذا كله فى نهاية الأمر ؟ » .

فقال وهو يبتسم : « إن ما يعنينا الآن هو السفر » .

فقلت له بعد تفكير : « القمر ، ولكن ما الذى ترجوه منه ، وهو عالم لا حياة فيه كما يخيل إلى ؟ » .

فهز كتفيه .

وعدت أسأله : « ما الذى ترجوه ؟ » .

— سوف نذهب لنرى .

فقلت وأنا أحدق النظر فيما أمامى : « أو نحن ذاهبون ؟ » .

فعلق على كلامى بقوله : « إنك مجهد يحسن بك أن تقوم بجولة هذا المساء » .

فقلت فى إصرار : « لا . لأنتهين من هذا البناء » .

وانتهيت منه ، ولكن بعد أن انتابنى الأرق فى تلك الليلة

ولا أظن أنى قضيت فى حياتى ليلة كتلك . لقد مرت على أوقات سيئة قبل عبور تجارق، ولكن أسوأ ما رأيته منها لم يتعد النعاس الحلو إذا قورنت باليقظة المرهقة التى لا تنتهى . ذلك أنى وجدت نفسى فجأة فى أشد حالات الفزع مما كنا مزمعين القيام به .

ولا أذكر قبل تلك الليلة أنى فكرت فى المخاطرات التى كنا مقدمين عليها وإذا هى فى تلك الليلة تعصف فى صورة أشباح كالتى حاصرت مدينة براغ ، وتعسكر حولى . فقد طغت على تفكيرى غرابة ما كنا مقدمين عليه ، وبعده عن الأرضيات . وكنت كرجل استيقظ من حلم جميل ليجد نفسه عاطلا بأكثر الأشياء رعبا . كنت مضطجعا وعيناى مفتوحتان إذا بى أرى الكرة تأخذ فى الرقة والوهن وكافور يبدو فى صورة خيالية لا حقيقة لها ، وإذا المشروع كله يبدو عملا جنونيا لحظة بعد لحظة .

عند ذلك نهضت من الفراش ورحت أتجول فى الغرفة . وجلست عند النافذة وأخذت أسرح الطرف فى الفضاء اللانهائى، والفراغ الذى يفصل بين النجوم والظلام عميق لايسبر غوره ، وحاولت أن أستجمع معارفى الفلكية التى اكتسبتها من مطالعاتى غير النظامية ، وإذا هى غامضة تعجز عن إمدادى بفكرة من الأشياء التى قد نتوقعها . وعدت آخر الأمر إلى الفراش أغتصب لحظات من النوم ، أو بالأحرى لحظات من الكابوس ، خلت نفسى فيها أهوى ثم أهوى ثم أهوى فى الفضاء الجوى إلى مالا نهاية .

ودهش كافور حين قلت له باقتضاب ونحن على مائدة الإفطار إنى

لن أذهب معه داخل الكرة ، وكنت أقابل جميع اعتراضاته بالكتاب وعناد فقلت له : « إنه لعمل جنونى . لن أذهب . إنه أكثر من أن يحتمل » .

ورفضت اصطحابه إلى المعمل ورحت أجول متبرما حول منزلى الريفى فترة من الزمن ، ثم أخذت قبعتى وعصاى وخرجت من منزله لا ألوى على شىء . وتصادف أن كان ذلك فى صباح يوم بهيج دافىء ، سماؤه زرقاء صافية ، وقد بدت بوادر خضرة الربيع فى الخلاء . وراحت جماعات من الطيور تغرد ، وتناولت طعاما من لحم البقر والجعة فى مطعم صغير عام بالقرب من إلام ، وأرعبت مالك ذلك المطعم بملاحظتى عن الطقس حين قلت : « إنه مجنون ذلك الرجل الذى يترك العالم فى طقس كهذا مقبل علينا » .

فقال مالك المطعم : « هذا ما أقوله حين أسمع عن هذا الأمر » ووجدت أن العالم بدا كثيرا بالنسبة إلى رجل بائس واحد على الأقل ، فرفعت مذبحة وسرت فى طريق وقد اتخذت أفكارى اتجاها جديداً .

وفى ضحى ذلك اليوم نمت نوما لذيذا فى مكان يغمره نور الشمس فانتعشت حين تابعت طريقى .

ووصلت إلى فندق بالقرب من كنتربرى بدت عليه مظاهر الراحة وازدهى بنباتاته المتسلقة ، وكانت صاحبته امرأة عجوزا نظيفة استرعت نظرى ، وإذ وجدت لدى من المال ما يكفى لسد نفقات المبيت عندها ، قررت أن أقضى الليلة فى الفندق . وكانت ثرثارة عرفت منها ضمن

ما عرفت أنها لم تزر لندن قط فى حياتها ، فقد قالت : « لم أذهب إلى أبعد من كنتربرى ، فلست من محبى اللف والدوران » .

فقلت لها : « ما رأيك فى جولة إلى القمر ؟ »

فقالت : « لم اتفق فى الرأى مع راكبى المناطيد طول حياتى . » مما يتضح معه أنها كانت تظن أن الرحلة رحلة عادية . وتابعت كلامها فقالت :

« لن أذهب فى واحد منها ، لن أفعل ذلك أبدا » .

فبدا لى قولها مضحكا . وجلست بعد العشاء على مقعد بالقرب من باب الفندق ودخلت فى حديث ثرثار مع اثنين من العمال عن صنع القرميد والسيارات ولعبة الكريكت فى سنة مضت . ولاح فى السماء هلال جديد ضئيل ، بدا فى زرقة غامضة كأنه جبل من جبال الألب البعيدة ثم غاص إلى الغرب فوق قرص الشمس .

وعدت فى اليوم التالى إلى كافور وقلت له : « إنى ذاهب معك . كنت على شىء من الاضطراب . وهذا كل ما فى الأمر »

وكانت تلك هى المرة الوحيدة التى اعترانى فيها شك جدى حول المشروع ، وذلك بسبب الأعصاب فحسب . أما بعد ذلك فقد كنت أعمل بمزيد من الحرص ، وأقوم برياضة على الأقدام لمدة ساعة فى كل يوم وأخيرا أشرفت جهودنا على النهاية إذا استثنينا تسخين المصهر .

الفصل الرابع

فى جوف الكرة

بينما كنت جالسا على حافة الطاقة أسرح البصر فى جوف الكرة المظلم طلب منى كافور أن أدخلها . وكان الوقت مساء ، وكنا وحدنا وكانت الشمس قد غربت وساد سكون الغسق كل شىء .

وأدخلت ساقى الأخرى من فوق الزجاج المصقول فوصلت إلى قاع الكرة والتفت خلفى لأتسلم من كافور علب الطعام وغيرها من المتاع والمهمات وكان جوف الكرة دافئا ، فقد استقر دليل مقياس الحرارة عند الدرجة ثمانية . ولما لم يكن من المتوقع أن نفقد شيئا من هذه الحرارة عن طريق الإشعاع فقد ارتدينا أحذيتنا وفانيلاتنا الرقيقة . على أننا حملنا معنا رزمة من الملابس الصوفية السميكة وعددا من البطانيات الثقيلة احتياطا ضد الظروف السيئة ، ووضعت اللفائف واسطوانات الأكسجين وغيرها عند قدمى دون ربطها إلى شىء . وذلك طبقا لتوجيهات كافور . ولم يمض وقت طويل حتى كان جميع المتاع قد نقل إلى الداخل . وجال بعض الوقت حول الطلية التى جردت من سقفها ، ترى هل نسينا شيئا . ثم زحف إلى داخل الكرة خلفى ورأيت فى يده شيئا فى يده فقلت له :

— ما الذى فى يدك ؟

— ألم تحضر معك شيئاً تطالع فيه ؟

— ويحى ، لم أحضر شيئاً .

— سها على أن أخبرك أن ثمة أشياء لا يمكننا التأكد منها ... فقد تستغرق الرحلة أياما وقد تغيب أسابيع .

— ولكن ...

— سوف نسبح فى الفضاء ونحن داخل هذه الكرة دون عمل يشغلنا على الإطلاق .

— ليتنى عرفت ...

فأطل من الكرة وقال مقاطعاً : « أنظر أرى شيئاً هناك ! »

— هل لدينا وقت .

— أمامنا ساعة من الزمن .

ونظرت إلى الخارج وإذا أنا أرى عدداً قديماً من مجلة الشذرات[٢] التى لابد أن يكون أحد رجالنا قد أحضرها معه . لمحت فى الركن على بعد منها صحيفة ممزقة هى « لويدز نيوز » ، فأخذتها وعدت مهرولا إلى داخل الكرة وقلت له : « وأنت ماذا أحضرت » ، وأخذت الكتاب من يده وقرأت : « مؤلفات وليم شكسبير » .

فعلت وجهه عندئذ حمرة طفيفة ، وقال مدافعا عن نفسه :

« لقد كان تعليمى علمياً فحسب » .

— أو لم تقرأ شكسبير فى حياتك ؟

— لم أقرأه قط .

— لم يكن شكسبير على علم واسع ، كما لا يخفى عليك ، وقد تعلم ما تعلمه بطريقة غير منتظمة .

— هذا بالضبط ما قيل لى عنه .

وساعدته فى ربط غطاء الكرة الزجاجى بالمسامير اللولبية ، ثم ضغط على زر ليغلق الستار الخارجى للغطاء ، فتلاشى ضوء الغسق المستطيل الشكل الذى كان يتسرب إلى الداخل خلال الغطاء ، فأمسينا فى الظلام .

ولبثنا وقتا لا نتكلم ، وبالرغم من أن كرتنا لم تكن مانعة الصوت ، فقد عم السكون المكان ، ولاحظت أنه لم يكن ثمة شىء أمسك به عند حدوث الهزة التى تصحب قيام الكرة برحلتها ، وأدركت أنى لن أكون مستريحاً والمكان خلو من المقاعد

فقلت له : « لم لا توجد كراسى ؟

— لقد رتبت كل شىء ، فلن نكون فى حاجة إلى كراسى .

— ولم لا ؟

فقال بنغمة الرجل الذى يرفض أن يبوح بشىء : « سوف ترى » فلزمت الصمت ، وتراءى لى الأمر على حين غرة واضحاً جلياً لقد

كنت مجنونا عندما قبلت أن أدخل الكرة . ورحت أسأل نفسي هل فات أوان الانسحاب ؟ وكنت أدرك أن العالم الخارجي سوف يكون باردا غير مضياف ، فقد ظللت أسابيع طويلة أعيش على معونة كافور ولكن هل يكون الجو في نهاية الأمر في برودة درجة الصفر التي لاحد لها أو في إجداب الفضاء الفسيح . وأعتقد أنه لولا خشية طيوري بمظهر الجبان لطلبت منه ، حتى بعد فوات ذلك الوقت كله ، أن يخلي سبيلي ، ولكنني ظللت مترددا مغرقا في التردد وصرت أغضب وأتبرم بكل شيء ، والوقت يمضي .

وشعرت بهزة ، وبصوت كالصوت الذي يحدث عند فتح زجاجة شمبانيا في غرفة بعيدة ، وسمعت صفيرا ضعيفا ، ومرت لحظة قصيرة شعرت في أثنائها بضغط هائل ، واعتقدت فترة عاطلة أن قدمي تضغطان على أرض الكرة بقوة تعادل ثقل أطنان لا عداد لها ، واستغرق ذلك زمنا نادرة في القصر .

على أن ذلك الأمر جعلني أتخذ خطوة عملية ، فصحت في الظلام : « أعصابي تتمزق يا كافور . . . لا أظن » .

ولم أكمل كلامي ، ولم يقل هو شيئا .

وعدت أصيح : « يا للعنة ! إلى الجنون ! ما شأني هنا . لست بذاهب معك يا كافور . الأمر أخطر مما يبدو . سأخرج » .

— لا تستطيع ذلك !

— لا أستطيع ! سوف ترى

ومرت عشر ثوان دون أن يجيب جوابا ، ثم قال : « لقد فات أوان الشجار بيننا يا بدفورد . تلك الهزة الصغيرة التي شعرت بها كانت هزة تحركنا نحن الآن نسبح في لجة الفضاء بالسرعة التي تنطلق بها الرصاصة » .

فقلت : « أنا . . . » ثم بدا لي أنه لا أهمية لما قد يحدث لقد لبثت على ما يبدو ، وقتا ما في حالة ذهول . فلم يكن لدي ما أقوله ، وبدا الأمر كأني لم أسمع من قبل بفكرة ترك الأرض ، ثم شعرت بتغيير لم أعرف له سببا في أحاسيسي الجسمية ، إحساس بخفة الوزن ، وبأن ما أنا فيه غير حقيقي ، فضـــلا عن إحساس آخر في الرأس يصحب الإحساس الأول ، إحساس يكاد يكون له أثر داء السكتة ، وإحساس في الأذن بنبضات الأوعية الدموية نبضات قوية ، ولم تتناقص هذه الإحساسات بمرور الزمن ، ولكنني اعتدت عليها في آخر الأمر فلم تسبب لي أية متاعب .

وسمعت طقطقة ، وإذا مصباح صغـــير يتوهج ضياء يرد إلى حيز الوجود .

ونظرت إلى وجه كافور فإذا هو أبيض كما كان شعوري عن لون وجهي ، وراح كل منا ينظر إلى أخيه في سكوت ، لقد جعله شفوف سواد الزجاج الذي خلفه يبدو ، وكأنه يسبح في فراغ .

وقلت له أخيرا : « إننا ملتزمان » .

قال : « أجل إننا لكذلك » .

ورأيت أن أقوم بحركة ، فصاح بي : « لا تتحرك . استرخ كأنك في الفراش ، فلا زلنا في كون أرضنا الصغير » .

وأشار إلى العلب والرزم التى كانت ملقاة على البطانيات فى أسفل الكرة ، ثم قال ، انظر هذه الأشياء ! ، وتعجبت حين رأيتها تسبح على مسافة قدم تقريبا من جدار الكرة ، وحين وقع نظرى على خيال كافور عرفت أنه لم يعد يتكىء على الزجاج كما كان ، وأرسلت يدى ورائى فإذا أنا أيضا معلق فى الفضاء مبتعد عن الزجاج .

لم أصرخ ولم أبد حراكا ، ولكن الخوف تملكنى رغم ذلك ، فقد كنت كمن أمسك به شىء ورفعه إلى أعلى ، شىء لا يعرف كنهه . إن مجرد لمس يدى للزجاج جعلنى أتحرك تحركا سريعا ، وفهمت ماحدث ولكن فهمى لم ينقص الخوف عنى ، ذلك أننا كنا قد انعزلنا عن كل جاذبية خارجية ، ولم يكن لشىء تأثير جذبى علينا سوى الأشياء التى داخل كرتنا . ونجم عن ذلك أن جميع الأشياء التى لم تكن مثبتة فى الزجاج كانت تتساقط ـ ببطء لخفة أجسامنا ـ نحو مركز جاذبية كرتنا الصغيرة ، الذى كان على ما يبدو فى منتصفها ، مع ميل فى اتجاهى نظرا لثقل وزنى عن وزن كافور .

وقال كافور : « يجب أن ندور على عقبينا بحيث نسبح فى الفضاء ظهراً لظهر وبحيث تسبح الأشياء بين ظهرى وظهرك .

وكان تعلقنا فى الفضاء ، على تلك الصورة ، أغرب إحساس يمكن أن تتصوره ، كان غريبـــاً بصورة مرعبة فى بدايته وأصبح إحساساً محبباً حين زال الرعب ، وأوحى بالراحة المتناهية إلى أشبه شىء به فى الواقع ، أشبه شىء أعرفه فى محيط اختباراتنا الأرضية هو

ذلك الإحساس الذى نحسه عندما نضطجع على فراش سميك وثير من الريش ، ولكننى لم أكن أحسب قط حساب هـــذا الشعور بالاستقلال التام والانفصال عن أى تأثير خارجى ، كنت أتوقع حدوث هزة عنيفة عند قيام الكرة من الأرض وشعورى بالدوار الذى تحدثه السرعة ، ولكننى شعرت بدلا من ذلك ، أنى تخلصت من جسمى فلم أكن كمن يبدأ رحلة بل كمن يبدأ حلما .

الفصل الخامس

الرحلة إلى القمر

وأطفأ كافور الضوء ثوا ، وهو يقول إننا لم نختزن قدراً كبيراً من هذه الطاقة ، وإننا يجب أن نقتصد فيما لدينا منها للطوارئ . وعلى ذلك ظل الظلام القاتم مخيماً على المكان وقتاً لا أدرى هل طال أم قصر .

وأرسلت سؤالا وسط ذلك الفراغ : « كيف نسير وماهو اتجاهنا؟ » فجاء فى الجواب : « إننا نطير متباعدين عن الأرض فى خط منحرف ولما كان القمر على وشك دخوله فى الربع الثالث فنحن سائران فى اتجاهه . سأزيح إحدى الستائر » .

وحدثت طقطقة انفتحت بعدها نافذة فى الغلاف الخارجى وكأنها فم يتثاءب . وكانت السماء خارج الكرة سوداء كالظلام داخلها ، ولكن فتحة النافذة تميزت بعدد من النجوم لا حصر لها .

وأولئك الذين لم يشاهدوا السماء المزدانة بالنجوم إلا من سطح الأرض لا يمكنهم تخيل منظرها عندما يختفى هـــذا النقاب الغامض الأغبش الذى يميز هواءنا الجوى ، وما النجوم التى نراها من الأرض إلا بقايا متناثرة منه تخترق جو أرضنا الغامض الكثير الضباب ،

واستطعت فى تلك اللحظة أن أدرك معنى وصفها بجند السماء .

وكان من المقدر لنا أن نرى أشياء أكثر غرابة من تلك ، ولكن إن أنس فلن أنس تلك السماء الخالية من الهواء المرصعة بالنجوم وكأنها ذرات الغبار .

وسمعت طقطقة اختفت بعدها النافذة الصغيرة ، وانفتحت بجانبها بسرعة خاطفة نافذة أخرى أغلقت على الفور ، ثم ثالثة ، واضطررت أن أغمض عينى لحظة لشدة البهاء الذى يخطف الأبصار والتى تحل فى القمر المتضائل .

ومرت فترة من الزمن كان لابد لى أثناءها أن أحدق النظر فى كافور وفى الأشياء الساطعة بلون أبيض حولى ، لأعود عينى على النظر إلى الضوء مرة أخرى قبل أن أستطيع تحويلهما فى اتجـــاه ذلك البريق الأصفر .

وفتحت نوافذ أربع لتسمح لجاذبية القمر أن تقع على جميع المواد التى بداخل الكرة وتؤثر فيها . فوجدت أننى لم أعد أسبح طليقاً فى الفضاء ، وأن قدمى قد استقرتا على زجاج الكرة المواجه للقمر ، وإذا البطانيات وعلب المؤن تزحف ببطء على الزجاج وتستقر فى الحال عليه فتقف سداً يمنع جزءاً من الرؤية . وبدوت وكأنى أنظر إلى أسفل فى الوقت الذى كنت أنظر فيه إلى القمر ، ذلك أن لفظة « أسفل » على كوكبنا الأرضى تعنى « فى اتجاه الأرض » ، وهى الطريقة التى تسقط بها الأشياء . بينما « أعلى » تعنى الاتجاه المضاد . أما هنا فالجذب يتجه نحو

ثم جاءت روعة المنظر

القمر . وكان كوكبنا الأرضي فوق رءوسنا ، وهذا يعكس كل ما نعرفه عنه ، وحين أغلقت جميع النوافذ المطلية بالمادة الكافورية كانت لفظة « أسفل » بالطبع تعني في « اتجاه مركز كرتنا » ، ولفظة « أعلى » في اتجاه جدارنا الخارجي .

هذا ووصول الضوء إلينا من أسفل إلى أعلى أمر غريب ويختلف عما عهدناه على الأرض ، فالضوء ونحن على الأرض يسقط علينا من أعلى أو ينحرف انحرافا جانبيا متجها إلى أسفل . أما هنا فقد انبثق من تحت أقدامنا فكان علينا أن نرفع أبصارنا إلى فوق إذا أردنا رؤية أشباحنا .

وشعرت في أول الأمر بنوع من الدوار وأنا أقف على الزجاج السميك وأتطلع إلى القمر تحتي خلال مئات وآلاف من الأميال من الفضاء الخالي ولكن الدوار ذهب سراعا وتبعه جلال الرؤية !

ويستطيع القارئ أن يتخيله على أحسن صورة إذا هو اضطجع على الأرض في ليلة صيف دافئة ورفع قدميه إلى أعلى ونظر إليه خلالهما ولكن لسبب من الأسباب ، بدا القمر في تلك الساعة وبشكل ملحوظ أكبر حجما مما يبدو على الأرض . قد يكون ذلك راجعا إلى عدم وجود الهواء مما جعله أكثر لمعانا ، ولأننا لم ننظر إليه من خلال الهواء ، كانت حدوده الخارجية بارزة براقة ولم يحط به أي وهج أو هالة ، وكان غبار النجوم الذي يملأ الجو يصل إلى حافته تماما وبين الجزء غير النير منه . وبين أنا واقف أحدق النظر إلى القمر بين قدمي عادت إليّ فكرة المستحيل التي جعلت تراودني المرة بعد المرة منذ بدء رحلتنا ،

أقول عادت إلىّ باقتناع تضاعف عشر مرات .

فقلت لكافور : « لقد أخذتني هذه النظرة على غرة بصورة غريبة . فأين تلك الشركات التي حسبنا حساب إدارتها ، وذلك الكلام عن المعادن ؟ » .

— وماذا عنها .

— لا أجدها هنا .

— كلا . ولكنك سوف تنسى كل ذلك ...

— في ظني أنه قد أريد بي أن ألزم مكان المشرف مرة أخرى ، ولكن هنا .

ومرت فترة كنت أعتقد أن هذا العالم لم يكن له قط وجود .

— هذه النسخة من لويدز نيوز قد تساعدك ...

فنظرت إلى الجريدة لحظة ، ثم أمسكتها فوق مستوى وجهي ووجدت سهولة في قراءتها ، ووقع نظري على نهر للإعلانات الصغيرة ومن بينها ما يأتي : « سيد ذو موارد خاصة على استعداد لإقراض المال » وقد عرفت ذلك السيد . وقرأت إعلانا آخر عن شخص غريب الأطوار يريد بيع دراجة من صنف « كآوبه » ، جديدة ثمنها خمسة عشر جنيها بخمسة جنيهات ، وإعلانا ثالثا لامرأة واقعة في ضيق ترغب التخلص من بعض السكاكين والشوك التي تستخدم في أكل السمك وكانت قد أهديت لها بمناسبة زواجها » . لاشك أن البائع راح يفحص تلك السكاكين والشوك لحص الرجل الحكيم ، وأن آخر

ركب تلك الدراجة متعاليا وأن ثالثا ذهب يستشير ذلك المحسن ذا الموارد الخاصة في الوقت الذي كنت أطالع فيه الإعلان ، فجعلت أضحك وتركت الصحيفة تسقط من يدي وسألت كافور : « هل يرانا أهل الأرض ؟ » .

— لم هذا السؤال ؟

— عرفت شخصا من المهتمين بعلم الفلك ، وخطر ببالي أن الأمر سوف يبدو غريبا لو تصادف أن صديق هذا كان ينظر خلال التلسكوب .

— سوف يتطلب ذلك أقوى التلسكوبات الأرضية ، وإذا نظر إلينا الآن فسوف نبدو له كنقطة دقيقة غاية في الدقة .

ورحت أنظر إلى القمر في صمت فترة من الزمن ، وقلت له :

— إنه دنيا أخرى . إن شعور الإنسان بذلك لا حدود له ، فهو شعور لم يخامره قط على سطح الأرض . قد يكون الناس .

— الناس ! كلا . دع عنك كل هذا ، وتخيل نفسك رحالة خرج ليكتشف منطقة ما وراء القطب ويرتاد أماكنها المهجورة الشاسعة .

وقال وهو يلوح بيده إلى البياض اللامع تحته : « انظر إليه . إنه ميت ـ ميّت ! هناك البراكين الخامدة الشاسعة وصحراوات من اللافا ، ومساحات من الجليد المنهار . أو هناك غاز الكربون المتجمد أو الهواء المتجمد ، وحينا توجهت تر الأخاديد التي أحدثتها الجروف المنهالة والتشقق والخلجان . لا يعتورها تغيير . لقد راقب الإنسان هذا

الكوكب بنظام بمساعدة المراقب أكثر من مائتي سنة ، فكم من التغيير تظن أنهم شاهدوه ؟

فقلت : « لم يشاهدوا تغييراً » .

وعاد يقول : « لقد تتبعوا جرفين لاجـــدال في وجودهما وشقا مشكوكا في أمره ، وتغييرا طفيفا واحدا يحدث في اللون وفي فترات ، وهذا كل ما في الأمر » .

ــ لم أكن أعرف أنهم تتبعوا هذا التغيير ذاته .

ــ بل لقد تتبعوه . أما عن الناس ! »

ــ وعلى ذكر هذا ، ما هو أصغر شيء يستطيع أكبر تلسكوب أن يتبينه على القمر ؟ »

ــ يستطيع الإنسان أن يرى كنيسة من حجم متوسط ، ويمكنه بكل تأكيد مشاهدة المدن والأبنية أيا كانت ، أو أي شيء من صنع البشر . قد يكون ثمة حشرات تشبه النمل مثلا ليتسنى لها الاختباء من ليل القمر في جحور عميقة ، أوخلوقا جديداً لاشبيه له على الأرض ، وهذا هو أكثر الاحتمالات لوجود حياة على القمر ، تأمل الفرق في الأحوال بين الكوكبين ، إذ يجب أن تتلاءم الحياة مع نهار طوله يعادل أربعة عشر يوما من أيام الكوكب الأرضى ، شروق قيظ يدوم أربعة عشر نهاراً يتلوه ليل يعادله طولا ويتزايد برده تحت سماء هذه النجوم القاسية الباردة . في ذلك الليل يتحتم أن يكون الجو بارداً ، برودة قصوى تصل إلى ٢٧٣° سنتيجراد تحت صفر درجة التجمد الأرضية فإن وجدت أية

حياة عليه ، فيجب أن تتحمل النبات في تلك الدرجة ثم تستيقظ من ذلك السبات كل يوم » .

وراح كافور يفكر ثم تابع حديثه : « يستطيع المرء أن يتخيل كائنات تشبه الدود تستنشق الهواء في حالة الصلابة ، كما يبتلع الدود التراب ، أو لعله يستطيع تخيل عمالقة من الوحوش ذوات الجلود السميكة » .

فتأملته ووجهت إليه السؤال : « وعلى ذكر ذلك لِمَ لَمْ تحضر معنا بندقية ؟ » .

فلم يحر جواباً ، ولكنه قال : « علينا أن نذهب لنرى ونبحث في هذا الأمر حين نصل إلى هناك » .

عندئذ تذكرت شيئاً فقلت له : « ستجد بالطبع المعادن التي تكلمت عنها على أية حال ومهما تكن الظروف » .

وأبدى في تلك الساعة رغبته في تغيير خط سيرنا تغييراً طفيفاً وذلك بأن يجعل الأرض تجذبنا إليها لحظة . وأخبرني أنه سوف يرفع الستار المواجه للأرض مدة ثلاثين ثانية ، بعد أن حذرني بأن ذلك سيسبب لي دواراً ، ثم نصحني بأن أبسط يدي على الزجاج لتتكسر حدة سقوطي فعملت بنصحه ، وألقيت قدمي على رزم صناديق الطعام واسطوانات الهواء لأحول دون سقوطها علي . وسمعت طقطقة ارتدت بعدها النافذة مفتوحة فسقطت على يدي ووجهي سقطة مرونة ، وشاهدت لحظة خلال أصابع يدي الممدودة القائمة أمنا الأرض كوكباً في سماء تقع في الجهة السفلى منا .

وكنا لا نزال قريبين من الأرض ، وأخبرني كافور أن المسافة بيننا وبينها قد تصل إلى ثمانمائة ميل ، ذلك أن قرص الأرض الضخم كان يملأ السماء كلها وكان من الواضح أن نرى أنها كرة ، وكانت الأرض تحتنا تبدو في الغسق ، واضحة المعالم ولكن إلى الغرب كانت تمتد سواحل الأطلنطي الغبراء تسطع مياهه في الأصيل وكأنها لجين منصهر . وأظنني تعرفت على سواحل فرنسا وأسبانيا وجنوبي انجلترا ، وقد بدت في قتام السحاب الذي يغطيها . وسمعت طقطقة أخرى أغلقت بعدها النافذة . وإذا أنا في حالة اضطراب غريب ، وإذا جسمي يحط ببطء فوق الزجاج الناعم الملمس .

وعندما استقرت هذه المسائل أخيراً في نفسي مرة ثانية ، بدا لي بما لا يحتمل الجدل أن القمر كان « أسفل » الكرة ، تحت أقدامي ، وأن الأرض كانت تقع في مستوى الأفق على مسافة بعيدة ، هذه الأرض التي كانت تحتي وترتطني بها علاقة القربى منذ البدء .

وكان الجهد المطلوب منا زهيداً ، وقد سهل مهمتنا انعدام وزننا انعداماً حقيقياً بحيث أننا لم نفكر في ضرورة تناولنا شيئاً من المنبهات مدة ست ساعات تقريباً — وفقاً لساعة كافور الدقيقة — منذ بدء رحلتنا . ولقد دهشت لمرور الزمن ، وكنت أقنع بالقليل حتى تلك الساعة . وقام كافور بفحص الجهاز الذي يمتص غاز أكسيد الكربون والماء ، وأقر بأنه في حالة جيدة ، ذلك أن استهلاكنا للأكسجين كان بمقادير زهيدة ، وكنا قد أفرغنا ما في جعبتنا من حديث ، ولم يكن أمامنا عمل يقتضي منا التنفيذ ، ولذلك أسلنا أنفسنا للكرى الذي كان

قد استولى علينا ، فبسطنا بطاطيننا في أرض الكرة في وضع يحجب عنا جميع أضواء القمر ، ثم تبادلنا تحية الليل ورحنا في النوم فوراً .

وقضينا الوقت على هذه الصورة بين رقاد وحديث وقليل من المطالعة وتناول وجبات الطعام ، وإن لم نشعر بالشهية الحادة لتناوله ، وكان الوقت جله يمضي في سكون ، لا هو بالرقاد ولا هو باليقظة . وكرتنا تسير مسرعة في اتجاه سفلي نحو القمر في هدوء وسكينة .

من الغريب أننا لم نشعر برغبة في الطعام ونحن داخل الكرة ، كما أننا لم نشعر بحاجتنا إليه ، بعد أن انقطعنا عن تناوله ، كنا في أول الأمر نرغم أنفسنا على تناوله ، ولكننا صمنا عنه بعد ذلك ، ولم يتعد جميع ما استهلكنا جزءاً من مائة من الأطعمة المضغوطة التي جلبناها معنا . وكانت كمية أكسيد الكربون الذي استنشقناه قليلة جداً وليست طبيعية ، وأنا في عجز عن تفسير السبب .

الفصل السادس

الهبوط على القمر

أذكر ذات يوم كافور وقد فتح على حين غرة ستاً من نوافذ كرتنا فكاد يذهب بصرى حتى أنى صرخت فى وجهه . لقد كانت المنطقة كلها قمرا ، وقد بزغ الفجر الأبيض ، أشبه بسيف مقوس هائل تعترى حافته نتوءات مظلمة ، وقد أحاطت الظلمة المدلهمة بشاطئه الهلالى الشكل وبرزت من وسط تلك الظلمة قمم ورءوس بدت وكأنها تتسلق أشعة الشمس المتوهجة . ولما كنت أعتقد أن القارئ قد شاهد صوراً شمسية وغيرها للقمر فلست فى حاجة إلى وصف السمات العريضة لذلك المنظر وتلك السلاسل الجبلية الفسيحة التى على شكل الحلقات والتى تفوق فى اتساعها الجبال الأرضية ، وقد سطعت شمس النهار على قممها وبدت أشباحها عميقة قاتمة ، وتلك السهول الغبراء الممتدة فى كل مكان دون نظام ، وتلك القمم والتلال والفوهات الصغيرة ، جميع هذه تنتقل من سطوع متوهج إلى قتام أسود شامل غامض . كنا نطير فى خط مائل نحو عالم القمر على مسافة تقرب من مائة ميل فوق قممه وقننه واستطعنا أن نرى من موضعنا ما لن تراه أية عين على سطح الأرض ، فإن الحافات الناتئة للصخور والوهاد ، فى السهول وعلى سطح الفوهات البركانية بدت فى ضوء النهار الوهاج غبراء مطموسة المعالم يغمرها الضباب المتكاثف ، ويغطى بياض سطوحها اللامعة كتل وقطاعات من الأرض تقطع عليها بياضها ، ثم

ينكمش ذلك البياض ويتلاشى المرة بعد المرة وتبرز فى أمكنة متعددة ألوان غريبة بنية وزيتونية لا تفتأ تنتشر بين الأرجاء .

ولكن لم يتسع لنا الوقت لنشاهد هذه المناظر فى ذلك الحين ذلك أننا كنا قد وصلنا المرحلة الخطرة حقا من رحلتنا ، فكان علينا أن نهبط على القمر أثناء دورتنا حوله ، وأن نهدئ من سرعتنا ونترقب فرصتنا إلى أن نستشعر من أنفسنا الجرأة على الهبوط على سطحه .

وانطوت تلك اللحظات على إجهاد شديد بالنسبة لكافور . أما بالنسبة لى فقد كانت لحظات جمود مقترن بالقلق . وبدا لى أنى كنت على الدوام أتحاشى طريقه ، وراح هو يقفز من مكان إلى مكان داخل الكرة بخفة يستحيل توقعها له وهو على سطح الأرض ، وكان فى تلك الساعات الأخيرة الحافلة يفتح النوافذ الكافورية ويغلقها دون انقطاع وهو يجرى عمليات حسابية وينظر إلى الساعة الدقيقة بالمصباح المتوهج ومرت فترة طويلة من الزمن أغلقنا أثناءها جميع نوافذنا ورحنا نتلمس فى الظلام صامتين . وكرتنا تندفع خلال الفضاء .

وجعل يتلمس طريقه إلى أزرار النوافذ ، وإذا أربعة منها تنفتح فجأة ، وإذا أنا أترنح وأغطى عينى وقد غمرنى بهاء الشمس الصادر من تحت قدمى ، وآلمنى وكاد يذهب ببصرى ، فقد كان بهاء لم أعهده من قبل ، ثم قصفت النوافذ مرة أخرى منغلقة ، تاركة رأسى يدور فى الظلام الذى راح يضغط على ناظرى ، وسبحت بعد ذلك فى عالم آخر من الظلام الذى يخيم عليه السكون .

ثم ضغط كافور على زر النور الكهربائى فأضاء المكان وأنهى إلى

أنه سيربط متاعنا جميعه ويلف البطاطين حوله لتتقى به الصدمة عند الهبوط ، وفعلنا ذلك والنوافذ مقفلة لأن المتاع كان لذلك السبب متجمعا كله وسط الكرة ، وكان هذا العمل أيضا غريبا ، فقد كنا كلانا سابحين فى فضاء الكرة نعبئ الأمتعة ونشد الحبال ، وتصور العملية إذا استطعت ، مكان ليس فيه فوق أو تحت ، بل كل مجهود تبذله فيه يتمخض عن حركة غير متوقعة ، فتارة أرى نفسى ملتصقا بالزجاج بكل ما عند كافور من قوة دافعة ، وتارة أخرى أرفس بقدمى فى الفراغ لا ألوى على شيء ، وحينا أرى المصباح الكهربائى فوق رأسى ، وحينا آخر يكون موقعه تحت قدمى ، ولحظة يسبح قدما كافور أمام ناظرى ولحظة أخرى يصنع جسمى مع جسمه صليبا ، على أننا استطعنا رغم ذلك أن نربط أمتعتنا ربطا نطمئن إليه فى غرارة كبيرة لينة ، عدا بطانيتين لها فتحة للرأس تركناهما لنتحف بهما .

ثم فتح كافور نافذة مواجهة للقمر يصلنا عن طريقها بصيص من النور ، فإذا نحن نهبط إلى فوهة بركانية مركزية ظهرت حولها فوهات أخرى تصغرها ، وتؤلف وضعا أشبه بالصليب ، وعمد كافور مرة أخرى إلى تعريض كرتنا إلى أشعة الشمس المحرقة التى تخطف الأبصار ، وأظنه قصد بذلك استخدام جاذبية الشمس بمثابة فرملة ، وأهاب بى أن أغطى نفسى بالبطانية ، ثم قذف نفسه بعيدا عنى ، ومرت لحظة لم أفهم فيها قصده .

فعمدت عندئذ إلى نزع بطانيتى من تحت قدمى ولففتها حول وأسدلتها على رأسى وعينى . وأغلق كافور النوافذ مرة أخرى على حين

مرة ، ثم عاد إلى فتح نافذة واحدة وإغلاقها ، ثم فتحها جميعا فالتفت كل واحدة منها فى غلافها الفولاذى بأمان . وحدث هزة أخذتنا بعدها نتدحرج ونصطدم بالزجاج وبغرارة متاعنا الكبيرة ، ونحن نمسك الواحد بالآخر . وفى خارج الكرة رأينا مادة بيضاء تتناثر وكأننا نتدحرج فوق منحدر الثلج .

وتقفزت كرتنا فتماسكنا ثم اصطدمت وهكذا دواليك — تماسك فتصادم فتقذف إلى أعلى .

وارتطمت فتكدت أدفن تحت غرارة المتاع ، وعقب ذلك فترة سكون خيمت على كل شيء ، ثم استطعت أن أتبين صوت كافور وهو ينفخ ويزوم وسمعت صوت انفتاح النافذة فى غلافها ، واستجمعت قواى فدفعت عنى المتاع الملفوف فى البطانية وزحفت من تحته ، وبدت نوافذنا فى سواد قاتم مرصع بالنجوم .

كنا لا نزال على قيد الحياة ، ولكننا كنا قابعين فى ظلام الظل الذى ألقاه علينا جدار الفوهة البركانية الكبرى التى هوينا فيها .

وجلسنا نستعيد أنفاسنا مرة أخرى ، ونجس الرضوض التى أصابت أطرافنا ، ولا أظن أن أحدنا كان يتوقع تماما ما حل بنا . نهضت واقفا على قدمى وأنا أتألم مما أصابهما ، وقلت لكافور : « والآن نمعن النظر فى أرض القمر ! ولكن .. ما أشد ظلامه يا كافور ! »

وكنت وأنا أكلمه أمسح زجاج الكرة المغطى بالندى ببطانيتى ، فقال : « أمامنا حتى يطلع النهار ساعة ونصف أو ما يقرب من ذلك ، فعلينا الانتظار » .

وكان من الصعب تميز الأشياء ، وكانت رؤيتنا متعذرة كما لو كنا فى كرة من الفولاذ ، ولم أفرغ من مسحى للنافذة بالبطانية إلا تلوث الزجاج ، ولم أكد أنتهى من مسحه حتى عاد معتما مرة أخرى بطبقة جديدة من الندى امتزجت بوبر البطانية التى لم يكن من الواجب استخدامها .

وبينما أنا أنظف الزجاج انزلقت على سطحه المغطى برطوبة الجو فجرحت قصبة قدمى على حافة إحدى اسطوانات الأكسجين التى برزت من غرارة المتاع .

لقد كان الأمر مغيظا سخيفا ، فها قد وصلنا إلى القمر وحللنا فى وسط غرائب لانعرف عنها شيئا ، وكان كل ما رأيناه هذا الجدار الأغبر المعتم ، الذى يحد الفوهة التى نزلنا وسطها .

فقلت : « يا للعنة ! كان يمكننا ونحن نسير بهذه السرعة أن ننزل فى أرضنا » .

وجلست القرفصاء على غرارة متاعنا وأنا أرتعد من البرد فأحكمت لف بطانيتى حولى .

وتحول الندى بسرعة إلى قطع مستديرة صغيرة من الصقيع أشبه بالبرق ، وخطوط طويلة فى شكل سيقان الزهور . وقال كافور : « أتستطيع أن تصل إلى السخان الكهربائى ؟ حسنا ، ذلك الزر الأسود وإلا تجمدنا » .

ولم أنتظر حتى يطلب منى ذلك مرة أخرى ، وقلت له : « وماذا يجب أن نفعل الآن ؟ » .

— انتظر .

— انتظر ؟

— بطبيعة الحال ، علينا أن ننتظر إلى أن يسخن هواء كرتنا مرة أخرى وعندئذ سوف يصفو هذا الزجاج ، ولن نستطيع شيئا إلى أن يتم ذلك . يجب أن ننتظر حلول النهار . ولكن دعنى أسألك فى نفس الوقت : « ألست جائعا ؟ » .

وانقضت برهة لم أجبه فيها على سؤاله ، بل جلست متبرما وحولت وجهى بالرغم منى من اللغز الذى يكمن وراء ذلك الزجاج الملوث ورحت أرنو إليه ثم قلت : « أجل ، أنا جوعان وعندى بعض الشعور بخيبة رجاء شديدة . كنت أتوقع رؤية شىء - شىء لا أعرفه ، ولكنى لم أتوقع قط شيئا كهذا » .

وأسعفتنى فلسفتى . وإذا أنا أعيد ترتيب بطانيتى حولى وأقتعد غرارة المتاع مرة أخرى وأشرع فى تناول أول طعام على سطح القمر . ولا أذكر أنى أتيت عليه كله فقد غاب ذلك عن بالى . وأخذ الزجاج يصفو رويدا فى تلك اللحظة فظهرت عليه بقع نيرة ، أخذت تتسع رقعتها سراعا . ثم انقشع الغمام الذى أخفى القمر عن عيوننا .

ورحنا نجيل النظر فى المناظر التى على أرضه .

الفصل السابع

شروق الشمس على القمر

كان ذلك المنظر عندما وقعت عليه أعيننا لأول وهلة موحشا ومقفرا للغاية . كنا في مدرج هائل هو سهل دائري فسيح يؤلف أرض الفوهة العظمى التي كانت جدرانها تحيط بنا من كل جانب ، وهي جدران تشبه الصخور التي تحف بالبحر . وقد سطع علينا من جهة الغرب ضوء الشمس المحجوبة وامتد ضياؤها إلى أسفل الصخرة . فكشف عن جرف من الصخر الرمادي المائل إلى السمرة يغشاه في جهات متعددة منه كتل وبحيرات من الجليد ، وكان هذا الجرف يبعد عنا اثني عشر ميلا ولم يحل في أول الأمر أي حائل جوي دون رؤيتنا بوضوح وتفصيل تام دقيق ذلك الضياء اللامع الذي عكسته تلك الأشياء علينا وكأنها تحدق النظر فينا ، فقد برزت واضحة تبهر الأنظار على ستار أسود مظلم تغشاه النجوم بدا سواده لأعيننا الأرضية أشبه بستار من المخمل مطرز بالبرق اللامع أكثر منه فضاء سماويا .

أما الصخرة التي في اتجاه الشرق فقد بدت في أول الأمر مجرد حاشية خلوة من النجوم ، تحيط بقية زخرفها ، ولم يسبق بزوغ النهار أي علامة تدل عليه من نور أو ضياء أو احمرار يزحف ويبدأ سوى

الهالة النورانية للبروج السماوية ، ذلك الضباب أو السديم اللامع الذي يظهر في شكل مخروط ضخم يتجه رأسه إلى الأعلى نحو نجم الصباح البهيج فهو وحده الذي أنبأنا بأن الشمس وشيكة الظهور .

أما الأضواء التي كانت تحيط بنا والتي عكستها علينا الصخور المتجهة إلى الغرب فقد كشفت أمامنا سهلا فسيحا متعرجا ذا لون رمادي يميل جزؤه الشرقي إلى السواد بتأثير الظل الأسود القاتم التي تلقيه الصخرة . وأمدتنا بالفكرة الأولى عن بعد جدران الفوهة تلك القمم الرمادية اللون الدائرية التي لا عدد لها . وتلك التلال البادية كالأشباح وكذلك لجج الجليد التي تتصل قننها على امتداد شاسع حتى تتلاشى في الظلمة البعيدة لقد كانت هذه التلال تبدو كالثلوج بحيث خلتها في ذلك الوقت ثلجا ، ولكنها لم تكن سوى أكوام وكتل من الهواء المتجمد .

هذا ما حدث في بداية الأمر ، ثم أقبل النهار القمري بعد ذلك بصورة فجائية سريعة محيرة .

لقد زحف نور الشمس إلى أسفل الصخرة ولمس كتل الجروف التي في قاعها ثم راح يوسع الخطى نحونا ، لا يتبع نهجه شيء . فبدت الصخرة البعيدة وكأنها تتحرك وترتعش . وعندما أقبل الفجر عليها صعدت كمية من البخار الرمادي اللون من قاع الفوهة إلى أعلى مصحوبة بدوامات وأعاصير وأطياف بحلة غبراء أخذت في السمك والاتساع والكثافة إلى أن أصبح السهل الغربي كله مفعما بالأبخرة أشبه بمنديل مبتل موضوع أمام النار ، وأضحت الصخور الواقعة إلى الغرب بريقا منكسرا لا أكثر ولا أقل ، يبدو للعيان من بعيد .

وقال كافور : « هذا هواء . لابد أن يكون هواء ، وإلا لما صعد بهذه الصورة وبهذه السرعة بمجرد ملامسته لشعاع الشمس . . . » .

وسكت عن الكلام ، ونظر فوقه ، ثم صاح : « انظر ! » .

قلت : « ماذا ؟ » .

فاستطرد يقول : « ترى فى السماء وقد بعض وقت طويل ، مسحة من الزرقة . انظر ! هاهى ذى النجوم تبدو أكبر من حجمها . وتلك النجوم الصغيرة والسدم الصغيرة التى رأيناها فى الفضاء الفسيح . قد اختفت ! » .

وأقبل النهار سريعا فى غير تردد ، وقد احتل وهج الشمس تلك القمم الغبراء الواحدة بعد الأخرى ، فأحالها إلى بياض شديد متبخر فلم تعد ترى إلى غرب منا سوى حفنة من الضباب المتدفق والسدم التى تشبه السحب وهى تنساب انسيابا متموجا وتتصاعد . أما الصخرة البعيدة فقد ارتدت إلى الوراء رويدا رويدا ثم لاحت للنظر وقد غيرت العاصفة الدوامة معالمها فانهارت وتلاشت فى آخر الأمر وسط ذلك الاضطراب .

وزاد اقتراب تلك السدم المتبخرة نحونا ، وكانت تندفع فى سرعة كما تندفع أشباح السحب أمام الرياح الجنوبية الغربية . وكان الضباب الرقيق أول شىء يتصاعد حولنا .

وأمسك كافور بيدى ، فقلت له : « ما الأمر ؟ » .

فأجاب : « انظر ! إنه الشروق ! الشمس ! » .

وجعلنى ألتفت خلفى وهو يشير إلى حافة الصخرة الشرقية وقد لاحت

فوق السديم الذى يحيط بنا ، فى حلكة لا تكاد تقل عن حلكة السماء ، ولكن بدت على معالمها أشكال غريبة مائلة إلى الحمرة وألسنة من اللهب الحمراء جعلت تتلوى وتتراقص ، وخيل لى أنها لابد أن تكون أبخرة متصاعدة فى أشكال لولبية ، وقد التفت فى السماء حتى لامست ضوء الشمس شكل القمة ذات الألسنة النارية ، على أن هذا الذى شاهدته لم يكن سوى البهاء الشمسى . هذه الهالة النارية التى تحيط بالشمس والتى يخفيها أبد الدهر عن عيوننا هذا الحجاب الجوى الذى يحيط بأرضنا .

ثم بعد ذلك — الشمس !

وقد أقبلت حتما ودون تردد فى صورة خط لامع وحافة رقيقة من البهاء الذى لا طاقة لنا به واتخذت لها شكلا دائريا ، ثم أصبحت قوسا ثم صولجانا ذهبيا متوهج الضياء ، وسددت إلينا سهما من حرارتها أشبه بالحربة .

وبدت كأنها تطعن ناظرى طعنة حقيقية ، فصرخت بصوت عال وحولت نظرى عنها ورحت ألتمس طريق بطاطينى تحت غرارة الأمتعة وذلك لأنها كانت تذهب ببصرى .

وجاء ذلك الضوء المتأجج مصحوبا بصوت هو أول شىء طرق آذاننا من خارج كرتنا منذ غادرنا الأرض — كان حفيفا ووجيبا وقد نشأ من تحرك الغلاف الجوى ، ذلك التحرك العاصف المقترن بمقدم النهار . وحين خرج هذا الصوت وظهر ذلك الضوء ، ارتجت كرتنا وعبت وبرت ، فترنحنا واصطدمنا الواحد بالآخر فى عجزنا عن عمل

أى شيء . وعادت الكرة إلى الارتجاج مرة أخرى فزاد الضجيج ، واضطررت لإغلاق جفنى وباءت بالفشل كل محاولة منى لتغطية رأسى بيطانيتى ، ولكن الرجة الثانية زحزحتنى عن موطئ قدمى فسقطت على غرارة المتاع فى عجزى عن معالجة الأمر ، وفتحت عينى فوقعت على فكرة عابرة عن الهواء الذى فى الخارج ، لقد كان يجرى ويغلى كما يحدث عندما تلقى فوق الثلج قضيبا محمى بالنار قد ابيض من شدة الحرارة ، ذلك لأن الهواء الذى كان فى حالة الصلابة قد استحال فجأة عند ملامسته الشمس إلى عجينة أو وحلة أو شيئاً مائعاً كالطين جعل يحدث لهيباً وفقاعات وهو يخرج غازا .

ثم دارت كرتنا دورة أشد من سابقتها ، فأمسك الواحد منا بالآخر وبعد لحظات أخرى دارت ثانية حول نفسها ، واستمرت فى الدوران فإذا أنا واقف على قدمى ويدى ، ذلك أن الفجر القمرى قد بافتنا وأراد أن يرينا نحن الرجلين التافهين ما يستطيع القمر أن يفعل بنا .

وألقيت نظرة أخرى على الأشياء التى فى الخارج فإذا البخار يفوح والطين المائع الخارج من الحفر يتزحلق ثم يهوى ثم يتزحلق ، وإذا الظلام يكتنفنا ، فسقطت وركبنا كافور فى صدرى ، وبدا بعد ذلك وكأنه يطير بعيدا عنى ولبثت لحظة وأنا أشعر أن أنفاسى قد خرجت من جسدى ، كل هذا وعيناى تحدقان النظر فيا فوقها فلمحنا صخرة من المواد المتصهرة تتقلب وتتناثر علينا فتتدفق تحتها ، ثم إذا هى ترق وتغلى وتتساقط موادها على كرتنا ، وقد لمحت فقاقيعها ترقص على

الزجاج من فوق رأسى وسمعت كافور يصيح بصوت ضعيف .

ثم أطبق علينا جرف ضخم فى الهواء الذائب . فرحنا نتدحرج على سفح أحد المنحدرات ، ونحن نرغى ونزبد ونحتج ، ثم أخذت سرعة تدحرجنا تزيد ونحن نقفز فوق الفجوات ونثب من جرف إلى جرف فى سرعة متزايدة نحو الغرب لنستقبل قيظ النهار القمرى الصاخب المشتعل باخا .

ورحنا ندور وقد أمسك الواحد بالآخر . . ونتخبط فى جميع الأنحاء ، وكانت غرارة متاعنا تنقذف علينا ثم ترتد ونعود لتنقذف مرة أخرى فكنا نصطدم ونتماسك ونكاد نتمزق شذر مذر ويتلاصق رأسانا ، وقد تمخض الجو بجيمه عن سهام ونجوم ، ولو أن هذا حدث على الأرض لمزق الواحد الآخر عشرات المرات . أما ونحن على القمر ووزننا لحسن الحظ سدسه على الأرض فقد كان ارتطامنا الواحد بالآخر رحيما . وأذكر انى شعرت بغثيان مريع وكأن دماغى انقلب عاليها سافلها داخل جمجمة رأسى ، ثم . .

كان ثمة شيء يحدث فى وجهى ، وملمسان رقيقان يضايقان أذنى فوضعت على عينى منظارا أزرق خفف من شدة ضياء المكان المحيط بنا . وانحنى كافور نحوى فرأيت وجهه مقلوبا عاليه سافله وقد وقى عينيه هو أيضاً بمنظار ملون ، وكان يتنفس بغير انتظام ، وشفته تقطر دما بسبب رضة أصابته . فسألنى وهو يمسح الدم بظهر يده : ألست أحسن حالا ؟ » . . .

وبدا لنا فترة من الزمن أن كل شيء يهتز ، على أن ذلك لم يكن إلا بتأثير الدوار الذي أصابني . ولاحظت أن كافور قد أغلق بعض نوافذ الغلاف الخارجي بكرتنا ليحميني من وهج الشمس المتسلط على فتمكانت جميع الأشياء حولنا تلمع .

وصحت : « يا الله ! ولكن هذا ! »

ومددت عنقي لأنظر فإذا أنا أشاهد في الخارج بريقاً يبهر الأنظار شيء يختلف تماماً عن الظلمة الحالكة التي انطبعت في مشاعرنا في أول الأمر . فسألت كافور : « هل غبت عن وعيي فترة طويلة ؟ »

فقال : « لست أدري . لقد كسر مقياس الزمن (الكرونومتر) . غبت عن وعيك ياصديقي العزيز فترة قصيرة ، وخشيت ... »

ومرت فترة رحت أثناءها أفكر فيما قال فشاهدت دلائل الانفعال مازالت بادية على وجهه . وصمت عن الكلام لحظة ، ومررت يدي على الكدمات التي أصابتني لأعرف مداها وفحصت وجهه بحثاً عن إصابات مشابهة ، فإذا ظهر يده قد نالها النصيب الأوفر فقد انسلخ منه الجلد وتسلخ . وكان جبيني مكدوداً دامياً فناولني قدحاً به بعض الشراب المنعش الذي كان قد جلبمعه وقد غاب اسمه عن بالي ، فشعرت بتحسن بعد قليل وبدأت أتفوه بحرص ولم يمض وقت طويل حتى تمكنت من الكلام .

وقلت له وكأنه لم يكن ثمة فترة استجمام : « ما كان هذا ليكفي »

فقال : « أجل لم يكن ليكفي »

وراح يفكر وقد ارتمت يداه على ركبتيه ، ونظر بعد ذلك خلال الزجاج وجعل يحدق النظر فيّ وقال : « يا إلهي ، لا يمكن أن يكون ذلك ! »

فسألته بعد فترة من السكون : « ماذا حدث ؟ هل قفزنا إلى المناطق الحــــارة ؟ »

فقال : « لقد حدث ما توقعت . لقد تبخر هذا الهواء القمري إذا صح أن نسميه هواء ، ولكنه تبخر على أية حال ، وكشف عن سطح القمر ، وكانت كرتنا مستقرة على حافة صخرة ترابية ، وقــــد انكشفت أمامنا من جميع الجهات تربة عارية ، تربة من نوع غريب »

ورأى أن لا ضرورة للشرح ، وأعانني على اتخاذ وضع رأسي في جلستي ، فتمكنت من المشاهدة بعيني رأسي .

الفصل الثامن

الصباح على القمر

لقد اختفت المعالم الدقيقة للمناظر اختفاء تاماً واتخذ وهج الشمس صبغة عنبرية اللون باهتة . أما الظلال التي انعكست على جدار الفوهة البركانية فكانت ذات لون أرجواني داكن ، ومن جهة الشرق ماثلت غمامة كبيرة سوداء جاثمة تحجب الشمس المشرقة . أما في الغرب فكانت السماء زرقاء صافية ، وبدأت أدرك كم من الزمن طال إغمائي ؟

ولم نعد نعيش في فراغ فقد أحاط بنا نوع من الأجواء ، وبدأت الأشياء تبدو لنا معالمها وتخلو عن صفاتها وتتحدد وتتنوع ، ذلك إذا استثنينا مساحة تغشاها مادة بيضاء في جهات متفرقة منها ، مادة لم تعد هواء وإنما كانت جليدا ، وقد اختفت منها مظاهر المنطقة القطبية اختفاء تاماً ، وكنت ترى في كل مكان مساحات واسعة ذات لون بني صدئ من التراب المنساب معرضا لوهج الشمس ، وقد انتشرت على حافة الجروف الجليدية برك صغيرة ودوامات مائية عابرة كانت الأشياء الوحيدة التي شذت عن ذلك التيه الجدب . وغمر ضوء الشمس نافذتي كرتنا العلويتين وأحال مناخنا إلى صيف قائظ ، رغم أن أقدامنا كانت لا تزال في منطقة الظل وكرتنا في مستقرها على الجرف الجليدي .

وقد انتشرت على ذلك المنحدر أشكال أشبه بالعصي ، تميزت بخيوط صغيرة بيضاء من الجليد المتجمد قامت على الجزء الذي تقع عليه ظلالها . وكانت عصياً جافة ملتوية لها لون الصخور التي برزت منها . واسترعت أشكالها تفكيرنا العميق . يالها من عصي ، على عالم خال من الأحياء !

وعندما اعتادت عيني بعد ذلك على تركيب مادتها ، لاحظت أن البقعة يكاد يغطي سطحها جميعه ذلك النسيج الوبري الذي يشبه بساطا من الأشواك الصغيرة البنية اللون التي يجمعها الإنسان في ظلال أشجار الصنوبر .

وصحت بكافور ، فقال : « نعم » فقلت : « قد يكون هذا العالم بلا حياة الآن ـ ولكن حين ـ » .

واسترعى انتباهي شيء ألجم لساني ، فقد اكتشفت وسط تلك الأشواك الصغيرة عددا من الأشكال المستديرة ، وخيل لي أن أحدها بدأ يتحرك .

فهتفت لكافور ، فقال لي : « ماذا » .

ولكني لم أجبه فوراً بل رحت أصوب نظري إليها غير مصدق ، ومرت برهة عجزت فيها عن تصديق ناظري ، وأرسلت صيحة مبهمة ممسكا بذراعه ومشيراً إلى ذلك الشيء . واستطعت أن أحرك لساني فقلت له : « انظر هناك . نعم ، وهناك أيضا » .

وتابعت عيناه أصبعي ، وهو يشير إلى تلك الجهة ، فصاح متعجباً .

وكيف لى أن أصف ما رأيت ؟ إنه لأتفه من أن يذكر .

ولكنه مع ذلك بدا شيئاً عجيباً مثيراً للمشاعر . قلت إن وسط تلك الأشواك الصغيرة كانت تكمن أجسام مستديرة ، أجسام بيضاوية الشكل ، يسهل على المرء أن يخطئها فيظنها حصى ، وها هى الآن تتحرك ، الواحدة بعد الأخرى وتتدحرج وتتشقق ، وقد ظهر فى أسفل شق كل منها خط صغير ذو لون أخضر مائل إلى الصفرة ، وانبثق يستقبل حرارة الشمس المشرقة المنعشة وظل هذا الشىء مسيطراً على مشاعرنا لحظة ، وإذا بشىء ثالث يهم ويتحرك !

وصاح كافور : « إنها حية » ثم سمعته يهمس بصوت خافت « حياة ، حياة ! » وسرعان ما استولت علينا فكرة بأن رحلتنا الطويلة هذه لم تكن عبثاً ، وإننا لم نأت لنرى مساحات من الأرض الجدبة الملأى بالمعادن ، بل إلى عالم فيه حياة وحركة . ورحنا نراقب الأشياء مراقبة شديدة وأذكر أنى واظبت على مسح الزجاج الذى أمامى بأكمامى ، كارها أن يحجب عنى الرؤية ظل من الضباب .

كانت الصورة واضحة ناطقة فى وسط تلك البقعة فحسب أما جوانبها فقد بدا جميع ما عليها من ألياف وحبوب ميتة مكبرا مشوشا بسبب انحراف الزجاج واستدارته . على أن ما رأيناه كان يكفى ، فقد راحت تلك الأجسام البنية الصغيرة العجيبة على ذلك المنحدر المنير تنبثق وتتفتح الواحد بعد الآخر كما تفعل أكمام البذور وأغلفة الثمار . لقد فغرت أفواهها الظمأى لترتشف الضوء والحرارة المنبعثين من الشمس المشرقة حديثا وكأن أشعتها مساقط مياه .

وما فتئت مجموعات أخرى من تلك البذور تتفتح وينشق عنها غلافها بمضى الزمن ، فى الوقت الذى كانت فيه أخواتها التى سبقتها إلى هذا التفتح تقطع مرحلتها الثانية من النمو . فيلتئم بجال تفتحها حتى لتطغى على غلافها المنشق . وراحت هذه البذور ، التى تمتاز لها الفلقة ، تمد لها جذراً ضئيلا فى الأرض وتطلق فى الهواء برعما عجيباً صغيراً أشبه بالحزمة ، كل ذلك بانتظام وطمأنينة وتؤدة ، وبعد فترة وجيزة اكتسى المنحدر كله بنباتات وقفت متأهبة لتحية أشعة الشمس المتوهجة .

على أن وقوفها لم يدم طويلا ، فقد انتفخت تلك البراعم التى تشبه الحزم وتمطت وتفتحت وهى تهتز ، فانبثق منها إكليل من الرءوس المسننة الصغيرة التى نشرت حولها حلقة من الأوراق الشائكة الصغيرة ذات لون بنى باهت أخذت تستطيل بسرعة وبشكل ظاهر ونحن نراقبها. وكانت حركتها أبطأ من حركة أى حيوان وأسرع من أى نبات شاهدته عينى من قبل . كيف يمكننى أن أعطيك فكرة عنه ، أو أشرح لك طريقة نموه ؟ لقد كانت رءوس الأوراق تنمو وتتمدد ونحن نراقبها وكان غلاف البذور البنى اللون ينكمش ويمتصه النبات بالسرعة ذاتها . هل تناولت مقياس الحرارة فى يوم بارد وضممت يدك الباردة عليه وشاهدت خيط الزئبق الرفيع يزحف إلى أعلى داخل الأنبوبة ؟ لقد كانت النباتات القمرية تنمو بالطريقة ذاتها .

وفى دقائق معدودة كما بدا لنا الأمر أخذت براعم النباتات المتقدمة فى النمو تستطيل حتى أصبحت جزعا وأخذت مع ذلك تنبت حلقة أخرى من الأوراق ، وذلك المنحدر الذى كان يبدو إلى وقت قريب

قطعة من الأرض المقفرة التى لا حياة فيها امتلأ بالأعشاب الصغيرة الزيتونية اللون ذات الرءوس الشائكة المهتزة لشدة نموها .

ورحت أجيل النظر حولى ، وإذا على الحافة العليا لإحدى الصخور التى تقع جهة الشرق أعشاب تشبه الأولى ولا تكاد تقل عنها امتداداً ، بدت راكنة وجعلت تهتز فى وهج الشمس الخاطف للأبصار ، وظهر وراء تلك الأعشاب خيال أسود عكسته كومة من النبات يشبه الصبر أخذ يتشعب دون انتظام ويتفخ بشكل ملحوظ وكأنه حوصلة يملؤها الهواء .

وفى الجهة الغربية اكتشفت نوعاً آخر من هذه النباتات المتمددة بارزاً من بين الحشائش ، وكان الضوء يسطع على جوانبه اللامعة فاستطعت أن أتبين لونه البرتقالى الناصع ، وكان الناظر إليه يراه يكبر بحيث إذا حول الإنسان نظره عنه لحظة ثم عاد ينظر إليه مرة أخرى ، تغيرت معالمه ، كانت تخرج منه فروع منتفخة كليلة تحمله فى وقت قصير يبدو فى شكل مرجانى مرتفع عن الأرض عدة أقدام ، فإذا قسنا نمو هذا الزرع بنمو الفطر الأرضى الذى ينتفخ كالكرة ويطول قطره قدما فى الليلة الواحدة ، لعد ذلك النبات متقاعساً لا حول له ولا قوة . على أن الفطر الكروى ينمو عنه قوة جاذبة تعادل ست أضعاف جاذبية القمر . وظهرت خلف ذلك النبات من بين الأغوار والمنبسطات التى خفيت عن عيوننا ولكنها لم تخف عن عين الشمس المسارعة ، وفوق الأحجار وامتداد الصخور ، خصلة كثيفة الشعر لنبات لحيم ذى رءوس شائكة جعل يتناضل حتى بدا للعين وأخذ يسرع فى جلبة يتهز فرصة

النهار القصير الذى يتحتم عليه أن يزهر فيه ويثمر ويخرج البذور ويموت . كان نموه هذا أشبه بمعجزة . وعلى الإنسان أن يتخيل أن الخليقة الأولى كانت على هذا المنوال ، حين نمت الأشجار وترعرعت وملأت القفر على الأرض الناشئة . تخيله ! تخيل ذلك الفجر ، وانبعاث الهواء المتجمد ونشاط التربة وسرعة حركتها ، ثم انبثاق الزروع بهدوء ، وطلوع ذلك الفطر اللحيم برءوسه الشائكة ، الذى لا نظير له على الأرض . تأمل هذه جميعها وقد سطع عليها وهج بعد أمامه أشد إشراق شمس على الأرض ضعيفاً مائعاً . ومع ذلك فأينما وجد ظل حول تلك الأجمة الحية الناضجة ، تراكمت عليه جروف من الجليد ذى لون مائل إلى الزرقة . وإذا أراد الإنسان أن يلم إلماماً تاماً بالصورة التى انطبعت فينا فعليه أن يذكر أن رؤيتنا لها كانت خلال زجاج كرتنا المائل الذى شوهها كما يشوه أى شىء ينظر إليه خلال عدسة . ولكنها كانت مع ذلك صورة حادة قوية فى وسطها وشديدة البريق أما حافتها فقد كُبّرت وأضحت لا تعبر عن الحقيقة .

الفصل التاسع

بدء البحث والتنقيب

أمسكنا عن النظر والتفتنا الواحد إلى الآخر وأعيننا تنم عن الأفكار والأسئلة ذاتها . فلكى تنمو تلك الزروع وتترعرع لابد من وجود قدر من الهواء وإن يكن رقيقاً نستطيع نحن أيضاً أن نستنشقه .

وقلت له : « أتعنى ما على الكوة ؟ »

— أجل . إذا كان ما نراه عليها هواء .

— سوف تكبر هذه الزروع فتصبح بعد قليل فى طولنا نحن .

ولنفرض — دعنا نفترض بعد كل ذلك — ولكن هل هذا مؤكد ؟ ما أدرانا بأن هذه المادة هواء ؟ قد تكون أزوتاً أو لعلها أكسيد الكربون !

فقال : « الأمر سهل » وراح يبرهن عليه . فأخرج من خزانة الأمتعة قطعة كبيرة مخشنة مطبقة من الورق وأشعل فيها النار ، ثم ألقى بها سريعاً إلى الخارج خلال صمام الكوة ، وملت إلى الأمام لأنظر إليها من خلال زجاج الكرة السميك ، وإلى اللهب الصغير الذى يتوقف الشىء الكثير على ما سيأتى به من أدلة .

وشاهدت الورقة تهوى وتستقر خفقة على الجليد . وتلاشى اللهب

الوردى الذى أحدثه احتراقها . وبعدت فترة ما وكأنها قد انطفأت ، ولكن إذا بى أرى على حافتها لساناً صغيراً أزرق اللون أخذ يرتعش ويرتجف وينتشر .

واسودت الورقة بهدوء ما عدا الجزء الذى لامس الجليد مباشرة ، ثم انكمشت وتقلصت وراحت ترسل خيطاً مرتعشاً من الدخان . لم يعد أمامى شك فى أن جو القمر كله أكسجين خالص أو هواء . ومن ثم يصلح للحياة للغرباء عنه . فيمكننا أن نخرج من كرتنا ونعيش !

وجلست واضعاً ساقى على جانبى الطاقة ، وتأهبت لفك المسامير اللولبية عن بابها ولكن كافور أوقفنى وقال : « يجب أولا أن نتخذ احتياطاً صغيراً » وبين لى أن جو القمر قد يكون من الرقة والقلة بحيث يسبب لنا ضرراً رغم أن به أكسجين ، وراح يذكرنى بالمرض الذى يصيب متسلق الجبال . والنزيف الذى يتعرض له الطيارون الذين يرتفعون بطائراتهم بأسرع مما يجب عليهم ، ثم قضى بعض الوقت ، وهو يحضر شراباً كريه المذاق أصر على أن أشاركه فيه ، فأشعرنى الشراب بأنى خدر بعض التخدير . لكنه لم يكن له أى تأثير آخر على ، وعندئذ سمح لى بأن أبدأ فى فك باب الكوة .

وسرعان ما فك غطاء الكوة إلى الدرجة التى سمحت بتسرب الهواء الداخلى الذى يزيد كثافة عن الهواء الخارجى ، خلال فتحة المسمار اللولبى ، فأخذ يتسرب منها نشيش كنشيش الماء على النار قبل أن يغلى . وعندئذ طلب إلىّ أن أوقف فك بقية المسامير ، إذ اتضح لنا فى الحال

أن الضغط الجوى فى الخارج يقل عنه فى الداخل ، ولم تكن لدينا وسيلة لمعرفة مقدار هذه القلة .

وجلست أمسك بالغطاء بكلتا يدى على أهبة إغلاق الكوة مرة أخرى رغم ما كان يراودنا من أمل كبير ، وذلك إذا اتضح لنا فى النهاية أن هواء القمر أرق من أن نتحمله . وجلس كافور وفى يده اسطوانة تحتوى على الأكسجين المضغوط يعيد لنا الضغط الداخلى كما كان . وجعلنا ننظر الواحـــد إلى الآخر فى صمت ثم نحول نظرنا إلى النبات الغريب فى الخارج وهو يهتز وينمو بهدوء بشكل باد للنظر ، ودون أن ينقطع الصفير الحاد من فوقه .

وبدأت الأوعية الدموية فى أذنى تنبض بشدة وتلاشت الأصوات التى كانت تنجم عن تحرك كافور ، ولاحظت الهدوء والسكون الشاملين وقد خيما على كل شىء بسبب رقة الهواء .

وكان هواؤنا الداخلى يتسرب إلى الخارج فيحدث ذلك الصفير خلال فرجة المسمار الولبى ، فيتكاثف بخار الماء الذى يحتويه فى شكل فقاقيع صغيرة .

وشعرت لوهلة بضيق تنفس غريب استمر فى الواقع طيلة الزمن الذى تعرضنا فيه لجو القمر الخارجى ، وزيادة على ذلك انتابنى إحساس حول أذنى وفى أظافرى ومؤخرة حلقى ، استرعى انتباهى لحظة ثم اختفى ولكنه أزعجنى بعض الإزعاج .

ثم انتابنى دوار وغثيان أحدثا تغييراً فجائياً فى نوع الشجاعة التى

كانت لى وأدرت غطاء الكوة نصف دورة ثم شرحت الأمر لكافور ، وكان فى تلك الآونة يفوقنى حيوية ونشاطـاً ، وأجابنى بصوت بدا لرقة الهواء بعيداً خافتاً بصورة غير عادية . فأشار على بتناول جرعة من البراندى وأخذ هو جرعة ضارباً لى بذلك مثلا ، وسرعان ما شعرت بتحسن وأدرت غطاء الكوة كما كان ، فزاد نبض الأوعية الدموية التى فى أذنى ، ولاحظت انقطاع الصفير والقبقبة الهوائية ، ورغم ذلك ظللت فترة من الوقت وأنا غير متأكد من انقطاعه .

وقال كافور بصوت أشبه بصوت الأشباح : « ثم ماذا ؟ » .

فرددت عليه : « ثم ماذا ؟ » .

— هل نستمر ؟

— أهذا كل ما فى الأمر ؟

قلتها بعد تفكير ، فأجاب : « إذا استطعت تحمله » .

وكان ردى عليه استمرارى فى فك الغطاء ، ورفعت الغطاء المخروطى المستدير من مكانه ووضعته بعناية فوق غرارة المتاع ، فدارت ندفة من الثلج ، أو ندفتان ، وتلاشتا حين احتل كرتنا ذلك الهواء الرقيق غير المألوف وجثوت ثم جلست على حافة الكوة ورحت أنظر من فوقها فشاهدت الجليد القمرى الذى لم تطأه قدم بعد على مسافة ياردة من وجهى .

ومرت فترة هدوء قصيرة الأجل ، تقابلت أثناءها نظراتنا ، فقال لى كافور : « لعله لا يضايق رئتيك كثيراً ؟ » .

فقلت : « كلا ، أستطيع تحمله » .

ومد يده بحثاً عن بطاريته، ووضع رأسه داخل الفتحة الوسطى التي بها ثم التف بها. وجلس بعد ذلك على حافة الكوة وألقى بساقيه خارجها فكانتا يعلوان ست بوصات عن أرض القمر. وتردد لحظة ثم مال إلى الأمام وقطع البوصات الست. وهبط على الأرض التي لم تطأها قدم قبله.

وفيما هو يخطو إلى الأمام انعكست صورته انعكاساً غريباً بسبب انكسار الضوء على حافة الزجاج، فتوقف لحظة ينظر ذات اليمين وذات اليسار ثم تحفز ووثب.

وقد شوه الزجاج كل شيء. فاتخذت تلك الوثبة على ما بدا لي حجماً كبيراً للغاية فأصبح بعد قيامه بها على مسافة بعيدة بدت وكأنها عشرون أو ثلاثون قدماً. واستقر واقفاً على كتلة صخرية ثم جعل يتحرك عائداً نحوي ولعله كان يصيح غير أن صوته لم يصلني. ولكن كيف استطاع هذا الشيطان أن يفعل ذلك؟ لقد شعرت في تلك اللحظة بأنه يقلد حيلة جديدة من الحيل التي يأتيها الحواة والمشعوذون.

وهبطت أنا أيضاً من الكوة، في حيرة ذهنية. ووقفت وإذا الجرف الجليدي الذي كان أمامي يهوي بعيداً عني وتحدث حفرة في الأرض فخطوت خطوة وقفزت، فإذا أنا سابح في الهواء. وإذا الصخرة التي كان واقفاً عليها تقترب مني، فتشبثت بها وتعلقت وأنا في حيرة لا حد لها.

وأرسلت ضحكة موجعة، فقد كنت في اضطراب شديد، وجعل كافور

يتخطى ويصيح بأصوات تصفيرية طالباً مني أن أتخذ حيطتي.

وسهى علي أن وزني على القمر يكاد يعادل سدسه على الأرض وذلك لأن كتلة القمر تعادل ثمن كتلة الأرض وقطره الربع، وقد تأكدت لي هذه الحقيقة واستقرت في ذهني عندئذ.

وأخذ كافور يقول: «نحن الآن خارج نطاق جذب أمنا الأرض لا تربطنا بها أية رابطة».

واتخذت حيطتي وأنا أرفع نفسي بمشقة إلى سطح الصخرة، ورحت أتنقل عليها في حرص يشبه حرص المريض بداء النقرس، إلى أن صرت إلى جانبه تحت وهج الشمس، وكانت الكوة خلفنا على جرفها الجليدي المتضائل على مسافة ثلاثين قدماً منا.

كانت الصخور التي تغشى أرض الفوهة إلى أبعد ما تصل إليه العين، في اضطراب هائل، ملأى بالأدغال المقصوصة النمو التي كانت تحيط بنا والتي راحت تجد إلى الوجود في أشكال متنوعة متناثرة في كل مكان، فكان منها الكتل المتبعجة التي تحاكي الصبار والحزاز الصخري في ألوانه القرمزية والأرجوانية، وقد أخذ ينمو سريعاً حتى بدا وكأنه يزحف فوق الصخور. لقد بدت لي تلك البقعة جميعها وإلى سفح التل الخلفي وكأنها برية متشابهة.

وكان هذا التل على ما يبدو عارياً من النبات ما عدا قاعدته. وكانت تغشاه الأسوار والمصاطب والمتاريس، التي لم تسترع اهتماماً شديداً منا في ذلك الحين. وكانت تمتد في جميع الاتجاهات إلى مسافات بعيدة

تقاس بالأميال ، وخيل إلينا أننا في وسط الفوهة تقريباً ، تلك الفوهة التي رأيناها خلال غمامة تسوقها الريح ، فقد كانت هناك ريح في ذلك الحين ، وسط ذلك الهواء الرقيق ، ريح سريعة ولكنها ضعيفة ، ريح أرسلت إلينا برودة شديدة رغم أنها كانت قليلة الضغط ، وكانت على ما يبدو تهب حول الفوهة في اتجاه الجانب النير الساخن ، من وسط ضباب الظلمة الكائنة تحت الجدار المواجهة للشمس ، وكان من الصعب علينا أن ننظر خلال الضباب الممتد من الشرق ، فكان لابد لنا أن ننظر إليه من تحت أكفنا وقد وضعنا على أعيننا المقنعة بعض الإغماض ، وذلك لحرارة الشمس البالغة الشدة الواقفة في مكانها لا تتحرك .

وقال كافور : « يبدو أن هذا المكان مهجور مقفر للغاية » .

فعدت أجيل النظر فيما حولي وأودني خيط من الأمل بالعثور على دليل لوجود مخلوق شبيه بالبشر أو برج بناء أو منزل أو آلة ، ولكن أينما استقر نظر الإنسان لم يجد سوى الصخور المتساقطة متناثرة في شكل قمم ورءوس تلال ، وسوى الكلأ النابت والصبار المتبعج وهو لا يفتأ ينتفخ ويتورم ، ويزيل كل أمل لي بوجود الحياة .

وقلت : « يبدو أن هذه النباتات قد احتفظت بالحياة لنفسها فحسب لأني لا أجد أثراً لمخلوقات أخرى . »

فأجابني كافور : « لا وجود لحشرات أو طيور أو . . . لا أثر للحياة الحيوانية ، لا قشرة أو ذرة منها . ولو وجد شيء منها فماذا هي فاعلة في الليل ؟ كلا . ليس ثمة شيء سوى هذه النباتات وحدها . »

ووقفت جانبه في وهج الشمس

وظللت عيني بيدي وأنا أتكلم : « إنها أشبه بأرض الأحلام . فهذه الأشياء أقل شبها بنباتات الأرض من تلك التي يتخيل الإنسان وجودها بين الصخور في قاع البحر . انظر إلى التي هناك ، يخيل للانسان أنها عظاية وحلية ، قد تحولت إلى نبات ، ثم انظر إلى ذلك البريق ! »

وقال كافور : « ما هذا إلا الصباح الجديد » .

وتنهد وهو ينظر حوله ، ثم أنشأ يقول : « لا يصلح هذا العالم القمري للناس . ولكن له رغم ذلك ، بطريقة من الطرق مايجتذبهم إليه » .

ولزم الصمت برهة ثم عاد إلى تأملاته وخواطره .

والتقطت من لمسة رقيقة وإذا أنا أرى ورقة رقيقة من نبات الحزاز الصخرى الداكن اللون تفترش حذائي ، فنفضتها عنى فتناثرت مسحوقاً سرعان ما أخذت كل ذرة منه تنمو من جديد .

وطرقت أذني صيحة حادة من كافور ، فقد وخزه رأس مدبب يشبه الحربة لأحد تلك النباتات .

فتردد لحظة وراح يجيل بصره في الصخور التي حولنا ، وإذا وهج وردى اللون يظهر فجأة ويتسلق عموداً من الصخر الخشن الناتىء ، لقد كانت نبتة قرنفلية غاية في الغرابة ، لها لون قرمزي داكن .

والتفت أقول : « انظر » ولكنه كان قد اختفى .

فوقفت لحظة كمن سحر في مكانه ، ثم اتخذت خطوة سريعة لأنظر من فوق حافة الصخرة . وفي دهشتي لاختفائه نسيت مرة أخرى أننا على القمر . إن تحريك قدمى وأنا أسرع الخطى على الأرض لينقلني ياردة

من مكاني . أما وأنا على القمر فقد نقلتني تلك الخطوة الواحدة ست خطوات ، وأبعدتني خمس ياردات من فوق الصخرة . وكان أثرها يشبه الكابوس حين يشعر الإنسان أنه يهوى ثم يهوى ، وذلك لأن الإنسان حين يهوى على الأرض ستة عشر قدما في الثانية الأولى ، يهوى على القمر قدمين لأنه لا يحمل إلا سدس ثقله فقط . فعندما هويت أو بالأحرى قفزت إلى أسفل نحو عشر ياردات على ما أظن بدا لي أن سقوطي استغرق زمنا طويلا أظنه خمس ثوان أو ست . وسبحت في الهواء وسقطت كريشة إلى عمق الركبة ، في جرف جليدي في قاع أخدود ذى لون أغبر مزرق ، تعترض صخوره خطوط بيضاء .

وأجلت البصر حولي وأنا أنادي كافور ولكنني لم أعثر عليه وعدت أناديه بصوت أعلى من ذي قبل ، فرددت الصخور صدى صوتي وتحولت في شراسة إلى الصخور وتعلقت بقمتها ثم رحت أنادي : كافور كافور ، فكان رنين صوتي أشبه بثغاء . حل حل طريقه وغابت الكرة عن ناظرى فانتابني وقتا ما شعور بالوحدة ، اعتصر فؤادى .

ثم وقع نظرى عليه . كان يضحك ويأتي بحركات ليسترعي انتباهي . كان واقفا على قطعة من الصخر تبعد عني نحو عشرين أو ثلاثين ياردة لم أتمكن من سماع صوته ولكن حركاته كانت توحي إلى بأنه يريدني أن أقفز . وترددت لأن المسافة بدت لي شاسعة ، ومع ذلك تأكد لي بعد تفكير أنني لابد قادر على قطع مسافة أكبر من مسافته .

ورجعت خطوة إلى الوراء ثم أخذت أهبتي ووثبت بكل ماوسعني من قوة وحيل إلى أن انطلقت عاليا في الجو ولن أعود ثانية إلى الهبوط

كان تحليق في الجو بهذه الطريقة مفزعا ومبهجا وكان أيضا وحشيا كالكابوس . وأدركت أن وثبتي كانت عنيفة جدا فقد حلقت في الجو فوق رأسه تماما . وشاهدت في أحد الأخاديد خليطا من الأشواك امتدت فروعه لتقابلني في موضع سقوطي فأرسلت صرخة مفزعة وبسطت يدي ومددت ساقي .

وسقطت على كتلة ضخمة من نبات الفطر انفلق لها وتناثر حولي مرسلا بذوره البرتقالية اللون في جميع الجهات ، فغطاني هذا المسحوق البرتقالي وإذا أنا أتدحرج وأغمغم ، وعندما أثوب إلى رشدي أتفجر ضاحكا حتى تكاد تنقطع أنفاسي من شدة الضحك .

وشعرت بوجود كافور وهو يختلس النظر إلى وجهه الصغير المستدير من فوق أحد الأعشاب الكثة ، وصاح صيحة خافتة يستفسر عني ، فحاولت أن أرد على صيحته لأعرف ما يريد ، ولكن الصياح تعذر علي بسبب فقداني القوة على التنفس ، فسار نحوي بحذر وسط الأعشاب .

وقال : « يجب أن نحترس لأنفسنا ، لأن هذا القمر لا حائط له ، وسوف يؤدي بنا إلى تدمير أنفسنا » .

وأعانني على النهوض ، ثم عاد يقول وهو يربت بيده على لينفض المادة الصفراء عن ثيابي : « لقد أجهدت نفسك إجهادا شديداً » .

ووقف يلهث في صمت وتركته ينفض المادة الهلامية عن ركبتي ومرفقي ، وبلق على محاضرة عن مصائبي : « إننا لم نحسب حساب

الجاذبية جيدا وعضلاتنا لم تهذب بعد ، فلنتدرب على ذلك قليلا بعد أن تستعيد أنفاسك » .

ونزعت من يدي شوكتين أو ثلاث أشواك واقتعدت لحظة جلمودا من الصخر ، وعضلاتي ترتعش ، وانتابني شعور يقيد الوهم عن نفسي ، وهو ما يشعر به المبتدىء في تعلم ركوب الدراجة على عالمنا الأرضي عندما يسقط عنها لأول مرة .

وجال بخاطر كافور أني بعد تعرضي لحرارة الشمس قد أصاب بالحمى بسبب الهواء البارد المنبعث من الأخدود ، لذلك تسلقنا الصخرة وعدنا ثانية إلى حيث تشرق الشمس . ووجدنا إني لم أصب بجروح خطيرة من جراء سقوطي ، إذا استثنيت بعض السحجات القليلة . ورحنا — جريا على اقتراح كافور — نبحث فورا عن مهبط أمين سهل الوثبة التالية ، فوقع اختيارنا على سطح صخري يبعد عنا نحو عشر ياردات وتفصله عنا غابة صغيرة من العيدان الخضراء الزيتونية .

وقال كافور وهو يتخذ سمات المدرب ويشير إلى بقعة تبعد أربعة أقدام من أصابع قدمي : « تخيل أن ذلك المسطح في هذه البقعة » . ولم أجد صعوبة في تخيل تلك الوثبة ، ويجب أن أعترف بأني شعرت بشيء من الارتياح للخطأ الذي وقع فيه كافور في تقديره للمسافة فيما يقدر بقدم أو ما يعادله ، وتذوقه أسنان تلك الأعشاب . واتقى يقول ، وهو ينزع الأشواك عنه : « ها أنت ترى أنه يجب على الإنسان أن يكون حريصاً » ، وعلى ذلك تخلى كافور عن دور الناصح وأصبح الزميل المتعلم مثلي فيما يتعلق بالتنقل على القمر .

واخترنا مكانًا آخر للوثوب أسهل من سابقه وأدينا الوثبة دون صعوبة، ثم وثبنا راجعين إلى مكاننا وأعدنا الكرة مرات عديدة ونحن نعود عضلاتنا على المقياس القمرى الجديد. وما كنت قط لأصدق السرعة التى كيفنا عضلاتنا لها لو لم أختبر الأمر بنفسى، وهكذا استطعنا بعد وقت قصير، وبعد أن قنا بما لا يزيد على الثلاثين وثبة على وجه اليقين، أن نحسب المجهود اللازم بذله لنقطع مسافة ما على القمر بما يكاد يعادل الدقة التى تعودناها ونحن على سطح الأرض.

وكانت النباتات القمرية طيلة هذا الوقت آخذة فى النمو من حولنا، وهى تزداد ارتفاعًا وكثافة وتشابكًا. وفى كل لحظة تم تظهر نباتات أخرى تفوق الأولى طولا وحجمًا، نباتات ذات رءوس مسننة، وكتلا من الصبار الأخضر ومن الفطر والحزاز الصخرى، وأغرب الأشكال إشعاعًا وتعرجا والتواء. ولكننا كنا قد عقدنا النية على القفز فلم نلتفت إلى نموها الذى لا يكل.

وتملكنا زهو غريب، وأظن أن ذلك يرجع بعضه إلى إحساسنا بتحررنا من الحبس الذى كنا فيه داخل الكرة، ويرجع هذا إلى لطف الهواء الذى استطيع أن أجزم بأنه يحتوى على قدر من الأكسجين أكبر مما يحتويه جو الأرض وكنت أشعر رغم الغرائب المحيطة بنا، بروح المخاطر المجرب، شأنى فى ذلك شأن المتدرب الفج الذى يجد نفسه بين الجبال لأول مرة، ولا أظن أنه خامرنى أو خامره شعور كبير بالخوف رغم أننا كنا نجابه المجهول.

لقد كانت روح الإقدام تحفزنا. ووقع اختيارنا على تل صغير

يعلو عليه حزاز الصخر ويبعد عنا نحو خمسة عشر قدما، فهبطنا على قمته تماما الواحد بعد الآخر. ورحنا نصيح الواحد للآخر: «حسنا! حسنا!» وخطا كافور خطوات ثلاث، ثم قصد إلى منحدر جليدى أغبر، يبعد عنا نحو عشرين ياردة أو يزيد. ووقفت لحظة مدهوشا للجهد الداعى إلى الضحك الذى بذله شبحه المحلق فى الهواء. وعلى رأسه كمة قذرة كالتى يلبسها لاعبو الكريكت، وشعره منتصب كالحراب، وبدنه المستدير الصغير وذراعاه وساقاه المتغرسان فى سرواله القصير وقد أحكم قطبه عليهما، أقول دهشت وأنا أرى شبحه منعكسا على هذا الستار القمرى فى اتساعه الغريب. وعند ذلك أخذتنى نوبة من الضحك، ومع ذلك لحقت به. وسمعت صوت سقوطى وأنا أهبط إلى جانبه.

وسرنا خطوات عملاقة واسعة وثبنا بعدها ثلاث وثبات أخرى أو أربعة وجدنا أنفسنا فى نهايتها جالسين فى فجوة يحتلها نبات الحزاز الصخرى. وشعرنا بألم فى الرئتين جعلنا نمسك بخاصرتينا لنستعيد أنفاسنا، وتبادلنا نظرات تنم عن تقديرنا الواحد للآخر، وبدأ كافور الكلام وهو يلهث فذكر شيئا عن «إحساسات غريبة». فخطر ببالى عند ذلك خاطر، لم يبد فى بداية الأمر مخيفا، بل كان مجرد سؤال طبيعى حفزته الحالة التى كنا فيها.

قلت له: «بهذه المناسبة. أين كرتنا؟».

فنظر إلىّ وقال: «ماذا؟».

حزّ فى نفسى المعنى الكامل لما كنا نتحدث فيه. وصحت وأنا أضع يدى على كتفه: «أين الكرة يا كافور؟».

الفصل العاشر

رجلان يضلان السبيل داخل القمر

وانتقل إلى وجه كافور بعض أمارات الرعب التي بدت على، فوقف ينظر إلى دغل الأعشاب التي قامت سياجا حولنا وراحت تتمطى وتستطيل في نوبة نمو وتحيط بنا ووضع يده على شفتيه في تردد وقال بنبرات بطيئة تدل على أنه فقد فجأة ما كان يشعر به من اطمئنان: «أظن أننا تركناها ... في مكان ما ... قرب ذلك الموضع».

وأشار إلى المكان بأصبع متردد، راح يرتعش في شكل قوس.

وتابع حديثه وقد أخذ الرعب منه كل مأخذ، فقال: «لكنني غير متأكد، ثم استقرت عينه على وقال متمما حديثه: «على أنها لا يمكن أن تكون بعيدة عنا».

وكنا قد نهضنا ورحنا نأتي بحركات لا تدل على شيء، وجالت عيننا تبحث خلال الأجمة الكثيفة المتشابكة المحيطة بنا.

وكانت المنحدرات المحدقة بنا يغمرها نور الشمس وتموج بالأحراش النابتة المتراصة والصبار المتفتح والحزاز المتسلق ولكن حيثما وجدت الظلال تراكمت الجروف الجليدية. وكانت النباتات غير المألوفة تنتشر

شمالا وجنوبا وشرقا وغربا في أشكال واحدة رتيبة. وقد دفنت كرتنا في مكان ما وسط هذا الاضطراب النباتي المتشابك، كرتنا التي هي بيتنا ومؤونتنا الوحيدة وأملنا الفريد في الهروب من هذه البرية الخيالية التي نزلنا بها والتي تنمو فيها النباتات بين يوم وليلة.

وأشار كافور فجأة إلى أحد المواضع وقال: «يخيل إلى بعد كل ذلك أنها هناك».

فقلت: «كلا. لقد كنا نسير في خط منحن. أنظر! هذه آثار أقدامي. ومن هذا يتضح أنها لا بد أن تكون شرق هذا الموضع، شرقيه إلى مسافة بعيدة كلا! لابد أنها هناك».

— أظن أني كنت محتفظا بموضع الشمس عن يميني طيلة الوقت.

— يلوح لي أن خيالي كان يحلق أمامي عند كل وثبة وثبتها.

وتبادلنا النظرات، فقد بدت مساحة الفوهة البركانية متسعة اتساعا كبيرا، والأدغال النامية كثيفة حتى ليتعذر اختراقها.

وصحت: «واهالنا! ما أشد حمقنا».

وصاح كافور: «من الواضح أننا يجب العثور عليها ثانية وبلا إبطاء. فحرارة الشمس تزداد قوة، ولولا الجفاف لأغمي علينا، فضلا عن أننا جوعان».

ورمقته بنظراتي، إذ لم يكن هذا الجانب من المشكلة قد خطر ببالي قط. وقد واتاني هذا الخاطر لتوه واللحظة برغبة ملحة فقلت مؤكدا: «أجل وأنا أيضا جوعان».

ووقف وقد ارتسمت على وجهه إمارات العزم ، فقال : « يجب علينا العثور على الكرة ، لاشك في ذلك » .

ورحنا بكل هدوء نمكن نراقب سلاسل الصخور الممتدة إلى ما لا نهاية ، والأجمة التي تغطي أرض الفوهة ، وكلانا يزن في صمت احتمال عثوره على الكرة ، كل ذلك قبل أن يدهمنا الحر والجوع .

وقال كافور ، وهو يأتي بحركات غير حاسمة : « لا يمكن أن تبعد الكرة عنا بأكثر من خمسين ياردة ، وليس علينا إلا أن نخبط حولنا خبط عشواء إلى أن نجدها » .

وقلت دون إبداء أي نشاط البدء في البحث : « هذا كل ما نستطيع عمله . ليت هذه الشجيرة القمية المتفرعة العيدان لم تم بهذه السرعة ! » .

وأتانا كافور يقول : « هذا هو بيت القصيد . ولكنها استقرت على جرف جليدي » .

وأجلت النظر حولي يراودني أمل ضعيف في التعرف على تل أو شجيرة كانت تقع على مقربة من الكرة ، ولكنني أينما توجهت كنت أجد ذلك الاضطراب الرتيب والأدغال النابتة ونباتات الفطر المتمددة وجروف الجليد المتضائلة ، وقد تبدلت جميعها تبدلا مطردا لا مناص منه . وكانت الشمس تحرقنا وتلسعنا وقد أضيف إلى حيرتنا المتناهية إعياء من جوع لا نعرف له سببا . وبينا نحن وقوف هناك في اضطراب وحيرة وسط أشياء لا سابقة لها في حياتنا شعرنا لأول مرة بوجود صوت على القمر غير الصوت التي تحدثه النباتات في نموها أو هزيز الريح أو أصواتنا نحن .

كان الصوت الذي صعدناه يدوي : « بوم ... بوم ... بوم » .

وكان آتيا من تحت أقدامنا ، من باطن أرض القمر ، وخيل إلينا أننا نسمعه بأقدامنا بالقوة ذاتها التي نسمعه بها آذاننا ، وقد كتم بعد الشقة وقعه وجعله غليظا طبيعة المواد التي تعترض طريقه ولا أستطيع تخيل صوت دهشنا له أكثر مما دهشنا لهذا الصوت ، أو أحدث تغييرا شاملا في نوع الأشياء المحيطة بنا أكثر منه ، ذلك أنه كان صوتا متئدا ، وئيدا ، رزينا ، بحيث بدا لنا وكأنه ضربات ساعة ضخمة مدفونة ، ولا شيء آخر عداها .

وراح يدوي من جديد بوم ... بوم ... بوم ...

صوت يوحي لنا بهدوء أروقة الأديرة ، وبالليالي المؤرقة في المدن المزدحمة وبسهر الحراس في انتظار الساعة التي تنتهي فيها نوبة سهرهم ، وبجميع ما في الحياة من أشياء منتظمة مرتبة ، لقد كان يدوي متئدا ، غامضا وسط هذا التيه الخيالي العجيب ! هذا ولم تشاهد العين تغييرا في أي شيء ، فالأدغال ونباتات الصبار المهجورة تمطى وتتمدد وتتصل ببعضها في غير انقطاع إلى أطراف التلال النائية ، والسماء المعتمة الساكنة من فوق رءوسنا خالية لا تصادف العين فيها شيئا ، والشمس الساخنة معلقة محرقة ، وفي وسط هذه جميعها كانت تسمع وقع ضربات هذا الصوت اللغز ، منذرا مهددا .

بوم ... بوم ... بوم ...

وطفق الواحد يسأل الآخر بأصوات خافتة ضعيفة : « أهي ساعة؟ »

— إنها شبيهة بالساعة.

— ما هي ؟

— ماذا يمكن أن تكون ؟

وأدلى كافور باقتراح جاء متأخراً ، فما أن طلب مني أن أعدد الضربات حتى وقف الضرب.

وجاء السكوت . بما يوحى به من شعور بالخيبة وبدقاته الزمنية ، بمثابة صدمة جديدة ، وظللنا لحظة ونحن فى شك من أمر سماعنا لذلك الصوت وفى تساؤل : ألا يمكن أن يكون مشتركاً ، وهل سمعت أنا الصوت حقيقة ؟

وشعرت بيد كافور تضغط على ذراعى ، وتكلم بصوت خفيض كأنه يخشى أن يوقظ نائماً ، فهمس : « لنبق متلازمين ولنبحث عن الكرة ، يجب أن نعود إلى الكرة . إن هذا فوق مداركنا » .

فقلت له : « وأى طريق نسلك ؟ » .

فوقف متردداً ، ذلك أننا كنا مقتنعين اقتناعاً سيطر على عقولنا بوجود أشياء تحيط بنا ولا نراها . فماذا يمكن أن تكون وأين يمكنها أن توجد ، وهل هذا المكان المنعزل المقفر الذى تتناوبه الحرارة القائظة والبرودة المتجمدة غطاء خارجى وقناع لعالم موجود تحت أرض القمر ؟ وأى نوع من السكان يمكن لهذا العالم أن يخرجه من جوفه ويلقيه علينا ؟

ثم دوت قعقعة وخشخشة كأنهما صادرتان عن بوابات ضخمة من

المعدن فتحت على مصاريعها ، فطمس دويها ذلك السكون المؤلم طعنة قوية فجائية كأنها هزيم رعد جاء على غير انتظار .

فقطع علينا سيرنا ، ومن ثم وقفنا فاغرى الفم لا نلوى على شيء ، وعند ذلك انسل كافور من مكانه وأقبل نحوى .

وهمس فى وجهى قائلا : « إنى عاجز عن الفهم » ثم لوح بيده فى اتجاه السماء بشكل غامض فى إيماء يحمل فى طياته أفكاراً أكثر غموضاً.

وقال : « عجباً ! وإذا أى شيء .... » .

ورحت أجيل البصر حولنا ، وأومأت برأسى موافقا له .

وطفقنا نسير ونحن نتسلل فى حرص شديد مخافة إحداث أية ضوضاء. واتجهنا صوب غابة من العشب الكثيف المحدود النمو وسمعنا خلفنا ما يشبه الصوت الذى تحدثه المطارق وهى تطوح حول مرجل ، فأسرعنا الخطى ، وهمس كافور قائلا : « يجب أن نزحف » .

وكانت الأوراق السفلية للنباتات ذات الحراب التى ظللتها الأوراق العليا الحديثة الإنبات ، قد بدأت تذوى وتنكمش فأمكننا أن نشق طريقنا وسط جذوعها المستعرضة دون أن يصيبنا منها أذى كبير ، فلم نكن نهتم بطعنة منها تصيبنا فى الوجه أو الذراع ، ووقفت وسط الغابة أحدق النظر فى وجه كافور ، وأنا ألهث .

فهمس قائلا : « سكان تحت الأرض ، إلى أسفل » .

— قد يخرجون إلى السطح

— يجب أن نعثر على الكرة !

— أجل ، ولكن كيف ؟

— نزحف حتى نصل إليها .

— وإذا لم نصل ؟

— نظل محتبئين ونتساعد منظرم

— يجب ألا نفترق

وراح يفكر ثم قال : « وأى طريق نسلك ؟ »

— يجب أن نجرب حظنا

وجعلنا نظل حولنا ، ثم شرعنا نزحف بحذر خلال الغابة السفلى ونسير فى طريق دائرى بقدر ما استطعنا أن نتبين ، وكنا نقف عند كل نبات فطرى متموج وعند سماع أى صوت ، لا نهدف إلا إلى العثور على كرتنا التى كان خروجنا منها نزقاً وغباء . وكان يصدر من تحت الأرض المرة تلو المرة دون انقطاع ارتجاجات وضربات ، وأصوات آلية غريبة . عجزنا عن تفسيرها وخيل إلينا فى إحدى المرات ، ثم تكرر الأمر ، أننا سمعنا شيئاً — خشخشة ضعيفة وضوضاء ، عبر الهواء ولم نجرؤ على البحث عن نقطة ذات فائدة فى اكتشافنا القوهة على الرغم مما كنا فيه من رعب ، ومضى وقت طويل لم نر فيه أثراً لتلك المخلوقات التى كانت أصواتها ملحة كثيرة . ولولا ما كنا فيه من أعياء بسبب جوعنا وجفاف حلوقنا لكان زحفنا هذا أشبه بما يجرى فى حلم قريب من الحقيقة موغلاً فى الخيال ولم يكن فيه أى عنصر له ظل من الحقيقة سوى تلك الأصوات .

وتخيل الأمر بنفسك ! فقد قامت حولنا هذه الغابة التى تشبه الحلم بأوراقها الحادة ذات الحراب البارزة فوق الرءوس ، وحرازها الصخرى ، هذا النبات الحى الصامت الذى تتناثر عليه أشعة الشمس فتبدو كأنها رشاش الماء وهو يتماوج تحت أيدينا وركبنا بالقوة التى يمتنا فيه نموه ، فيبدو كالبساط المتماوج حين تهب الريح من تحته ، وبين الفينة والفينة كانت إحدى نباتات الفطر التى تشبه المثانة تنبعج وتتمدد تحت ضوء الشمس وتظللنا وتخرج للوجود من آن لآخر نبات جديد له ورق براق فيشق طريقه بين النباتات الأخرى . وكانت خلايا هذه النباتات ذاتها كبيرة فى حجم إبهام يدى وتلوح كالخرز المصنوع من الزجاج الملون . وكانت هذه الأشياء جميعها تتشرب ضوء الشمس الذى لا يخبو أواره وتراها العين منعكسة فى سماء سوداء مع زرقة طفيفة وهى مع ذلك مرصعة ، رغم ضوء الشمس ، بنجوم قليلة ما زالت تسطع .

ويالعجب ! ما كان أغرب أشكال الأحجار ومعدنها . لقد كان كل شئ غريبا بل إن حساسية الجسم كانت شيئا لا سابقة له ، وكانت كل حركة بعد أخرى تنتهى بمفاجأة ، النفس يمر رقيقا فى الحلق ، والدم ينساب خلال الآذان فى موجات تابعة تسمع ضرباتها وهى تقول : بض ... بض ... بض ...

وكانت تقصفص وقت لآخر دون انقطاع أصوات مدوية كدقات المطارق ، وطنين الآلات وقعقعتها ، وإذا خوار حيوانات ضخمة يسمع فى الوقت ذاته .

الفصل الحادي عشر

مراعى الوحوش القمرية

وزحفنا على ذلك نزحف في رعب أمام تلك الأصوات التي نزلت علينا ، نحن المخلوقين الأرضيين المنبوذين التائهين في تلك الغابة القمرية ونباتاتها الشيطانية . ويبدو أننا زحفنا وقتاً طويلاً قبل أن تقع أنظارنا على أي مخلوق أو وحش قمري ، وذلك رغم سماعنا خوارها والضوضاء التي تحدثها قباع هذه الأخيرة والتي كانت تقترب منا رويداً . كنا نزحف خلال المفاوز الحجرية وفوق المنحدرات الجليدية ووسط النباتات الفطرية التي كانت تتمزق عندما ندفعها كما تتمزق المثانات الرقيقة فتخرج منها أخلاط مائية تلزق فوق ملف كامل من أشياء تشبه الفطر الجاف وتحت غابات لا نهاية لها من الأدغال القصيرة . وكانت أعيننا على الدوام تبحث يائسة عن كرتنا المهجورة ، وكانت أصوات الوحوش القمرية تبدو أحياناً أخرى في خوار غريب محقق ، ثم تعود فنسمع كصوت حيواني مكتوم معلق وكأن هذه المخلوقات الخفية كانت تسعى لتأكل وتخور في وقت واحد .

وكانت نظرتنا الأولى لمحة عابرة غير وافية ، ولكنها لم تكن مع ذلك أقل إرعاباً عما لو كانت وافية . وكان كافور في تلك اللحظة يزحف

أمامي فما أن شعر باقترابها حتى كف عن الزحف فجأة وبإشارة واحدة منه وقفت أنا أيضاً .

وبدا لنا أن صوت شقشقة الأعشاب وتحطيمها يدنو منا ، فجلسنا القرفصاء ورحنا من كثب نتبين مدى قرب هذه الأصوات واتجاهها ، وإذا نحن نسمع خواراً مفزعاً من خلفنا ، خواراً قريباً عنيفاً جعل حراب النباتات تنحني أمامه وشعرنا بالنفس الذي يصحبه يخرج حاراً رطباً . والتفتنا إلى الوراء فرأينا في غير وضوح خلال حشد من الجذوع المتراوحة ، جانبي هذا الوحش اللامعين والخط الطويل الذي يرسم معالم ظهره ، وقد ظهرا على صفحة السماء .

ومن الصعب الآن بطبيعة الحال أن أذكر القدر الذي شاهدته في ذلك الوقت ، لأن التأثيرات التي انطبعت في حينذاك قد صححتها مشاهداتي التي تلتها ، وكان أول ما انطبع في ذاكرتي منه حجمه الهائل ، فقد كان محيط وسطه حوالي ثمانين قدماً وطوله حوالي مائتي قدم ، وكانت خاصرتاه ترتفعان وتهبطان مع حركة تنفسه . ولاحظت أن جسمه الضخم المترهل كان يتدلى على الأرض وأن جلده كان أبيض متموجاً ينقلب إلى سواد أرقط على امتداد عموده الفقري ولكننا لم نشاهد أي جزء من قدميه . ويخيل إلي أيضاً أننا في تلك اللحظة رأينا الجزء الجانبي على الأقل من رأسه الذي يكاد يكون بدون دماغ ، ورقبته المثقلة بالشحم وفمه الزائل الذي يقتات كل طعام ، ومنخريه الصغيرين وعينيه الضيقتين المغمضتين (فهذا الحيوان يغمض عينيه حتماً عندما تطلع الشمس) . وفغر فاه ليثغو ويخور مرة أخرى فلمحنا ثغرة

وقد لاح ظهرها أسود في السماء

واسعة حمراء ، وانطلق علينا نفس منها . ومال الوحش على جنبه كما تميل السفينة وراح يجر نفسه على الأرض أمامنا ثانياً جلده برمته ، وتدحرج مرة أخرى ثم تمرغ على مبعدة منا شاقاً لنفسه طريقاً وسط الأجمة التى سرعان ما أخفته عن أنظارنا أغصانها الكثيفة المتشابكة ، المترامية أمامنا . ولاح للنظر حيوان آخر على مسافة أبعد من الأول وتبعه ثالث . وفى تلك الأونة ظهر على مدى البصر مخلوق قزمى بدا كأنه يسوق هذه الكتل الحيوانية ، التى جعلت الطعام ، إلى مراعيها . وعند رؤيتى له ارتعشت يدى المطبقة على قدم كافور ، ولبثنا فى مكاننا بلا حراك ننظر إليه حتى بعد أن غاب عن مدى أبصارنا .

وبدا هذا المخلوق تافها بالمقارنة إلى تلك الوحوش ، بمجرد نملة ، ذلك أن طوله لم يكد يصل إلى خمسة أقدام . وكان يلبس ثيابا جلدية تغطى جسده كله حتى أنه لم يظهر للخارج أى جزء من جسمه ذاته ، الذى كنا بطبيعة الحال نجهل كل شىء عنه . وعلى ذلك فقد عرض نفسه أمامنا مخلوقاً متماسكاً ، خشن الشعر ، له الكثير من خواص الحشرة المعقدة التركيب ، وملامس (أعضاء الحس) كالسياط وذراع له طنين يبرز من غلاف جسده الأسطوانى اللامع . أما رأسه فقد أخفت شكله خوذة ذات أسنان متعددة ، اكتشفنا بعد ذلك بأنه يستعملها لنخس حيواناته العصية ، وكان على جانبى عينيه تماماً منظار قاتم الزجاج جعل الجهاز المدبب الذى يغطى وجهه يشبه وجه العصافير ، ولم تمتد ذراعاه إلى أبعد من غلاف جسمه ، هذا الجسم الذى كانت تحمله ساقان قصيرتان ظهرا لعينى الأرضيتين رفيعتين مفرطين فى الرقة رغم تدثرهما بلفائف

دافئة وكان لساقيه فخذان غاية فى القصر وقصبتان غاية فى الطول وقدمان دقيقتان .

وعلى الرغم مما كان يبدو فيه من ثبات ثقيلة كانت خطواته واسعة إذا قسناها بمقاييسنا الأرضى . وكانت ذراعه الرشاقة دائمة النشاط ، كما كانت حركته فى اللحظة التى رفعها توحى بالسرعة والغضب فى بعض حالاته . ولم يكد يغيب عن أبصارنا حتى سمعنا خوار أحد الحيوانات يتحول فجأة إلى صياح قصير حاد يتبعه خليط من الأصوات المتلاحقة . ثم خفت ذلك الخوار شيئاً فشيئاً إلى أن وقف كأن المراعى المنشودة قد تم الوصول إليها .

ورحنا نتصت . ومرت فترة كأن عالم القمر فيها ساكنا ، ولكن انقضت فترة من الزمن قبل استئناف زحفنا بحثاً عن الكرة الخفية .

ووقع نظرنا مرة ثانية على هذه الوحوش حين كانت على مسافة قريبة ما فى مكان تراكمت فيه الصخور . وقد تغطت سطوحها المائلة بنبات أخضر أينع ينمو فى تكتلات طحلبية كثيفة كانت هذه المخلوقات ترعى عليها وتنهش أطرافها . ووقفنا على حافة القصب الذى كنا نزحف فى وسطه عندما وقع نظرنا على هذه الحيوانات ، ونحن نراقبها ونجيل الطرف حولنا علنا نلمح أحد المخلوقات القمرية مرة أخرى : لقد كانت هذه الوحوش منكبة على طعامها كرقائق جسيمة ، هذه الأجسام الضخمة السمينة ، وهى تلتهمه بنهم وشره ، وبضراعة يصحبها شهيق . لقد كانت وحوشاً تتصف بالسمنة فحسب . وكانت مثقلة بطيئة الحركة حتى أن ثوراً من ثيران سميثفيلد ليعد نموذجاً

فى الخفة والرشاقة بالنسبة لها . وكانت أفواهها النشيطة الماضغة الملتوية وأعينها المغمضة وصوتها الذى يشحذ الشهية ، وهى تلوك الطعام ، كانت هذه فى مجموعها صورة للشهوة الحيوانية ، نبهت أجسامنا الخاوية الجائعة تنبيها لا مثيل له .

وقال كافور منفعلا بصورة غير عادية : « إنها خنازير ، خنازير تشمئز منها النفس » ورمقها بنظرة الحسد المشرب بالغضب ، ثم زحف بين الأعشاب واتخذ موضعه عن يمينى ، ومكثت فترة طويلة بما فيه الكفاية لأتحقق من أن هذا النبات لا يصلح لغذاء الناس ، ثم سرت خلفه ورحت أقضم قصبة منه بين أسنانى .

وفوجئنا من فورنا باقتراب مخلوق قمرى للمرة الثانية ، واستطعنا عندئذ أن نرى أن ما يغطى به هذا المخلوق نفسه لم يكن غطاء قشريا بل ثيابا ، وأنه فى ثيابه يكاد يشبه المخلوق الذى لمحناه أولا ، إذا استثنينا تلك الأطراف التى تشبه اليد أو الخشابا التى كانت تبرز من عنقه . وكان واقفا على صخرة على حافة القوهة يحرك رأسه يمنة ويسرة كأنه يراقب القوهة . ولبثنا صامتين لا نأتى بحركة خشية جذب التفاته إلينا . ولكنه بعد فترة دار على عقبيه وتوارى عن الأنظار .

وأقبلنا على قطيع آخر من الوحوش التى كانت تخور من فوق إحدى الوهاد ، ثم مررنا بمكان تخرج منه أصوات لآلات طارقة ، كأن قاعة ضخمة من قاعات الصناعة برزت إلى السطح فى ذلك المكان . وبينما كانت هذه الأصوات لا تزال تدوى من حولنا ، إذا نحن نصل إلى فضاء

واسع قد يصل قطره إلى مائتى ياردة ، وله أرض مستوية تماما ، وكان هذا الفضاء خاليا من النباتات إذا استثنينا الحواف الصخرى الذى كان تميز من حافته ، وكان سطح هذا الفضاء مغطى بمسحوق ذى لون أصفر ترابى . وخشينا أن نعبر هذه الأرض الفضاء ، ولكننا لما كانت أقل عقبة فى طريق زحفنا من الأرض العشبية فقد هبطنا إلى حافتها وشرعنا نجوب أطرافها بكل حذر .

وسكنت الأصوات السفلية فترة من الوقت وهدأ كل شيء ، ما عدا تلك الحركة الضعيفة التى كانت تصدر من النباتات أثناء نموها . ثم قامت فجأة ضوضاء أخرى أشد دويا وأعنف وقعا وأقرب مسافة من أى شيء سمعناه قبل الآن ، ولم يكن ثمة شك فى أنها صدرت من تحت الأرض . فجثمنا بإيحاء من غريزتنا وتمددنا على الأرض بقدر ما استطعنا تأهبا لاندفاعنا السريع إلى الأجمة المجاورة ، وبلغت كل ضربة فى الأرض أو اهتزازة كأنها تتجاوب داخل أجسامنا ، وعلا صوت الضربات والاهتزازات ، فزاد ذلك الارتجاج غير المنتظم إلى أن أصبح عالم القمر بأكمله وكأنه يرتعش وينبض .

وهمس كافور : « لنختبئ » .

فتحولت فى اتجاه الأدغال .

وفى تلك اللحظة تطرق إلينا صوت صدمة أشبه بقصف المدافع ، ثم وقع حادث لا أزال يلازمنى فى أحلامى ، وكنت قد أدرت وجهى لأنظر فى وجه كافور ومددت يدى أمامى وأنا أنظر إليه فلم تقعا على شيء ، ذلك أنى سقطت فجأة فى حفرة لا قرار لها .

واصطدم صدرى بشيء صلب وإذا أنا أجد ذقنى على حافة هاوية سحيقة انفتحت فجأة تحتى ويدى ممدودة وسط الفراغ فى تصلب . فلم تكن تلك البقعة المسطحة المستديرة سوى غطاء ضخم راح فى تلك اللحظة ينزلق إلى الجانبين من فوق الهوة التى كان يخفيها ، ويتوارى فى شق مستطيل أعد له .

وأعتقد أنه لولا كافور لبقيت جامدا معلقا فوق تلك الحافة أحدق ببصرى إلى ذلك الأخدود السفلى الهائل إلى أن تسحقنى حافتاه فى آخر الأمر وتطيحان بى فى أعماقه . أما كافور فلم يصطدم تلك الصدمة التى شلت حركتى ، فقد كان على بعد قليل من الحافة عندما انفتح ذلك الغطاء لأول مرة ، ولما رأى الخطر الذى أعجزنى عن الحركة أمسك بقدمى وجرنى إلى الوراء . فانتصبت جالسا وزحفت على يدى ورجلى بعيدا عن الحافة ثم وقفت وأنا أترنح وعدوت خلفه أعبر ذلك اللوح المعدنى الذى كان يدوى ويهتز ، ويبدو أنه كان فى انفتاحه ينزلق بسرعة تتزايد بانتظـــام ، وكانت الأدغال التى فى طريقى تتمايل إلى الجانبين وأنا أعدو .

ولم أتأخر فى عدوى عن الوقت المناسب ، فقد توارى ظهر كافور وسط الأجمة الكثيفة ، وبين أنا أتسلقها فى زحفى خلفه كان الغطاء الهائل قد استقر فى مكانه محدثا طنينا ، وظللنا فترة طويلة نلهث ولا نجرؤ على الاقتراب من الهوة .

ولكننا زحفنا فى نهاية الأمر شيئا فشيئا وبكل حذر إلى موضع استطعنا منه أن ننظر إلى أسفل ، واقتربت الأدغال التى حولنا

وتماوجت بفعل نسمات كانت تهب على فتحة الهوة . لم نستطع فى البداية أن نرى شيئاً سوى جدران عمودية ملساء تهبط فى النهاية إلى الظلام السفلى الذى لا يمكن للبصر أن يخترقه . وشعرنا شيئاً فشيئاً بعد ذلك بوجود عدد من الأنوار الضعيفة وهى تروح وتجىء .

واسترعت تلك الهوة الغامضة الهائلة انتباهنا فترة من الزمن حتى أننا نسينا كرتنا ذاتها . وبمرور الزمن وبعدما اعتدنا على الظلام ، استطعنا أن نتبين أشكالا صغيرة قاتمة لا نكاد تظهر حتى تختفى متنقلة بين أنوار فى حجم سن الإبرة . وأخذنا ننظر ونحن فى دهشة وارتياب وكان فهمنا لما يجرى ضئيلا لدرجة أننا لم نجد كلمات نعبر بها ، ولم نستطع أن نميز شيئاً يمكن أن يمهد أمامنا سبيل فهم معنى تلك الأشكال الناحلة التى رأيناها .

وسألته : « ماهذه ، وماذا يمكن أن تكون ؟ »

فأجاب : « إنها الأعمال الهندسية ! فإنه يتحتم عليهم أن يقضوا الليل فى هذه الأغوار الكبيرة ، ويخرجوا أثناء النهار . »

— أيمكن ، يا كافور ... أن يكونوا .. أيمكن أن يكون هؤلاء ... ذلك ... شبيها بالناس ؟

— لم يكن ذلك رجلا .

— لا يسعنا المخاطرة بشىء .

— لا نجرؤ على القيام بأى عمل إلى أن نجد كرتنا !

— لا نستطيع عمل شىء إلى أن نجد الكرة .

وأرسل زمجرة ، مؤمنا على قولى ، ونهض ليسير . وأجال نظره حوله برهة ، ثم تنهد وأشار بيده إلى إحدى الجهات . وسرنا خلال الأجمة وانقضى وقت ونحن نزحف بعزم ، ثم تضاءلت قوة زحفنا ، وسمعنا من فورنا وقع أقدام وصياح صادرة من أشكال مترهلة حولنا ذات لون أرجوانى . ولبثنا جاثمين عن كثب ، وظلت تلك الأصوات تروح وتجىء بالقرب منا ولكننا لم نر شيئاً فى هذه المرة . وحاولت أن أسر إلى كافور بأنى لن أستطيع البقاء دون طعام مدة أطول من ذلك ، ولكن جفاف فمى أعاقنى عن الهمس .

فقلت له : « لابد لى من طعام ، يا كافور » .

فالتفت نحوى بوجه يعمه الفزع وقال : « إنها حالة يلزمك فيها الثبات » .

— ولكن يجب أن أحصل على طعام . أنظر إلى شفتى .

— أنا عطشان منذ زمن .

— لو أن بعض ذلك الجليد قد بقى إلى الآن !

— لقد ذهب تماماً . فنحن نسير من المنطقة المتجمدة إلى الحارة ، بسرعة درجة فى كل دقيقة ....

فعضضت على يدى حنقاً وتألماً .

قال : « الكرة ! لا ينقذنا مما نحن فيه سوى الكرة ! » .

وشحذنا الهمة لكرة زحف أخرى ، وكان تفكيرى منصرفاً إلى أنواع الأطعمة وإلى أشربة الصيف الفوارة وهى تخرج صفيراً عميقاً ،

واشتهيت الهيرة بوجه خاص . وكانت تلازمني ذكرى الـ سعة الجالونات الستة عشر التي كان يقف مزهوا في فيو مثرل في ليبي ، ورحت أفكر في مستودع أطعمتنا الذي على قاب قوسين منا ، ولا سيما في شرائح اللحم والفطائر المحشوة بالكلى ، في الشرائح الطرية والكلى الوفيرة فوق مرق اللحم الدسم بينهما . وكانت تنتابني بين الفينة والفينة نوبات من التثاؤب الصادر عن الجوع . وأتينا إلى مستوى من الأراضي المغطاة بأشياء لحمية حمراء ، ونباتات مرجانية هائلة الحجم ، اهتزت وتكسرت عند اقترابنا منها ، واسترعى انتباهي سطوحها المتفلقة ، فقد بدت هذه الزروع اللحمية من نسيج يمكن قضمه ، فضلا عن أنها بعثت لي شهية الأرنب إلى درجة ما .

واقتطفت قطعة منها ورحت أشمها ، ثم ناديت كافور بصوت خفيض مبحوح .

فقال وهو ينظر إلي بوجه مقطب : « لا تفعل ! » .

فرميت القطعة ، وتابعنا زحفنا لحظة خلال هذه النباتات السيئة .

وقلت له : « لِمَ لا يا كافور ؟ » .

فسمعته يقول إنها سم وذلك دون أن يدير وجهه .

وزحفنا مسافة قبل أن أتخذ قراراً .

فقلت له : « سأجرب حظي » .

فأتى بحركة ليمنعني ، ولكنها جاءت متأخرة ، إذ كنت قد أخذت

من النبات ملء فمي ، فجلس القرفصاء ، يرقب وجهي ، بينما كان وجهه يتقلص وينم عن أغرب التعبيرات .

وقلت له : « إنه طيب » .

فصاح : « يا إلهي ! » .

وراح يرقبني وأنا آكلها بنهم . وقطب وجهه وهو بين عامل الرغبة والمعارضة ، ثم إذا هو فجأة يستسلم لشهية الطعام فيعمد إلى النبات ينزع منه لقما كبيرة ، ولبثنا برهة لا نفعل شيئا سوى الأكل .

لم يكن هذا الطعام يختلف عن الفطر الأرضي إلا أنه كان أكثر لينا يجلب الدغدغة إلى الحلق عند ابتلاعه ، وكانت أول خبرتنا له تلك اللذة الآلية فحسب عند الأكل ، ثم شعرنا بالدم يجري دافئا في عروقنا ، واصطبغت به أصابعنا وشفاهنا ، وتطرقت بعد ذلك إلى أذهاننا أفكار لا ترتبط ببعضها ارتباطا كبيراً .

وقلت : « إنه طيب ، طيب جداً . ما أصلح القمر موطنا لسكان الأرض الفائضين عن الحاجة ، سكان الأرض المساكين الزائدين » . ثم رحت آكل قطعة أخرى كبيرة منه .

وامتلأت نفسي ارتياحا طيبا غريبا للفكرة بأن في القمر طعاما جيداً كهذا ، وحل سرور جنوني محل الضيق الذي شعرت به ساعة الجوع فقد تلاشى كلية ذلك الرعب وذلك العناء اللذان رحت تحتهما ولم أعد أنظر إلى القمر نظرتي إلى كوكب كنت تواقا شغوفا بإيجاد مهرب منه ، بل إلى كوكب يصلح لأن يكون ملجأ للبشر الذين يعانون

الحرمان . وأظن أنى نسيت المخلوقات القمرية والوحوش وغطاء الهوة وتلك الأصوات ... نسيتها تماماً بعد تناول ذلك الفطر مباشرة .

ورد كافور على ملاحظتى الخاصة ، بالسكان الفاتنين ، بعد أن كررتها للمرة الثالثة بعبارات إستحسان مشابهة . وشعرت بدوار فى رأسى عزوته إلى التأثير المنبه الذى كان للطعام بعد ذلك الصوم الطويل ، وقلت لكافور * : « لقد كان اكتشافك عظيماً ، لايفوقه إلا اكتشاف البطاطس » .

فسألنى : « ماذا تعنى بقولك ؟ اكتشاف القمر يأتى فى الدرجة الثانية بعد اكتشاف البطاطس » .

ونظرت إليه وقد صدمت للهجة صوته الفجائية ، وتبدأت كلامه الرديئة ، وخطر لى سريعاً أنه على الأرجح مخمور بفعل الفطر . وجال بخاطرى أيضاً أنه أخطأ فى تصوره بأنه مكتشف القمر ، ذلك أنه لم يكتشفه وإنما وصل إليه فحسب ، وحاولت أن أضع يدى على ذراعه وأشرح له هذه المسألة ، ولكنها كانت أعقد من أن يعيها عقله فضلا عن أن التعبير عنها كان صعباً بصورة لم أتوقعها . وبعد أن حاول لحظة أن يفهمنى ، شرع يستقصى بعض الملاحظات عن نفسه ، وأذكر أنى تساءلت هل أثر الفطر على عينى فغشيهما ضباباً ، كما أثر على عينيه ؟

* يجرى هذا الكلام فى الأصل الانجليزى بلغة عامية مخلطة الفاصل ملتوية الحروف حال من يتكلم وهو واقع تحت تأثير الخمر أو المخدر .

وراح يطن وهو يفوق فواقاً مبيناً : « نحن صنيعة ما نأكل وما نشرب » وأعاد هذا القول مرة ثانية ، واعتزمت أن أعارضه فيه فقد كنت فى حالة من سعة الحيلة ، ولكن من المؤكد أن كافور لم يصغ إلى الإصغاء الصحيح ونهض واقفاً بقدر ما أوتى من قوة ، ساندا يده على رأسى حتى لا يسقط وكان هذا منه عملا بعيداً عن الحشمة ، ووقف يحدق النظر فيما حوله وقد تجرد من كل خوف كان يشعر به تجاه سكان القمر .

وحاولت أن أقول له إن فى ذلك خطراً عليه ، دون أن يكون سبب الخطر واضحاً تمام الوضوح ، ولكن لفظة « خطر » اختلطت ببعض الاختلاط بلفظة « تهور » . وجاء مخرجها أقرب إلى لفظة « مؤذ » من أى من الكلمتين[1] ، وبعد محاولتى لتبسيط الكلمات الثلاث انبعث تقاتى موجهاً كلامى على الأخص إلى النباتات المرجانية التى على جانبى الأدروج القرية المضيئة . وشعرت أن الضرورة تقتضى أن أوضح حالا هذا الخلط بين القمر وبين البطاطس ، ورحت أدور فى شعاب الكلام حول أهمية توخى الدقة فى تعريف الأشياء . وبذلت جهدى لأتجاهل أن إحساسى الجثمانى لم يعد فى حالة جيدة .

وعاد تفكيرى بطريقة من الطرق غابت عن بالى الآن ، إلى المشروعات الاستعمارية ، فقلت[2] : يجب أن نضم القمر إلى أملاكنا ، دون تردد

(١) نتأ هنا اللبس من تقارب مخارج الكلمات الثلاث فى الأصل الانجليزى تحت تأثير المخدر .

(٢) صور لنا هنا المؤلف الروح الاستعمارية التى لايمكن أن تتجرد منها عقلية الرجل الانجليزى ، ووزر الذى ينعقد فى مقالاته وكتاباته بهذه الروح يعطينا هنا صورة حية لها .

فهو جزء من أعباء الرجل الأبيض . إننا ، يا كافور (وهنا أصابه الفواق)[1] مثل المرازبة — أعنى المرازبة ! ملم تحلم به امبراطورية قيصر . وستنشر الخبر جميع الصحف ، وستسمى مستعمرتنا كافورسيا بمفوردسيا (الفواق مرة أخرى) بدفوردسيا — شركة محدودة — أعنى غير محدودة ! فى حقيقة الأمر .

كنت مخموراً بكل تأكيد .

ودخلت معه فى جدل لأبين الفوائد غير المحدودة التى سوف تعود على القمر من نزولنا فيه . وأقنعت نفسى لأنى برهان ، يكاد يكون صعباً ، على أن وصول كولمبس إلى أمريكا كان مفيداً لها بوجه عام ، ووجدت أنى نسيت تسلسل الكلام الذى كنت أنوى متابعته ، ورحت أردد العبارة ، شبيها بكولمبس ، قتلا للوقت .

وتختلط على الأمور فى تذكرى لتأثير ذلك الفطر السكرى ابتداء من هــذا الموضوع . وأذكر فى شىء من الغموض أننا أعلنا عن نيتنا بألا نقبل أى سخف من أية حشرات لعينة ، وأننا قررنا بأنه لايحسن بالرجال أن يختبئوا بهذا الشكل المعيب على كوكب من التوابع فحسب . وأذكر كذلك أننا حملنا على أذرعنا مؤونة كبيرة من هذا الفطر ، ولا أدرى أكان ذلك لاستخدامها قذائف أو لأغراض أخرى ، وشرعنا

---

(١) يختلط الكلام عليه من تأثير الخمر فيخلطها مزارية بدل مرازبة والمرزبان حاكم كبير فى فارس القديمة

نسير فى ضوء الشمس دون أن نهتم بالطعنات التى كانت تسددها لنا الأدغال المسننة .

ولابد أننا أقبلنا على المخلوقات القمرية بعد ذلك مباشرة . كان ستة منهم يسيرون فى صف واحد فوق مكان صخرى ، ويحدثون أعجب أصوات الصفير والصياح ويبدو أنهم جميعاً شعروا بوجودنا ، وأن جميعهم لزموا الصمت فى الحال ، ووقفوا بلا حراك ، كما تفعل الحيوانات محولين وجوههم نحونا . وأفقت من سكرى لحظة ، وتمتم كافور : « حشرات ! حشرات ، أو يظنون بأن أزحف على بطنى ، على بطنى ، وكان تكراره لكلمة « بطن » بطيئاً ، وكأنه يبلع الإهانة .

وأطلق بعد ذلك فجأة صيحة غضب ، وسار ثلاث خطوات واسعة ثم قفز نحوهم ، قفزة سخيفة ، أتبعها بسلسلة من الانقلابات فى الهواء وحلق فوق رءوسهم مباشرة ، ثم توارى عن الأنظار وسط رشاش هائل انبثق من مثانات الصبير عند ارتطامه بها ، ولا يمكننى الحدس عما جال بخاطر المخلوقات القمرية عند هذا الغزو المثير للدهشة ، الموجه إليهم من كوكب آخر والذى كان مستهجنا فى نظرى ، وأعالنى أذكر منظرهم من الخلف وهم يهرولون فى جميع الاتجاهات ، ولكنى لست متأكداً من ذلك ، لأن جميع الأحداث التى وقعت قبل أن تفقد ذاكرتنا لم تترك فى نفسى إلا ذكريات مبهمة ضعيفة . أعرف أنى سرت خطوة لألحق بكافور فتعثرت ، فسقطت على رأسى بين الصخور وأذكر

كان ثمة ستة منهم يسيرون في صف واحد

عن يقين بأني مرضت مرضاً مفاجئاً، ويبدو أني أذكر أيضاً أني كافحت بشدة ثم قيدت بقيود من المعدن . . .

أما ما وقع بعد ذلك فإني أذكره بوضوح وهو أننا أصبحنا سجينين، في مكان سحيق تحت سطح البحر، على عمق نجهله، في ظلام ووسط ضوضاء غريبة تذهب بالعقل، وقد امتلأت أجسادنا بالخدوش والرضوض وتصدعت رءوسنا من الألم.

الفصل الثانى عشر

وجه المخلوق القمرى

ووجدت نفسى بعالم القرفصاء وسط ظلام دامس ، ومر على وقت طويل وأنا أجهل أين كنت وكيف وصلت إلى هذه الحيرة ، ورحت أفكر فى الخوان الذى كنت أطرح فيه أحيانا وأنا طفل ، وفى غرفة النوم الشديدة الظلام الكثيرة الضوضاء التى رقدت فيها أثناء مرض كان قد أصابنى . ولكن هذه الضوضاء التى حولى ليست تلك الضوضاء التى عرفتها ، وكان جو المكان يفوح برائحة خفيفة كرائحة مراحيض الخيل ثم راح فى الظن إلى أننا بلا شك متكئين على سطح الكرة ، وأنى دخلت بطريقة من الطرق إلى قبو المنزل الذى كان يسكنه كافور . وتذكرت أننا قد اتينا من سطح الكرة ، وخيل لى أننى لازلت داخلها دون شك أقطع الفضاء .

وناديت كافور وسألته : « أليس فى مقدورنا الحصول على ضوء ما ؟ »

فلما لم يصلنى منه جواب ، أصررت على مناداته ، فكان جوابه زمجرة ألم وسمعته يقول : « رأسى ! »

وحاولت أن أضغط يدى على جبينى المصدع من الألم فإذا هما موثقتان ، الأمر الذى جعلنى أنتفض إنتفاضا شديدا ، ولما قربتهما من

فمى شعرت ببرودة المعدن الناعم الملمس ، ذلك انهما كانتا مقيدتين بالسلاسل وحاولت أن أبعد ساقا عن أخرى فإذا هما موثقتان أيضا ، وقد قيدتا إلى الأرض بسلسلة تزيد سمكا عن الأولى ، لفت حول وسطى .

وإلى تلك الساعة لم يرعبنى شىء من جميع مامر علينا من تجارب غريبة بقدر ما أرعبنى هذا الحادث ، ورحت فترة من الزمن أشد قيودى فى سكون ثم صرخت صرخة حادة وقلت : « لماذا أنا موثق يا كافور ؟ لم قيدتنى من يدى وقدمى ؟ »

فأجاب : « لم أقيدك . لقد فعلت ذلك المخلوقات القمرية »

المخلوقات القمرية ! وتردد هذا الخاطر فى فكرى برهة ، ثم عادت إلىّ ذكرياتى : القفر الجليدى ، ذوبان الهواء ، نمو النباتات ، وثبنا وزحفنا الغريبين وسط الصخور والكائنات النباتية فى الفوهة . كذلك عاودتنى ذكريات ذلك الأسى الذى صحب بحثنا المجنون عن الكرة ، وأخيرا انفراج ذلك الصمام الضخم الذى كان يغطى الهوة !

وحاولت بعد ذلك فى شىء من العناء أن أتتبع حركاتنا الأخيرة التى أوصلتنا إلى تلك الحالة ، ولكن الصداع الذى ألم برأسى لم يكن يحتمل ووصلت فى متابعة تلك الذكريات إلى عقبة لم يمكن عبورها ، إلى مرحلة فراغ أصر خيالى على الوقوف عندها .

وقلت : « كافور »

فقال : « أجل . »

— أين نحن ؟

— كيف لي أن أعرف؟

— أنحن في عداد الأموات؟

— ياله من هراء!

— إذن لقد تمكنوا منا.

لم يحر جوابا، ولكنه زمجر، ذلك أن آثار السم الباقية، قد جعلته على ما يبدو سريع التهيج بشكل غريب.

— وماذا عزمت على أن تعمل؟

— وكيف لي أن أدرك ما ينبغي عمله؟

فقلت: «حسن جدا!» ثم لزمت الصمت، ولما استيقظت من تحول صحت: «يا إلهي بودي أن ينقطع هذا الطنين».

وانقضت فترة أخرى من السكون رحنا بعدها نصغي إلى خليط من الضوضاء المكتومة مالبثت تطرق الآذان كالأصوات المكبوتة التي تنبعث من أحد الشوارع أو المصانع. ولم أستطع فهمها فقد كنت أنصت إلى الوقع الذي يحدثه أحدها ثم إلى الوقع الذي يحدثه غيرها، وأحاول تفسيرها دون جدوى، ولكنني بعد مضي وقت طويل شعرت بعنصر جديد أشد حدة لم يختلط بغيره من الأصوات بل ظل قائماً بذاته على ما يبدو، وسط ذلك الأساس الصوتي المبهم. لقد كان ذلك العنصر يتألف من سلسلة من الأصوات الصغيرة المحدودة نسبياً، المكونة من طرقات خفيفة واحتكاكات كانت تشبه احتكاك ساق طليقة من اللبلاب على النافذة أو حفيف عصفور يتنقل على صندوق، كنا نصغي

وتلتف حولنا، ولكن الظلام كان بمثابة بساط من المخمل. وتبع ذلك صوت أشبه بما يحدثه قفل حسن التزييت حين تتحرك خطافاته حركاتها الدقيقة المعقدة. وظهر أمامي خط رفيع براق بدا معلقا في فضاء أسود لا يعرف كنهه.

وخاطبني كافور بصوت خافت قائلا: «أنظر!».

فسألته: «وما هذا؟».

فقال: «لا أدري».

ورحنا نحدق النظر.

وإذا الخط الرفيع يصبح طويلا ويزداد عرضا وشحوبا، واتخذ شكل النور ذي الزرقة الطفيفة، المنعكس على جدار مرشوش بماء الجير. ولم تعد جوانبه تبدو متوازية وبرزت له أسنان عميقة على أحد جوانبه وتحولت إلى كافور لألفت نظره إلى ذلك فدهشت حين رأيت أذنه تبرق بريقا شديدا في الوقت الذي كان جسمه كله في الظل. ولويت رقبتي بقدر ما سمحت لي أغلالي، وقلت له: «إنها تقع إلى الخلف».

وإذا أذنه تختفي وتظهر بطاعتيه!

واتسع فجأة ذلك الشق الذي صدر منه النور وإذا هو فرجة باب مفتوح، تقع خلفه ساحة بلون الياقوت الأزرق. وظهر على العتبة شبح مشكر انعكس سواده على الضوء.

وأجهدنا أعصابنا لنلتفت إلى الوراء، فلما أخفقنا جلسنا ورحنا ننظر إلى ذلك الشبح من فوق أكتافنا، وكانت أول صورة انطبعت

فى ذهنى له ، صورة مخلوق يشبع من ذوات الأربع له رأس منحنية إلى أسفل ثم أدركت أن هذا الجسم النحيل المتصوف النمو وذينك الساقين المتوســـتين الهزيلتين المفرطتين فى الهزال وتلك الرأس الغائرة بين الكتفين هى لمخلوق من تلك المخلوقات القمرية ، مخلوق لم يكن لابساً الخوذة ولا الثياب التى يغطون بها أجسادهم حين يخرجون إلى العراء .

ويدا لنا شبحاً لا معالم تبينه ، ولكن خيالنا أضفى على شكله البشرى بعض السمات ، وأنا بالذات اتضح لى لفورى أنه كان أحدب الظهر قليلا وأن له جبيناً عريضاً وسمات طويلة .

وسار ثلاث خطوات إلى الأمام ثم وقف لحظة ، ولم تحدث حركته أية ضوضاء على ما بدا منها ، وتابع سيره مرة أخرى ، فكان يلق قدما أمام الأخرى كما يفعل العصفور ، وتوارى شبحه عن شعاع النور المنبعث من المدخل ، فخيل إلينا أنه اختفى مرة واحدة خلال الظل .

وراحت عيناى تبحثان عنه فترة من الوقت فى مكان غير الذى كان فيه ، ثم أبصرته واقفاً قبالتنا فى وضح النور ، ولكن السمات البشرية التى أضفيناها عليه لم تكن فيه البتة .

كان على أن أتوقع ذلك بطبيعة الحال ، ولكنى لم أتوقعه ، وكان فيه صدمة لى . صدمة كاملة عنيفة رغم أنها لم تدم إلا لحظة قصيرة . ويبدو أن ما ظننته وجهاً لم يكن كذلك كأنه يتحتم أن يكون الوجه قناعاً أو شيئاً مرعباً أو مسخاً يقضى أن أتنصل منه فى الحال أو أقره

ذلك أنه لم يكن له أنف بل كانت له عينان جاحظتان جامدتان فى وضع جانبى ظننتهما أذنين حين انعكس شبحه الأسود فى الضوء ... حاولت أن أرسم تلك الرءوس ولكنى أخفقت . كان ثمة فم منحنٍ إلى أسفل كالفم البشرى فى وجه يكشر عن أنيابه . وكان العنق التى ترتكز عليها الرأس ثلاثة اتصالات تكاد تشبه المفاصل القصيرة فى ساق السرطان ، ولم أستطع رؤية مفاصل الأطراف بسبب الرباطات التى كانت ملفوفة حولها والتى تشبه أربطة الساق وكانت هذه الرباطات هى كل ما يلبسه هذا المخلوق .

ولبث الشبح واقفاً ينظر إلينا

وكان تفكيرى فى ذلك الوقت منصرفاً إلى استحالة وجود هذا المخلوق وفى ظنى أنه هو أيضاً كان مندهشا ، ولعلى أجد له عذراً فى ذلك أكثر منى ولكن اللعين لم يبد دهشة . ونحن على الأقل — نعرف سبب مقابلة هذه المخلوقات المتناقضة لنا . ولكن تخيل على سبيل المثال عدداً من سكان لندن الوقورين يقابلون مخلوقين لهما قامة الرجال ولكنهما لا يشبهان أى حيوان أرضى معروف ، فماذا يكون وقع الأمر عليهم وهم يرونهما يعدوان وسط الخراف فى هايد بارك . ولابد أنه كان لمنظرنا هذا الوقع ذاته على ذلك الشبح .

وتخيل شكلنا ! لقد كنا موثقى الأيدى والأقدام ، منهكى القوى متسخين ، وقد طالت لحيتانا بوصتين وامتلأت وجوهنا بالخدوش والدماء ، ويجب أن تتمثل كافور فى سرواله القصير وقد تمزق فى مواضع كثيرة بفعل الأحراش المستنة ، وفى قميصه الذى من نوع الجيجر

وقبعة الكريكت وشعره الأشعث الذى يشبه الأسلاك وقد تدلت منه خصلات أربعة فى اتجاه الجهات الأربع . وبدا وجهه فى ذلك الضوء الأزرق الخافت شديد الظلام بدل حمرته ، كما بدت شفتاه والدم المتجمد على يديه فى لون أسود . ولعل كنت فى حالة أسوأ بسبب القطر الأصفر الذى كنت قد قفزت فيه ، وكان معطفانا غير مزررين وقد خلعنا أحذيتنا ووضعناها عند أقدامنا ، وكنا جالسين وذلك الضوء الأزرق الغريب الخافت خلف ظهورنا وأنظارنا محدقة فى ذلك المسخ الذى كان يمكن لمورد أن يخترع مثله .

وقطع كافور السكون وشرع يتكلم ولكن صوته خرج مبحوحا ، فتنحنح وبدأنا نسمع خواراً مرعباً من الخارج كأن أحد تلك الوحوش قد وقع فى ضائقة . وانتهى ذلك الخوار بصياح أعقبه السكون مرة أخرى .

والتفتت المخلوقات القمرية إلى الوراء فى الحال ثم رفعت أجسامها وانتقلت إلى الظل ، ووقفت تتأمل لحظة عند الباب وأخيراً أغلقته علينا وإذا نحن مرة أخرى نجد أنفسنا فى ذلك الظلام الغامض المتجهم الذى صحونا فيه من غيبوبتنا .

الفصل الثالث عشر

المستر كافور يدلى ببعض المقترحات

وانقضت فترة انقطع فيها كلانا عن الكلام ، فقد كان تجميع هذه الأمور التى جلبناها على رءوسنا فوق طاقة قوانا العقلية .

وقلت فى النهاية : « لقد تمكنوا منا » .

— لقد كان ذلك القطر هو السبب .

— أجل ، ولكننى لو لم أتناوله لأغمى على ومت جوعاً .

— ولوجدنا الكرة .

واحتد غضبى لإصراره ورحت أغلظ الإيمان لنفسى ، وظللنا زمنا ونحن نكن الكراهية الواحد للآخر فى صمت . وأخذت أنقر على الأرض بأصابعى بين ركبتى وأحك حلقات أغلال قدمى ببعضها . وسرعان ما وجدت نفسى مجبرا على العودة إلى الحديث .

فقلت : « ماذا تستخلص من هذا ، على أية حال ؟ » .

فقال : « إنهم مخلوقات معقولة ولهم القدرة على الابتكار والتنفيذ فهذه الأنوار التى شاهدناها . . . . » .

وسكت عن الكلام ، فقد كان واضحاً أنه لم يستطع أن يستنتج شيئاً

وكان كلامه بعد ذلك اعترافاً منه بعجزه ، إذ قال : « هم على أية حال ، أكثر إنسانية مما يحق لنا أن نتوقع منهم . وأظن . . . . » .

وسكت عن الكلام ضجرا .

فقلت له : « تظن ماذا ؟ » .

فتابع قوله : « أظن على أية حال ، أنه حيثما وجد حيوان ذكى على أى كوكب من الكواكب ، فمن شأنه أن يحمل غلاف دماغه فوقه ، وأن يكون له يدان ويسير منتصب القامة » .

وتحول من فوره إلى موضع آخر ، فقال : « نحن فى أحد الطرق الداخلية ، أعنى أننا قد نكون على بعد ألف ميل أو أكثر من سطحه » .

وسألته : « لماذا ؟ » .

— لأن الجو هنا أكثر برودة وأصواتنا أعلى . أما ذلك الضعف الذى لازم أصواتنا فقد ذهب كلية ، وكذلك الإحساس الذى كنا نحسه فى الآذان والحلق .

لم أكن قد لاحظت ذلك ، وقد لاحظته عندئذ .

— والهواء أشد كثافة ، فلا بد أننا على عمق كبير ، قد يبلغ ميلا ، أو لعلنا . . . . داخل القمر .

— لم يخطر ببالنا قط عالم داخل القمر .

— كلا .

— كيف كان يمكننا التفكير فى ذلك ؟ .

— كان يمكننا أن نفعل . ولكن . . . يعتاد المرء عادات ذهنية .

وراح يفكر بعض الوقت ثم قال : « والآن يبدو الأمر واضحا » .

وتابع حديثه : « أمر طبيعى ! لا بد أن يكون فى القمر أغوار هائلة الحجم ولا بد أن يكون فى داخله هواء جوى ، وأن يكون فى وسطه بحر ، فقد عرفنا أن للقمر كثافة نوعية أقل مما للأرض ، وقد عرفنا أنه يكاد لا يحتوى على أية كمية من الماء والهواء خارجه ، وقد عرفنا أيضا أنه كوكب شقيق للأرض ، وأنه ليس ثمة سبب يجعله مختلفا عن الأرض فى تركيبه . وذلك الاستدلال بأنه قد اقتطع من الأرض استدلال واضح كوضح النهار ، ورغم ذلك لم يذهب أحد إلى أن تلك حقيقة ، وكبلر بطبيعة الحال . . . » .

وكان صوته ينم عن رضا الرجل الذى اكتشف سلسلة طيبة من الاستدلالات .

واستطرد يقول : « أجل ، لقد كان لكبلر فى نهاية الأمر الحق فى نظريته الخاصة بحركات الكواكب السيارة .

وقلت له : « كنت أود لو أنك تكلفت مشقة اكتشاف هذه الأمور قبل مجيئنا إلى القمر » .

فلم يحر جوابا ، وراح يطن لنفسه طنينا خافتا وهو يتابع أفكاره ، وحدقت به ذرعا فسألته :

— ماذا تظن حدث لكرتنا ، على أية حال ؟

— لقد ضاعت . .

فلما كرجل يجيب على سؤال لا يروقه .

— وهل ضاعت وسط تلك الزروع ؟

— إن لم يكونوا قد عثروا عليها .

— ثم ماذا ؟

— كيف لى أن أتنبأ .

وقلت له فى شىء من المرارة : « يبدو أن الأمور تسير سيرا حسنا فيما يتعلق بشركتى ..... » .

فلم يجبنى بشىء .

وصحت : « يا إلهى ! يحقك فكر فى جميع هذه المتاعب التى تكبدناها فى وقوعنا فى هذه الورطة . لم أتينا ؟ وما هو هدفنا ؟ ماذا يعنى القمر لنا أو ماذا نعنى نحن للقمر . أردنا أشياء « كبارا » ، وحاولنا القيام بأمور جسيمة ، مع أنه كان ينبغى علينا أن نبدأ بالأعمال الصغيرة أولا . أنت الذى اقترحت القمر ! وتلك الستائر اللفافة الكافورية ، وكان بوسعنا أن نستخدمها لأغراض كوكبنا الأرضى . أؤكد لك . هل فهمت حقيقة ما اقترحته على ؟ اسطوانة فولاذية ..... » .

فقاطعنى وقال : « هراء ! » .

وسكتنا عن الكلام .

واستمر كافور وقتا يتحدث حديثا انفراديا متقطعا دون الاستعانة بى

وبدأ بالقول : « لئن وجدوها . إن وجدوا الكرة فماذا يمكنهم أن يفعلوا بها ! أجل ، هذه مشكلة ، لعل هذا هو المشكل فى الأمر ، أنهم لن يفهموها على أية حال . لأنهم لو فهموا لأتوا إلى أرضنا منذ

زمن بعيد . أكانوا يفعلون ؟ ولم لا ؟ ولكنهم لو . . . لأرسلوا شيئاً . لما أحجموا عن أمر محتمل كهذا . كلا ! على أنهم سوف يفحصونها . من الواضح أنهم أذكياء محبون للاستطلاع . سيفحصونها ويدخلونها ويعبثون بالأزرار . وعندئذ ! إن معنى ذلك أننا سنصبح رهينة التمريخية القمر بما لها من مخلوقات غريبة ... ومعارف غريبة ... » .

وقاطعته فقلت : « أما فيما يتعلق بالمعارف الغريبة . . . . » ولكن اللفة لم تسعفنى .

وقال : « التفت يا بدفورد ، إنك فى بهذه الرحلة بمحض إرادتك وحريتك .

— ولكنك قلت لى إنها سوف تكون البحث .

— البحث ينطوى على المخاطرة دائما .

— ولا سيما عندما تقوم به وأنت أعزل من السلاح ودون أن تفكر فى جميع الاحتمالات .

— لقد طغت الكرة على تفكيرى ، إنها أقحمت نفسها علينا وحملتنا بعيداً .

— لعلك تعنى : أقحمت نفسها على أنا .

— وأقحمت نفسها على بالقدر ذاته . كيف كان فى استطاعتى أن أعرف أننى حين شرعت أدرس طبيعة الجزيئيات ؟ ستصل بى الدراسة إلى هنا ، دونا عن سائر الأمكنة .

وصحت به : « إنه هذا العلم اللعين . إنه الشيطان ذاته . لقد كان

قساوسة القرون الوسطى ومضطهدو العلماء على حق . أما المصريون فجميعهم فى ضلال . تحرش به يضحك الهبات ، فلا تفتأ تحرزها حتى يحطمك إربا بطريقة لا تتوقعها . إنه يحارب عواطفك القديمة بأسلحة الجديدة ـ وهو تارة ينقلب على دياناتك وطوراً على آرائك الاجتماعية ومرة أخرى يطيح بك إلى حيث الهجران والبؤس » .

فأجاب كافور : « لا جدوى من تشاجرك معى الآن ، على أية حال فقد استطاعت هذه المخلوقات أو هؤلاء القمريون أو سمهم ما شئت استطاعت أن تغل أيدينا وأرجلنا ، ومهما يكن مزاجك الذى تختار أن تقابل به هذه الأشياء فعليك مواجهتها . . . وأمامنا الآن أعمال تقتضى منا استخدام جميع ما لدينا من رزانة » .

وسكت عن الكلام كأنى به يطلب منى أن أؤمن على قوله ، ولكنى جلست ضجرا وقلت له : « سحقا لعلمك ! » .

فأجابنى بقوله : « مخاطبتهم هى المشكلة . لأنى أخشى أن تختلف الإيماءات بيننا وبينهم . خذ على سبيل المثال الإشارة ، فليس ثمة مخلوقات تستخدمها سوى الإنسان والقرد » .

وكان واضحا تماما أن ما قاله خطأ ، فقلت له : « كل حيوان يكاد يستعمل عينيه أو أنفه للإشارة » .

وجعل يتأمل فيما قلت ثم أجاب فى آخر الأمر : « أجل ، ولكننا لا نفعل ذلك . هناك اختلافات كثيرة . . . اختلافات كثيرة » .

ثم استطرد بقوله : « قد يفعل الإنسان ذلك ، ولكن كيف لى أن

أعرف ذلك ؟ وهناك الكلام . أما الأصوات التى يحدثونها فهى نوع من الترمير والتصفير . ولا أرى كيف يمكننا أن نقلدهم فى ذلك ؟ . أهو كلامهم ؟ قد يكون عندهم حواس وطرق للتخاطب تختلف عما عندنا ، ولا شك فى أنهم نفوس مفكرة شأننا سواء بسواء . لذلك لابد أن يكون ثمة عامل مشترك بيننا ، ومن يدرى أننا سوف لا نقطع شوطا بعيداً فى الوصول إلى التفاهم ؟ » .

فقلت له : « إنهم فوق إدراكنا . إنهم يختلفون عنا أكثر مما يختلف أعجب حيوان على الأرض . إنهم من جبلة أخرى ، فما جدوى هذا الحديث ؟ » .

وراح كافور يفكر ثم قال : « لا أرى رأيك . حيثما وجدت عقولا ألفيت تشابها بينها ، حتى وإن حدث التطور على كواكب مختلفة وبالطبع إذا كانت المسألة تتعلق بالغرائز ، وإذا كنا نحن أو هم مجرد حيوانات . . . . » .

قاطعته : « أجل ، أهم حيوانات ؟ إنهم أكثر شبها بالنمل ، من حيث أرجلهم الخلفية ، منهم بالبشر ، ومتى استطاع التفاهم مع النمل ؟ » .

وقال : « ولكن هذه الآلات والملابس . كلا يا بدفورد ، لست معك فى الرأى . الاختلاف كبير . . . » .

قاطعته : « إنه اختلاف لا يمكن التغلب عليه » .

فقال : « يجب أن يتغلب عليه التشابه بيننا . أذكر أنى قرأت مرة بحثا كتبه المغفور له الدكتور جلتن عن إمكانية التخاطب

بين الكواكب ، ولسوء الحظ لم يكن يتوقع لذلك البحث – على ما يبدو – أية فائدة مادية لى فى ذلك الوقت ، ولم أعره فى حقيقة الأمر الاهتمام الواجب ، بسبب الأحوال الجارية حينذاك . أما الآن ، فدعنى أفكر .

« وكان جلان يرى أنه يجب البدء بالحقائق الكبرى التى يستند إليها جميع ما يخطر على البال من الكائنات العقلية ، ثم نبنى أساساً عليها ، ولنبدأ بالمبادىء الهندسية الكبرى . واقترح جلان أن يبدأ بفرض أولى من فروض إقليدس ، ويبرهن بالعمل الهندسى على أنه حقيقة معروفة ، كأن نبرهن مثلا على أن زاويتى المثلث المتساوى الساقين متساويتان ، وأنه إذا مد الضلعان المتساويان على استقامتهما فإن الزاويتين الخارجتين الواقعتين على الجانب الآخر من القاعدة متساويتان ، أو أن مساحة المربع المقام على وتر المثلث القائم الزاوية تعادل مساحة المربعين المقامين على الضلعين الآخرين من المثلث . وإذا برهنا على معرفتنا بهذه الأشياء ، أمكننا حتماً البرهنة على أننا نملك عقلا ذكياً يفهم ويستنتج . . . ولنفرض الآن أنى . . . يمكننى رسم الشكل بأصبع مبتل أو حتى فى الهواء . . . . » .

وسكت عن الكلام ، وجلست أتأمل أقواله ، وقد تملكنى فترة من الوقت الأمل الذى كان يحدوه للتخاطب مع هذه المخلوقات السمجة وتفسير لغتها ، ثم عاودنى ذلك اليأس القاتم الذى كان جزءاً من إحباطى ويؤسى الجسمانيين ، وشعرت بحيوية جمالية جديدة تغمرنى وتبصرنى بطيشى الزائد عن حده المتجلى فى كل ما قمت به من أعمال ، ورحت

أردد لنفسى : « بالطبع ! آه ما أعجز الألفاظ عن التعبير عن حنق وكأنى لم أخلق إلا لأتجول بين الكواكب مرتكباً الحماقات . لم كان تركنا للكرة ؟ تقفز حوالينا فى فوهة القمر بحثاً عن متع وامتيازات وحقوق . . . لو أنه كان لنا ذرة من العقل فنربط منديلا فى رأس عصا نستدل به على الموضع الذى تركناها فيه ! » .

وانتهيت من تفكيرى هذا وأنا أستشيط غضباً .

وراح كافور يتكلم ملياً ويقول : « من الواضح أنهم أذكياء ، ويستطيع الإنسان أن يفترض نظريات معينة ، وبما أنهم لم يقتلونا فلابد أن لديهم فكرة عن الرحمة . الرحمة ! بأية درجة من درجات كبح جماح النفس ، ويحتمل أن يكون لديهم آراء عن التخاطب ، وقد يريدون مقابلتنا ، أضف إلى ذلك ، هذا المكان وما تحتاه من حارسه ، وهذه الأصفاد ! إنها تدل على أنهم على درجة عالية من الذكاء ... ! » .

وصحت : « أدعو الله ! لقد فكرت فى الأمر مرتين ! طفرة بعد طفرة . بدأ بى الحظ مرة وعاودنى أخرى ، ولكن الحافز ثقتى بك ! لم لم ألزم مسرحيتى ؟ فهى ما كنت كفؤاً له . فالكتابة خالقى وما خلقت إلا لها . لقد كان فى مقدورى الانتهاء منها . إنى لتأكد من ذلك . كانت مسرحية جيدة ، وكنت أنتهى من عمل مناظرها . وبعد ذلك تخيل المسألة ! أقفز إلى القمر ! فى الواقع إنى جازفت بحياتى ! لقد جازفت بحياتى ! لقد كانت امرأة الفندق من كانتربرى أعقل منى » .

ورفعت عينى إلى أعلى ولم أكمل الجملة فقد عاد ذلك الضوء الأزرق

الخافت يحل محل الظلام مرة أخرى . ذلك أن الباب انفتح ودخل إلى الغرفة دون ضوضاء عدد من المخلوقات القمرية . فلم أسترسل فى الكلام بل مضيت أحدق النظر فى وجوههم السمجة .

وعند ذلك انقلب إحساسى الغريب فجأة إلى اهتمام ولاحظت أن أولهم والذى يليه كانا يحملان أوعية كروية ، وقد استطاعت عقولنا وعقولهم أن تشترك فى إدراك العنصر الأساسى الذى هى فى حاجة إليه كانت الأوعية مصنوعة من معدن بدا فى ذلك الضوء الأزرق الخافت فى لون أسود شبيه بأغلالنا ، وكان كل واحد منها يحتوى على قطع فى لون مائل إلى البياض . أما الألم واليأس المبهمين اللذين كانا ينتابانى ، فقد تسارع كلاهما إلى اتخاذ صفات الجوع ، ومضيت أنظر إلى الأوعية بنهم وبالرغم من أن ما رأيته قد طاردنى فى الحلم ، فقد بدا لى أمراً تافهاً فى تلك الساعة أن أشاهد الذراعين اللتين قدمتا لى تتثنيان بهدب وإبهام كما يتثنى خرطوم الفيل ، ولكنهما لا تنتهيان بيدين .

وكانت المادة التى فى الوعاء رخوة وفى لون بنى يميل إلى البياض وتكاد تشبه كتلا من نوع من الهلامة الباردة ولها رائحة تقرب من رائحة الفطر . وأكاد أعتقد أنها صنعت من لحم الوحوش القمرية بلا شك ، ودليلى على ذلك تلك الجثة المجزأة لذلك الحيوان الذى رأيناه من وقت قريب .

وكانت يداى مغلولتين بإحكام جعل من الصعب على محاولة الوصول إلى الوعاء ، ولكنهم ما أن رأوا الجهد الذى بذلته ، حتى عمد اثنان منهم إلى إرخاء إحدى اللفائف التى أحاطت بمعصمى وشعرت ببرودة

أهداب أيديهم وتعومتها ، وهى تلامس جسمى ، وسرعان ما تناولت لقمة من الطعام ، وكان مائعا فى مادته أسوة بسائر المركبات العضوية التى على سطح القمر ، وكان طعمه كالبقساط أو قشدة الفطائر الرطبة ولكنه كان سائغا على أية حال ، وتناولت لقمتين أخريين ، ثم انتزعت قدراً كبيراً منه وأنا أقول : « لقد أحببت الطعام ... »

وكنا نأكل بغير وعى واستمر ذلك بعض الوقت ، ثم رحنا نأكل ونشرب كما يفعل المشردون فى مطاعم الشعب ، وكان إحساسى بالجوع فى ذلك الوقت بصورة لم أشعر بها قط قبل ذلك الوقت أو بعده ، ولو لم تمر على هذه التجربة لما صدقت أبداً أنه قد يتوافى لى أن أتناول طعاما وأنا فى حالة نسيان تام لما يحيط بى ، على بعد ربع مليون من الأميال من عالمنا الأرضى ، فى حيرة نفسية تامة ، تحيط بنا وتراقبنا وتلامسنا مخلوقات أسمج وتفوق فى انحطاطها عن البشر أبشع الخيالات التى يصورها لنا الكابوس . وقد وقفت هذه المخلوقات حولنا تراقبنا وكانت بين الفينة والفينة تحدث زقزقة خافتة طفيفة ، تقوم عندهم فى مقام الحديث . ولم يقشعر جسمى حين لامسونى ، وعندما انتهيت من حرارة الأكل الأولى ، أمكننى أن ألاحظ أن كافور أيضاً كان منغمسا فيه مثلى دون أن يخجل .

الفصل الرابع عشر

تجارب فى التخاطب

وما أن انتهينا من الطعام أخيرا حتى عاودوا ربط أيدينا ببعضها بإحكام ، ثم فكوا الأصفاد التى تغل أرجلنا وأعادوا إقفالها من جديد ليتركوا لنا مجالا للتحرك بحرية . وأخيرا حلوا السلاسل التى حول وسطنا وكان لا بد لهم من ملامستنا وهم يفعلون ذلك ، فكان أحد أصابعهم ينزلق على وجهى بين الفينة والفينة ، أو تلامس عنقى ورأسى تلك الأهداب الرخصة التى تقوم مقام اليد ، ولا أذكر أنى خفت آنئذ أو نفرت لقربهم منى ، وأظن أن تركيب جسمنا الإنسانى الذى لا يمكننا على شىء بصدده ، جعلنا نتخيل أن بداخل أقنعتهم رءوساً بشرية ، وكانت بشرتهم تبدو فى لون أزرق طفيف شأن كل شىء آخر هناك وهذا بسبب الضوء ، وكانت صلبة لامعة تكاد تشبه جناح الخنفساء كما أنها لم تكن طرية أو مبللة أو شعرية كما هو حال الحيوانات الفقرية وكان على قمة الرأس حجرة مكونة من الفقرات الثلاثة إلى الباحش ، تمتد من الخلف إلى الأمام ، وحجرة أخرى أكبر من سابقتها تتقوس فوق العينين على الجبين . والمخلوق القمرى الذى حل وثاقى استدار بفمه مع يديه .

وقال كافور : « يبدو أنهم يفكون وثاقنا . تذكر أننا على القمر

ولا تقم بحركات فجائية » . فقلت له : « أأنت مزمع على تجربة هندستك؟ »

فقال : « إذا أتيحت لى الفرصة ، ولكنهم قد يفرقونا فى ذلك » .

وظللنا فى موقف سلبى . وما انتهى القمريون من ترتيباتهم حتى وقفوا خلفنا . وهم يبدون وكأنهم ينظرون إلينا . وأقول : إنهم كانوا يبدون ، كذلك ، لأن أعينهم على جانب رءوسهم وليست فى مقدمتها ، مما ينشأ عنه صعوبة فى الجزم بالجهة التى ينظرون إليها ، وهى ذات الصعوبة التى تعترضنا فى حالة الدجاجة أو السمكة . وكانوا يتجاذبون أطراف الحديث الواحد مع الآخر بأنغامهم التى تحاكى الصفير على الغاب ، وبدت محاكاته أو تعريفه أمراً صعبا . وانفتح الباب خلفنا بفرجة أكبر من سابقتها ، ولحت من فوق كتفى فناء كبيراً مطموس الجوانب ، يقع إلى الوراء كان يقف فيه عدد غير قليل من هذه المخلوقات التى بدت كأنها شرذمة من الغوغاء متنوعة تنوعا غريبا .

وقلت لكافور : « أيراد منا محاكاة هذه الأصوات ؟ » .

— لا أظن ذلك .

— يبدو أنهم يحاولون أن يفهمونا شيئاً من الأشياء .

— لا أستطيع فهم شىء من إيماءاتهم . هل لاحظت هذا المخلوق الذى قد أقلقه رأسه ، كرجل يلبس طوق رقبة غير مريح ؟

— دعنا نهز رءوسنا له .

وقد فعلنا ذلك ، ولكن دون جدوى . فحاولنا محاكاة إحدى الحركات التى كانوا يأتونها . وربما كان ذلك استرعى اهتمامهم لأنهم

أتوا بالحركة ذاتها على أية حال . على أننا فى نهاية الأمر أقلعنا عنها لأنها لم تأت بنتيجة ، ولذلك كفوا عنها هم أيضاً . ثم دخلوا فى جدل تصفيرى فيما بينهم . وقام أحدهم وكان أقصرهم قامة وأسمنهم ويمتاز بفم واسع على الأخص . فجلس القرفصاء ، على حين غفلة متخذاً مجلسه بجانب كافور ، ثم وضع يديه ورجليه فى ذات الوضع الذى كان عليه كافور ، وبعد أن أتى بحركة عكسية نهض واقفاً .

فصحت : « إنهم يريدون منا أن نقف يا كافور » .

فقال : وقد فغر فمه وصوب نظره إليهم : « هذا صحيح ! » .

وأفلحنا بعد لأى فى الوقوف على أقدامنا ، وذلك بعد كثير من الزمجرة ومحاولات النهوض بسبب غل أيدينا وأقدامنا . ويبدو أن المخلوقات القمرية قد أفسحت الطريق لهذه المحاولات التى تشبه حركة الأفيال فى نهوضها من الأرض . وبدوا كأنهم يتحركون بطلاقة أكثر من ذى قبل . ولما وقفنا عمد سمينهم إلى مداعبة وجوهنا بأهدابه ، وسار إلى الباب المفتوح ، وكانت هذه الحركة منه واضحة بما فيه الكفاية قبعناه . ولاحظنا أن أربعة من المخلوقات التى كانت تقف عند المدخل تفوق الباقين فى الطول . وكانت تتزيا بزى المخلوقات التى رأيناها عند الفوهة . أعنى أنها كانت ترتدى الخوذات المستديرة المسننة والغلاف الأسطوانى حول أجسادها ، كما كان كل واحد منها يحمل منخساً بسنان وترساً مصنوعاً من المعدن القاتم ذاته الذى صنعت منه أوعيتهم . وأطبق الأربعة علينا ، واحداً من كل جانب ، وذلك عند خروجنا من الغرفة التى كنا فيها إلى المغارة التى كان الضوء ينبثق منها .

ولم نحط علماً بتلك المغارة دفعة واحدة فقد كان انتباهنا كله موجهاً إلى حركات تلك المخلوقات المحيطة بنا مباشرة ومواقفها وضرورة ضبط سيرنا وفقاً لسرعة سيرها ، خشية أن نزعجها ونخيفها ونزعج فى ذات الوقت أنفسنا إذا خطونا خطوة أوسع منها . وكان يتقدمنا ذلك المخلوق القصير السمين الذى توصل إلى طريقة تحملنا على القيام ، وقد راح يومىء إلينا إيماءات بدت جلها مفهومة ودلت على أنه يريد منا أن نتبعه . وكان وجهه الذى يشبه فم الإبريق ينتقل من واحد منا إلى الآخر بسرعة تحملنا على التساؤل بلا شك ، ومضى وقت شغلتنا فيه هذه الأمور كما قلت آنفاً .

واستقرت فى ذهنى أخيراً معالم ذلك المكان الرحب الذى كان ميداناً لحركاتنا وأصبح من الواضح أنه مصدر قدر كبير على الأقل ، من الأصوات المختلطة التى ملأت أسماعنا منذ أفقنا من تخدير ذلك الفطر . كان كتلة واسعة الإمتداد من الآلات فى حركة دائبة ، وكانت أجزاؤها الدائرة المهولة ظاهرة فى غير وضوح من فوق رءوس تلك المخلوقات القمرية التى تسير حولنا ومن خلال المسافة التى تفصل الواحد عن الآخر . ولم يكن مصدر تلك الشبكة الصوتية التى ملأت الهواء هو هذه الآلات فحسب بل ذلك الضوء الأزرق الغريب الذى كان يشع فى أرجاء المكان أيضاً . وقد اعتبرناه أمراً مسلماً به أن تضاء المغاور الجوفية إضاءة صناعية ، ولم أدرك مدلول هذه الحقيقة ، حتى فى هذه الساعة ، رغم وضوحها لعينى ، إلا حين أطبق الظلام بغتة . ليس فى وسعى أن أوضح تركيب هذا الجهاز الضخم الذى شهدناه ، ولا فهم معناه لأن

أحداً منا لم يعرف الغرض منه ولا طريقة عمله ، وكانت تخرج من وسطه أعمدة معدنية كبيرة ، تتتالى من فوقه الواحد بعد الآخر ، فتسير رءوسها ، كما بدا لي ، في ممر مطابق لحجمها ، ويسقط من كل منها وهي ترتفع إلى القمة التي أطيحت منها ، شيء يشبه الذراع يتدلى ثم يهوي في أسطوانة عمودية يدفعها معه وهو يهوي إلى أسفل . وكان يتحرك حول هذه الأسطوانة أشكال كالصواريخ وأشباح صغيرة بدت مختلفة اختلافاً غامضاً عن المخلوقات المحيطة بنا . وكان يسمع رنين وجيء لكل ذراع من الأذرع المتدلية الثلاث التي للآلة ، وهو يغوص إلى أسفل . وكانت تلك المادة المتوهجة التي تنير المكان تنبثق من أعلى الأسطوانة العمودية ، وتسيل كما يسيل اللبن من فوق إناء يغلي ، ثم تتهاوى نقطاً مضيئة في صهريج من الضوء موجود أسفلها . وكان هذا الضوء نوراً أزرق بارداً شبيهاً بالوهج الفسفوري المتألق ولكنه يفوقه بريقاً بدرجة لا حد لها ، وكان يخرج من الصهاريج التي تساقط فيها فيجري في قنوات تمتد في عرض المغارة .

وكان يصدر عن أذرع هذا الجهاز المستعصي على الفهم صوت دائم متوال يقول : نض ، نض ، نض ، وتنساب المادة الضوئية محدثة صوتاً تنفسياً . وبدا لنا الجهاز لأول وهلة في ضخامة معقولة ، وعلى كثب منا ، ولكن حين تراءت لي المخلوقات القمرية التي عليه بأجسامها المتناهية في الصغر ، أدركت عظم ضخامة الآلة والمغارة . ونقلت بصري من هذا الجهاز الضخم إلى وجوه تلك المخلوقات التي صرت أكن لها احتراماً

جديداً ، فوقفت ووقف معي كافور ، وجعلنا كلانا يحدق النظر في تلك الآلة المدوية كالرعد .

وقلت : « إنها لشيء هائل ! ما الغرض منها يا ترى ؟ » .

وكان وجه كافور الشمع لونه ينم عن احترام مشوب بالذكاء ، وقال : « لا أستطيع تخيل عملها ! من المؤكد أن هذه المخلوقات . . . . ليس في قدرة البشر صنع شيء كهذا ، تأمل هذه الأذرع . أتراها ترتكز على قضبان متصلة ببعضها ؟ » .

وكان القمري السمين قد سار بضع خطوات دون أن يلتفت أحد إليه ، ثم عاد ووقف بيننا وبين هذه الآلة الضخمة ، وتحاشيت النظر إليه وذلك أني ظننت أنه سوف يوحي إلينا بمتابعة السير ، وتباعد عنا في الاتجاه الذي أردنا أن نسير إليه ، ثم رجع إلى الوراء ، وعاد إلينا ، وداعب وجوهنا على سبيل جلب انتباهنا .

وتبادلت النظرات مع كافور ، ثم قلت له : « ألا يمكننا أن نبين له أننا مهتمان بالآلة ؟ » .

فقال كافور : « أجل ، لنحاول ذلك » . وتحول نحو دليلنا فابتسم وأشار إلى الآلة ، ثم عاد يشير تارة إليها وتارة إلى رأسه ، وقاده تفكيره الخاطئ إلى الظن أن استعماله اللغة الإنجليزية ناقصة المقاطع قد يعينه على أداء هذه الإيماءات فقال : « أنا أتفرج عليها . أنا أظن أن هي عظيمة . نعم جداً » .

وأدى مسلكه هذا ، على ما يبدو ، إلى كبت رغبتهم ، إلى فترة ما ،

فى متابعة سيرنا ، فراحوا ينظرون إلى بعضهم البعض ويهزون رؤوسهم البنية وسرعان ما توالت زقزقتهم ، ومن ثم عد أحدهم وكان نحيفا ، طويل القامة ، يلبس ما يشبه الرداء على ساقيه زيادة على لفائف الساق التى يلبسها غيرهم — عد هذا إلى لف يده التى تشبه خرطوم الفيل ، حول وسط كافور ، وجذبه بلطف ليتبع الدليل الذى عاد إلى السير أمامنا .

وأبدى كافور مقاومة ، وهو يقول : « آن لنا أن نبدأ فى إيضاح موقفنا ، فقد يجول بخاطرهم أننا حيوانات جديدة ، أو نوع جديد من العجول القمرية وإنه لمن المهم جدا أن نبين لهم منذ البداية ، اتسامنا المنطوى على الذكاء » ومضى يهز رأسه بعنف ، وهو يقول بلهجته الإنجليزية الرديئة : « لا ، لا ، أنا لن أتحرك . دقيقة واحدة . أنا أقترح عليها » .

ورحت أسأله بينما كانت المخلوقات القمرية تتشاور معا : « أليس هناك موضوع هندسى يمكنك أن تبرزه ، عن هذه الآلة ؟ » .

فقال : « لعلى أستطيع شيئا من نوع القطع المخروطى » .

وأرسل صرخة عالية ووثب ستة أقدام أو يزيد .

وكان أحد الحراس الأربعة من رجال القمر قد وخزه بالحربة ، فالتفت بحركة سريعة مهددة إلى حامل الحربة الذى يقف خلفى ، فارتد هذا إلى الوراء . وأدهشتهم حركتى هذه بالإضافة إلى صرخة كافور ، ولكنهم سرعان ما عادوا إلينا ووقفوا قبالتنا ، ومرت علينا لحظة من اللحظات التى يخالها الإنسان أبدية . ونحن واقفون وقفة المحتج

المغضوب ، أمام هذه المخلوقات غير البشرية ، وقد تفرقت حولنا فى شكل نصف دائرة .

وقال كافور بصوت لا يكاد يسمع : « لقد وخزنى » .

فقلت له : « رأيته يفعل ذلك » .

ووجهت كلامى إليهم فقلت لهم : « يا لعنة ! لن نسكت على هذا ماذا تظنوننا بالله عليكم ؟ » .

وأرسلت نظرة عاجلة يمنة ويسرة ، وإذا أنا أرى على مسافة من التيه الأزرق فى المغارة ، عدداً آخر من المخلوقات القمرية تعدو نحونا ، وكانوا من ذوى الأجسام العريضة الطويلة . وامتاز أحدهم برأس تفوقهم جميعاً فى ضخامتها وراحت المغارة تتسع عرضا وعمقا ويطبق الظلام على جميع أرجائها . وأذكر أن سطحها بدا هابطا كأن الصخور الضخمة التى جلسنا وسطها قد تآلفت عليه ولم يكن لنا مخرج من هذا السجن ، لا مخرج . فقد أحدق بنا المجهول من جميع الأنحاء ، من فوقنا ومن تحتنا ، وهذه المخلوقات غير البشرية فى مواجهتنا ، نحن الرجلين الأعزلين من السلاح .

الفصل الخامس عشر

الجسر المهتز

لم تستمر تلك الفترة العدائية سوى لحظة واحدة . وفي ظني أن كلا الفريقين راح يفكر سريعا ، وكان الشيء الواضح الذي انطبع في فكري أكثر من غيره أني لن أستطيع أن أركن إلى أي شيء ، وأنه قد حكم علينا أن نحاصر ونقتل . وتجسم أمامي ذلك الطيش المطلق الذي أتى بي إلى هذا المكان في صورة سوداء من التأنيب الشديد ، وجعلت أسائل نفسي لم قمت بهذه الرحلة الجنونية إلى عالم غير بشري ؟

وزحف كافور إلى جانبي فوضع يده على ذراعي . وقد أضفت زرقة الضوء شحوبا جديداً على وجهه المزرع الأصفر .

وأنشأ يقول : « ليس في استطاعتنا عمل أي شيء . لقد أخطأت فهم لا يفهمان . ويجب علينا أن نسير كما يريدون »

وألقيت نظرة عليه وعلى العدد الجديد من المخلوقات القمرية التي خفت لمساعدة إخوانها ، وقلت له :

« آه لو كانت يداي مطلقتين ! »

فراح يلهث وهو يتكلم ، وقال : « لا جدوى في ذلك »

— كلا !

— سلمني .

والتفت إلى الوراء ، وسار قدامي في الطريق التي كانوا قد أشاروا إليها .

وتبعته محاولا أن أبدو مستقبلاً بقدر المستطاع ، ورحت أتحسس الأغلال التي حول معصمي . كان دمي يغلي ، فلم أعد أرى شيئاً من تلك المغارة . رغم أن عبورها بنا — قبل أن ننتهي منه — وكأنه سوف يستغرق وقتا طويلا . أو لعلي نسيت ما شاهدت ساعة مشاهدته . وكانت أفكاري قد ارتكزت ، في ظني ، على أغلالي والمخلوقات القمرية ، ولا سيما لابسي الخوذات وأصحاب الحراب . وكانوا في أول الأمر يسيرون في محاذاتنا وعلى مسافة تدل على احترامهم لنا ، ثم لحق بهم توءم ثلاثة آخرون فضيقوا الحصار علينا إلى أن صاروا على بعد ذراع منا . فجفلت حين اقتربوا كما تجفل الفرس عندما تضرب . وكان القصار والسمان منهم يسيرون في أول الأمر يميننا ولكنهم عادوا لتوهم يسيرون أمامنا .

ورسخت صورة ذلك الموكب رسوخا قوياً في ذاكرتي ، فكان كافور يسير أمامي مطاطأ الرأس بذراعيه المسترخيتين الفاقدي الحسة وإلى جانبه دليلنا ذو الوجه المشرق ، وهو لا يفتأ يقفز حوله من هذه الناحية ومن تلك ، وعلى جانبينا حاملو الحراب ، متثبهين فاغري الأفواه في جو ليس فيه إلا اللون الأزرق وحده على أني أذكر جيداً شيئاً آخر ، غير المسألة الشخصية البحتة . شيئاً يشبه الميزاب كان يمتد عبر أرض المغارة ثم يسير بعد ذلك في محاذاة الطريق الصخري الذي كنا

تسلكه ، ولكن يسبح فى ذلك الضياء الأزرق الذى كان ينساب من تلك الآلة . كنت أسير بجانب ذلك الشىء تماماً وأستطيع أن أقول أنه لم يشع ذرة واحدة من الحرارة . لقد كان بريقه لامعا ومع ذلك لم تكن تختلف عن أى شىء فى تلك المغارة سواء فى الدفء أو البرودة .

ومررنا تحت الروافع الدقاقة لآلة كبيرة أخرى لها رنين الأجراس لا تفتأ تقول : كلنج ، كلنج ، كلنج . ووصل بنا المطاف أخيراً إلى نفق رحب استطعنا أن نسمع فى أرجائه وقع أقدامنا الحافية ، وكاد يكون مظلما ، إذا استثنينا الخيط الضوئى الأزرق المتقطر ، وكانت الأشباح ترسم صوراً مقلوبة ضخمة لأشكالنا وأشكال المخلوقات القمرية ، على الحائط المتعرج للنفق وعلى سقفه . وكان بجدران النفق بلورات لا تفتأ تتلألأ كالجواهر ، ومابرح النفق يتسع فيتحول إلى كهف تملؤه الرواسب الجيرية التى تبدو فى شكل الجليد أو تنطلق منها فروع تتلاشى فى الظلام .

ورحنا نهبط داخل ذلك النفق واستغرق ذلك منا وقتا طويلا على ما يبدو ، وذلك الضوء القياض لا يفتأ يتقاطر بهدوء . ووقع أقدامنا وصداها ما برحا يرسلان صوتا غير منتظم . واتجه تفكيرى على مسألة أغلال فإذا تيسر لى أن أنزع القيد على هذه الصورة وأثويه على هذه الصورة . . . .

وإذا حاولت أن أنجز هذا العمل بالتدريج ، فهل سيقتلوننى إلى تخلص معصمى من القيد غير المحكم ، وماذا سيفعلون بى إذا هم رأونى .

وقال كافور : « إن الطريق يهبط بنا ، يا بدفورد ، يهبط باضطراد . »

وأقلقنى ملاحظته ما كان يشغل فكرى من هواجس كثيبة .

وقال وهو يسير فيتخذ مكانه فى محاذاتى : « لو كانوا أرادوا قتلنا لما وقف فى سبيلهم سبب يمنعهم من ذلك » .

وأجبت مؤمنا على قوله : « كلا . . هذا صحيح » .

وعاد يقول : « إنهم لا يفهموننا ، ويظنون أننا لسنا سوى حيوانات غريبة مسترذلة على الأرجح من نوع وحشى من الحيوانات القمرية . ولن يدركوا أن لنا عقولا إلا إذا راقبونا مراقبة أتم » .

وقلت له : « قد يبدأون فى فهمنا حين نرسم مسائلك الهندسية » .

فقال : « قد يكون ذلك صحيحاً » .

وتابعنا سيرنا مسافة .

وعاد يقول : « لاحظ أنهم قد يكونون نوعاً منحطا من المخلوقات القمرية » . .

فقلت كلاما بذيئاً وأنا أوجه إلى وجوههم المخيفة نظرة عاطفة : « يالهم من حمقى جهنميين » .

— إن تحملنا ما يفعلونه بنا . . .

— لابد لنا من تحمله .

وعاد يقول : « قد يوجد من هم أقل غباء منهم ، فليست هذه إلا الحدود الخارجية لعالمهم ولا بد أنها تأخذ فى الهبوط إلى أسفل فأسفل من مغارة إلى ممر إلى النفق إلى أن تصل البحر على عمق مئات من الأميال » .

وذكرني كلامه بالصخور والأنفاق التي قد تمتد حتى تلك الساعة إلى ميل أو ما يقاربه فوق رءوسنا . وقد كان ذلك أشبه بثقل سقط على كاهلي وقلت له : «إن متجها على عمق نصف ميل لحسب بسبب ضيق النفس فضلا عن بعده عن الهواء والشمس».

فقال : «ولكن هذا المكان ليس مكتوم الهواء على أية حال . يحتمل أن ... ؟ تهوية . من شأن الهواء أن يهب من الجانب المظلم من القمر إلى الجانب النير . وعلى ذلك يندفع غاز الكربون إلى هناك ليغذي تلك النباتات . وفوق هذا النفق مثلا هبات نسيمية كافية . ما أعظمه من عالم . فضلا عما لنا من شغف بفتحة هذا المكان وبهذه الآلات ...».

وقلت متمما كلامه : «وبذلك المنحس . لا تنس المنحس».

ـــ حتى ذلك المنحس .

ـــ وما أمره ؟

ـــ غضبت في ذلك الوقت ، ولكن ... كان من الضروري على الأرجح أن نستمر في سيرنا ، ولهذه المخلوقات بشرة وأعصاب تختلف عما لنا وقد لا يفهمون معنى اعتراضنا ، كما قد يستاء مخلوق من المريخ إذا وكزناه بكوعنا لننبه ، كما هي عادتنا على الأرض ...

فقلت : «خير لهم أن يكونوا حريصين في طريقة وكزهم لي ..».

وعاد يقول : «أما تلك المنشبة ... فهم أيضا عندهم وسائلهم للفهم فهم يبدأون بعناصر الحياة ، وليس بالأفكار ... بالطعام والإيجاد والألم ، إنهم يهدفون إلى الأمور الأساسية ..».

فأمنت على كلامه قائلا : «لاشك في ذلك».

وتابع حديثه عن هذا العالم الهائل العجيب الذي سافرنا إلى داخله وتحققت من لهجة كلامه أنه لم يكن قط في يأس ، ولا في تلك الساعة ، من توقعه متابعة الهبوط إلى أعماق أخرى في ذلك الجحر القمري غير البشري ، ذلك أن رأسه كان مشبعا بالفكر عن الآلات والاختراعات ، لا يداخله شيء من آلاف الأمور التي كانت تقض مضجعي . ولم يكن قصده استخدام هذه الأشياء بل مجرد معرفتها .

وراح يقول : «هذه فرصة هائلة على أية حال . فنحن عند مفترق طرق عالمين . فما هي الأشياء التي سوف نراها ؟ فكر فيما يوجد تحتنا ..».

وقلت له ، مبديا ملاحظتي : «لن نستطيع رؤية الكثير إذا لم يتحسن الضوء ..».

فقال : «ما هذا إلا مجرد قشرة خارجية . أما المناطق السفلية .. على هذا المقياس ... ففيها كل شيء . ألم تلاحظ أنهم يبدون مختلفين الواحد عن الآخر ؟ يا لها من قصة نعود بها !».

وقلت : «قد يعزي نفسه بهذه الطريقة حيوان من الحيوانات النادرة وهم يسيرون به إلى حديقة الحيوان ... فلا يترتب على هذا أنهم سوف يأخذوننا لنرى جميع هذه الأشياء ..».

وراح كافور يقول : «حين يكتشفون أن لنا رءوسا مفكرة فسيحتاجون إلى معرفة أشياء عن الأرض ، وحتى إذا كانت تنقصهم العواطف الكريمة فسوف يعلموننا ليتعلموا منا ... وربالأشياء التي يجب عليهم أن يعرفوها ! الأشياء غير المنتظرة !».

ومضى يتأمل في إمكان وقوفهم على أشياء أرضية لم يكن لديهم أي أمل في الوصول إليها. كان يتأمل وهو ينظر إلى الجرح الحديث العهد الذي أصاب جلده من ذلك المتحس. ولقد نسيت الكثير مما قاله لأن اهتمامي كان منصرفاً عنه إلى النفق الذي كنا نسير فيه ولاحظت أنه أخذ يتفسح ويتسع وبدا من نوع الهواء الذي كان يلامسنا أننا كنا قد خرجنا إلى ساحة كبرى ولكننا لم نستطع أن نتبين عظم مساحتها لأنها لم تكن مضاءة، وكان الخيط الضوئي الرفيع يتناقص إلى أن تلاشى من فوق رؤوسنا، وإذا الجدران الصخرية التي كانت تقوم على جانبينا قد اختفت كلية، ولم نكن نرى إلا الطريق الممتد أمامنا. وذلك الضوء الأزرق المتقطع، ذلك النهر السريع الجريان، المتألق. وكانت أشباح كافور والمخلوقات القمرية تسير أمامي، كما كانت الأجزاء التي تواجه النهر من رؤوسهم وأرجلهم، فلون الزرقة الصافية البراقة. أما الأجزاء المظللة من أجسامهم فقد غرقت في قتام الظلام البعيد الذي لا تتميز فيه الأشياء، وذلك لأن جدران النفق التي كانت تعكس عليهم الضوء لم تعد تضيء عليهم.

وسرعان ما أدركت أننا كنا نقترب من أحد المنحدرات، وذلك لأن المجرى الضوئي الصغير يغوص متوارياً من الأنظار دفعة واحدة

وبعد لحظة أخرى كما بدا لنا كنا قد وصلنا إلى الحافة. وإذا ذلك المجرى الضوئي يختفي في تردد ثم ينطلق فوق المكان ويهبط إلى عمق يضيع فيه صوت سقوطه كلية. وخرج من المكان السفلي من عمق سحيق وهج مائل إلى الزرقة يشبه الضباب الأزرق. أما الظلمة التي خرج منها الشبح

الضوئي فقد أصبحت فراغاً أسود إذا استثنينا شيئاً يشبه اللوح برز من حافة الصخرة المشرفة على النبع وتمدد ثم تقلص ظله إلى أن اختفى كلية وكان الهواء الدافئ يهب إلى أعلى خارجاً من الهوة.

ووقفنا أنا وكافور لحظة على مقربة من الحافة بقدر ما استطعنا الاقتراب وكنا نطل إلى الزرقة التي في الأعماق السحيقة، وعندئذ جذبني حارسنا من ذراعي.

ثم تركني واتجه إلى طرف ذلك اللوح فوقف عليه وراح ينظر إلى الوراء ولكنه حين رأى أننا نراقبه دار على عقبيه ومشى على اللوح وكأنه يسير فوق أرض ثابتة الدعائم. وشاهدنا شكله بوضوح لحظة، ثم تحول إلى شبح أزرق مطموس وأخيراً اختفى وسط العتمة. وأحسست بوجود شبحه الغامض وهو يتراءى وسط الظلام.

ومرت فترة هدوء، ثم قال كافور: «بكل تأكيد!».

ومشى أحد المخلوقات القمرية على اللوح بضع خطوات، والتفت إلى الوراء ونظر إلينا في غير مبالاة، ووقف الآخرون على استعداد ليتبعونا. وعاد إلى الظهور شبح دليلنا، وهو يتوقع أمراً، وقد عاد ليرى لماذا لم نسرع في سيرنا.

وسألت: «ماذا أرى هناك؟»

فقال: «لا أستطيع الرؤية».

— لا يمكننا عبور هذا مهما فعلوا بنا.

— لن يمكنني السير عليه أكثر من ثلاث خطوات حتى وبدي

طليقة ورحنا نتبادل النظرات إلى وجهينا المطرقين فى رعب واضح .

وقال كافور : « إنهم لايعرفون معنى للحوار عندما يجب الإنسان .

ـــ إنه من المستحيل أن نسير على هذا اللوح .

ـــ لا أعتقد أنهم يرون الأشياء كما نراها ، فقد كنت أراقبهم . وإنى لأتساءل هل يدركون أن هذا ظلام قاتم بالنسبة لنا كيف تجعلهم يدركون ؟

ـــ يجب علينا أن نتصرم بالأمر على أية حال . »

وأظن أننا قلنا ذلك بحدونا أمل ضعيف أن هذه المخلوقات القمرية قد يتيسر لها بطريقة ما أن تفهم ، وكنت أعرف جيداً أن كل ما نحتاج إليه هو شرح بعض الأشياء لهم . ولكن حين وقع نظرى على وجوههم عرفت أن الشرح محال ، ومن ثم كانت أوجه الشبه بيننا عاجزة عن التقريب بين أوجه الاختلاف . أما أنا فلن أسير على اللوح على أية حال وأسرعت بنزع الطوق غير المحكم من يدى المغلولة ثم شرعت ألوى معصمى فى اتجاهين متضادين وبين أنا أفعل ذلك وكنت واقفاً بالقرب من القنطرة إذا اثنان من هذه المخلوقات يقبضان على ويجذبانى برفق فى اتجاهها

ورحت أهز رأسى هزاً عنيفاً وأنا أقول بلغة مفككة : « لا أذهب لا فائدة . أنتم لا تفهمون . »

وأنضم إليهم ثالث ليجبرنى على التحرك ، فاضطررت إلى السير إلى الأمام .

وقال كافور : « لدى فكرة . » ولكننى كنت أعرف ماهية أفكاره

وقلت للقمريين : « اتبعوا لى ، اتبعوا لى أما كنكم . أنتم لا يعنيكم شىء . . . . . »

وقفزت دائراً على عقبى ، ورحت أقذف اللعنات ، فقد طعننى واحداً منهم بمنخسة من الخلف .

ولويت معصمى وانتزعتهما من الأهداب الصغيرة الممسكة بهما وعدت أواجه حامل المنخس وأنا أصيح به : لتنزل عليك اللعنة . لقد حذرتك من هذا الفعل . بالله عليك من أى معدن تختلق صنعت حتى تغرز هذا فى ؟ إذا لمستنى مرة أخرى . . . »

فوخزنى وخزة أخرى كانت جوابه السريع على .

وطرق سمعى صوت كافور ، مرتعباً متوسلا ، فقد كان يسعى ، حسب ظنى ، حتى فى تلك الساعة ، أن يتفاهم مع تلك المخلوقات . وصاح : « اسمع يا بدفورد ، لدى وسيلة » ولكن وخزة الطعنة الثانية كانت قد أطلقت فى ، على ما يبدو ، طاقة احتياطية مكبوتة ، فقد انكسر الطوق الذى يؤلف أغلال معصمى فى الحال ، وانكسرت معه جميع الاعتبارات التى كانت تغل أيدينا عن مقاومة هذه المخلوقات القمرية . وكنت فى تلك اللحظة على الأقل أغلى من الخوف والغضب ، فلم أعد أفكر فى العواقب وسددت الضربة إلى وجه حامل المنخس ، وكانت السلسلة ملتفة حول قبضة يدى ، وكانت تنتظرنا آنئذ مفاجأة جديدة من هذه المفاجآت الوحشية التى يزخر بها عالم القمر .

ويبدو أن يدى المدرعة نفذت إلى داخله مباشرة ، فقد تهشم كأنهشم

غلاف من الحلوى بداخله سائل ، وانفلق من الداخل وانسحق وتناثر أشلاء . وكأن الضربة كانت موجهة لكمأة رطبة ، وراح الجسم الرقيق يدور اثنتى عشرة باردة ثم سقط واصطدم صدمة شديدة ، فدهشت ، ولم أصدق أنه قد يوجد جسم حي بهذه الرقة ، ومرت فترة كنت أعتقد في أثنائها أن هذا حلم من الأحلام .

وعاد الأمر فأصبح حقيقة وشيكة مرة أخرى ، فلم يفعل كافور ولا واحد من أولئك القوم أي شيء على ما يبدو من الوقت الذي انقضت عليهم إلى الوقت الذي سقط فيه ذلك المخلوق القمري . ووقف كل منهم متحفزاً على مسافة من كلينا ، ويبدو أن فترة الهدوء هذه استمرت ثانية على الأقل بعد سقوط زميلهم ولا بد أنهم كانوا يتأملون فيما حدث ، وأتمثل نفسي واقفاً وقد ارتفعت ذراعي أو كادت ، ورحت أحاول استيعاب ما حدث وكأن السؤال يتردد مدوياً في رأسي : «وماذا بعد ؟ ماذا بعد ذلك ؟» ، وفي لحظة أخرى كنا قد تابعنا سيرنا .

ورأيت أنه يجب فك أغلالنا . وأننا يجب قبل ذلك أن نضرب هذه المخلوقات ونقصيها عنا . وحولت وجهي صوب حامل المناخس ، فأسرع واحد منهم ورمى منخسه علي ، فمرق من فوق رأسي ومضى يطير إلى أن سقط في الهوة خلفنا .

ووثبت عليه بكل ما وسعني من قوة ، حين كان المنخس يطير فوق رأسي . وتحول ليهرب عندما هجمت عليه ، ولكني طرحته أرضاً وجثمت فوقه ، وزلقت فوق جسده المهشم وسقطت ، وكان يتلوى تحت قدمي على ما يبدو .

ونهضت جالساً ، وإذا أنا أشاهد من جميع الجوانب ظهورهم مرتدة نحو الظلام بادية في لون أزرق ، وثنيت بقوة الساعد حلقة من قيودي وفككت من حول كاحل الأصفاد التي كانت تغل حركتي ، ونهضت واقفاً على قدمي ، والسلسلة ما زالت في يدي ، وطار منخس آخر كما تطير الحربة ، ومرق بجانبي ، فقمت بهجمة وسط الظلام في الاتجاه الذي أتى منه . ثم التفت إلى كافور الذي كان لا يزال واقفاً في الضوء الصادر من المجرى الذي بقرب الهوة ، وهو يتاحل في حركة عصبية ليفك أغلال معصميه ويلغط في الوقت ذاته بكلام لا طائل تحته عن فكرته .

فصحت به : «تقدم نحوي !» .

فقال : «وبيدي ؟» .

ولكنه أدرك أنني لن أجرؤ على الجري إليه لأني قد أخطئ في حساب المخطوات فيحملني خطوي إلى حافة الهوة ، لذلك تقدم هو نحوي ، محدثاً حفيفاً بقدميه ، وباسطاً يديه أمامه .

وأسرعت أعالج أغلاله لفكها .

وقال وهو يلهث : «أين هم ؟» .

— هربوا ، ولكنهم سيعودون ، لأنهم يرموننا بهذه الأشياء . أي طريق ينبغي أن نسلك ؟» .

— لنسر مع الضوء ، إلى ذلك النفق . أليس كذلك ؟ .

— نعم .

وتخلصت يداه من أغلالها .

وجثوت على ركبتي ، لأعالج الأغلال التي في كاحليه ، وإذا أنا أسمع صوتاً لشيء يسقط في المجرى الضوئي ، فيجعله يتناثر قطرات ذات زرقة داكنة حولنا ، وفي أقصى المكان ، إلى اليمين بدأت أصوات التصفير والزمير .

ونزعت السلسلة من قدميه ووضعتها في يديه وأنا أقول له : « اضرب بها ! » ورحت أسير بخطوات وثابة في الطريق الذي جئنا منه ، دون انتظار جواب منه ، وكنت أشعر بتقزز وأنا أفكر أن هذه المخلوقات قد تهاجمني من الخلف وسط الظلام ، وسمعت وقع أقدام كافور وهو يتبعني .

وكنا نعدو بوثبات واسعة ، ولكن يجب ألا يغيب عن بالك أن الجري على القمر يختلف تماماً عن الجري على الأرض . فحين تقفز على الكوكب الأرضي تعود قدماك إلى الأرض فوراً ، ولكنك على القمر تسبح في الهواء بضع ثوان قبل أن تطأ قدماك الأرض ، وذلك لضعف جذب القمر لك . وكان لوثباتنا رغم سرعتنا العنيفة الأثر الذي تحدثه فترات الانتظار الطويلة ، بحيث يتسع لك الوقت لتعد إلى سبعة أو ثمانية ، فيكفي أن يسير الإنسان خطوة ليرى نفسه محلقاً بعيداً وجالت في رأسي جميع أنواع الأسئلة : « أين هذه المخلوقات القمرية ؟ ماذا تراهم فاعلون ؟ هل سنصل إلى ذلك النفق ؟ هل يتخلف كافور عني في السير مسافة كبيرة ؟ أيحتمل أن يقطعوا عليه الطريق فيفصلوه عن بعضنا ؟ ورايعت سيري ، أقطع خطوة فأسمع وقعها وأقطع غيرها .

وشاهدت أحد المخلوقات القمرية يجري في الجانب وقد بدت أرجله في حركتها كما تبدو أرجل إنسان يعدو على عالمنا الأرضي ، وكان يختلس النظرات من فوق منكبيه وسمعته يصرخ وهو يجري مبتعداً عني في طريق جانبي إلى أن توارى وسط الظلام ، أظنه دليلنا ولكني لست متأكداً . وبعد خطوة عريضة أخرى لاحت الجدران الصخرية على الجانبين ، وسرنا خطوتين أخريين أوصلتانا إلى النفق فكيفت سيري تبعاً لسقفه المنخفض . ووصلت إلى منحنى من الطريق فوقفت وتراجعت إلى الوراء ، وإذا كافور يلوح النظر ويسمع وقع أقدامه يتخبط وسط مجرى الضوء الأزرق عند كل خطوة يخطوها ، وازداد حجمه كلما اقترب ثم ارتطم بي ، فاحتضنا . لقد تخلصنا من آسرينا ، لحظة على الأقل ، ووجدنا نفسينا وحدنا .

كنا كلانا في إعياء شديد ، وكنا نتكلم ونحن نلهث كلاماً متقطعاً ، وكان كافور يصعد أنفاسه بجهد .

قال : « لقد أفسدت كل شيء » .

— هراء .. كنت أمام أمرين ، فإما ما فعلته ، وإما الموت .

— ماذا يجب علينا أن نصنع ؟ .

— نختبيء .

— وكيف يمكننا ذلك ؟ .

— يكفينا ما نحن فيه من ظلام .

— ولكن أين نختبيء ؟ .

— فوق إحدى هذه المغارات الجانبية .

— ثم ماذا ؟ .

— ثم نفكر ...

— حسنا . هيا بنا !

وتمشينا إلى أن وصلنا ثوتا إلى مغارة مظلمة يشع منها الضوء ، وكان كافور يسير فى المقدمة فوقف مترددا ثم وقع اختياره على فتحة سوداء تصلح لأن تكون مخبأ جيداً على ما يبدو ، وسار فى اتجاهها ثم التفت إلى الوراء وقال : « إنها مظلمة » .

فقلت له : « سوف نهتدى بنور رجليك وقدميك لأنهما مبللان بتلك المادة المضيئة » .

وقال : « ولكن .... »

قطع عليه الحديث جلبة من الأصوات ، وأخصها صوت راح يجلجل فوق النفق الرئيسى كما يجلجل الناقوس ، فأوحى لنا دويه المرعب بوجود مطاردة صاخبة فانطلقنا نطلب المغارة الجانبية فوراً ، وبينما نحن نجرى أضاءت لنا السبيل ساق كافور اللامعة ، فرحت ألهث وأنا أقول : « لقد أخذوا أحذيتنا لحسن الحظ ، ولولا ذلك لما أمنا الجو صحيحا » . وتابعنا سيرنا الحثيث بخطوات صغيرة بقدر الإمكان حتى لا يتطرق الصوت إلى مسطح المغارة ، وبدا لنا بعد قليل أننا نسبق المطاردين وضوضاءهم فقد انكتم صوتها ، ثم ضعفت وتلاشت .

وقفت ونظرت خلفى ، فسمعت وقع أقدام كافور تتراجع ، ووقف هو أيضاً عن السير وهمس فى أذنى : « أرى أمامنا ضوءاً ، يا بدفورد » .

فنظرت ولكنى لم أر شيئاً فى أول الأمر ، ثم رأيت الخطوط الخارجية لرأسه وكتفيه وكانت تلوح قاتمة فوقها ظلة طفيفة . ورأيت كذلك أن هذه الظلة الخفيفة لم تكن زرقاء كسائر الأنوار التى داخل القمر بل كانت رمادية شاحبة ، فى بياض باهت كلون ضوء النهار ولاحظ كافور الفرق بنفس السرعة التى لاحظته فيها بل فاقنى فيها وفى ظنى أن هذا الضوء ملأ صدره أملا ، ذلك الأمل الوحشى .

وهمس قائلا بصوت مرتعش : « هذا الضوء يا بدفورد . . . من الممكن أن ... »

ولم يعد فى نفسه الجرأة على أن يقول ما كان يرجو قوله . وتبع ذلك فترة سكون ، وعرفت على حين غفلة أنه كان يسير بخطى واسعة فى اتجاه ذلك الضوء الشاحب ، فتبعته بقلب سريع النبضات .

الفصل السادس عشر

وجهات نظر

وازداد الضوء قوة فى أثناء تقدمنا ، ولم يمض وقت حتى كان فى قوة بريق ساق كافور المتمشى ، وأخذ النفق الذى نسير فيه فى الاتساع إلى أن أصبح مغارة ، وكان هــذا الضوء الجديد فى الطرف البعيد منها ، وأبصرت شيئا جعل الأمل يرقص فى قلبي ويقفز .

وقلت لكافور : إنه صادر من فوق . أنا متأكد من أنه من فوق .

لكنه لم يجب بل أسرع الخطا .

ولا جدال فى أنه كان لونا أخضر ، فضيا .

وفى اللحظة التالية كنا نسير تحت ذلك الضوء . فقد كان يتسرب من خلال شق فى جدران المغارة ، وبين أنا أصوب نظرى إلى أعلى سقطت على وجهى قطرة ماء ، فانتفضت ووقفت جانبا ، وإذا قطرة أخرى تسقط فيسمع لها صوت واضح على الصخر .

وقلت : « إذا حمل أحدنا الآخر ، يا كافور ، فسوف نتمكن من الوصول إلى الشق » .

فقال : « سأحملك » ، وحملني بضعف كأنى طفل صغير .

ودفعت ذراعى فى الشق ، فوجدت عند أطراف أصابعى حافة صغيرة

أمكنني أن أتعلق بها . واستطعت أن أرى الضوء الأبيض وقد ازداد لمعانا فى تلك اللحظة ، ورفعت نفسى إلى أعلى معتمدا على أصبعين ، ودون جهد كبير رغم أنى أزن اثنى عشر حجرا (١٦٨ رطلا) ووصلت إلى ركن من الصخر بدا أكثر إشراقا ، وبذلك أوصلت قدمى إلى تلك الحافة ، ووقفت ثم مضيت أبحث فوق الصخور بأصابعى ، وزاد اتساع الشق إلى أعلى فقلت لكافور : « يمكننا تسلقه . هل لك أن تتسلق على يدى إذا خفضتها لك ؟ » .

وتعلقت بين جانبى الشق ساندا ركبتى وقدمى على الحافة ، ومددت يدى . ولم أستطع رؤية كافور ولكنى تمكنت من سماع حفيف حركته وهو يخلص القرفصاء استعدادا للقفز ، وبعد برهة كان قد تعلق بذراعى فكان وزنه لا يزيد على وزن قطيطة ، واحتضنته رافعا إياه إلى أعلى إلى أن تمكن من وضع يده على الحافة ورفعها عنى .

وقلت : « تبا لذلك ! يستطيع كل إنسان على القمر أن يصبح من متسلق الجبال » . وهكذا مضيت أتسلق فى شغف ، ومثابرة بضع دقائق ثم نظرت إلى أعلى مرة ثانية فرأيت الفتحة تتسع رويدا والضوء يزيد إشراقا ولكن لم يكن ذلك الضوء ، بعد ذلك العناء ، ضوء النهار .

واستطعت بعد لحظة أن أقف على كتفه وكان المنظر الذى رأيته خليقا بأن يجعلنى أضرب رأسى فى الصخر لخيبة أملى لأن ما شاهدته لم يكن سوى ساحة مكشوفة منحدرة انحدارا غير منتظم يغطى أرضها المائلة سيلا دافقا تماما من القطر الذى يشبه العصى الصغيرة ، وأجلت النظر لحظة فى الضياء الخفيف الذى تشعه ثم قفزت إلى الأمام من فوقها

وصرت فى وسطها . واقتطفت ستة عيدان منها ألقيتها على الصخور ومن ثم جلست أضحك بمرارة حين لاح أمامى وجه كافور المتورد .

وقلت له : « إنه التألق الفسفورى أيضا . فلا داعى للإسراع . أشعر كأنك فى بيتك » وفيما هو يتخبط فوق هذه النباتات التى خبيت أملنا ، رحت أنا أقذف كمية من هذا الفطر داخل الشق .

وقال : « ظننته ضوء النهار » .

فانثنيت أصيح : « ضوء النهار ! الفجر والغروب والسحب والسموات والعواصف ! هل سيتوافر لنا رؤيتها مرة أخرى ؟ » .

وبينما أنا أتكلم ارتسمت أمامى صورة لعالمنا صورة بدت براقة صغيرة واضحة كصورة قديمة لموقع إيطالى ، ومضيت أناجى كافور قائلا : « السماء المتغيرة ، والبحر المتقلب والتلال والأشجار الخضراء والمدن والبلاد ، وهى تتألق فى أشعة الشمس . تأمل سطح منزل عند الغروب مبتل بماء المطر ، تأمل النوافذ فى بيت يقع إلى الغرب ! » لكنه لم يجب .

وتابعت كلامى : « ونحن هنا ، نتخبط فى هذا العالم الوحشى — الذى لا يمكننا أن نسميه عالما — بحره الأسود الخفى ، فى ذلك الظلام السفلى الكريه ، وعلى سطحه النهار القائظ والليل الساكن سكون الموت ، وهذه المخلوقات التى تطاردنا الآن . لابس الجلود هؤلاء الرجال الحشرات الذين لايتراءون إلا فى كابوس الليل ! على أنهم مع كل ذلك على حق ، إذ أى حق لنا ونحن نهشمهم ونوقع الاضطراب فى عالمهم ! ولابد أن الكوكب كله فى ثورة الآن . جاد فى البحث عنا ، وقد لا تمضى

دقيقة إلا ونسمع عويلهم وجلجلة أجراسهم . فماذا نعمل وأين نذهب وهانحن أولاء فى راحة تشبه راحة الأفاعى الطليقة فى بيت شرخ الريق فى سريتين * .

وقال كافور : « كان الخطأ خطأك » .

— خطئى أنا ! يا إلهى !

— كانت عندى فكرة .

— تبا لأفكارك .

— لو أننا لم ننقض عليهم ...

— أجل . كانوا سيحملوننا !

— فوق ذلك الجسر ؟

— نعم . لا بد أنهم كانوا سيحملوننا من الجهة الخارجية .

— كنت أفضل أن تحملنى ذبابة وتسير بى على السقف .

— يا للسماء !

ومضيت أهشم الفطر ، ثم رأيت على حين غرة شيئاً لم يخطر ببالى حتى فى تلك الساعة .

وقلت لكافور : « هذه السلاسل مصنوعة من الذهب ! » .

كان فى تلك الآونة يفكر بإمعان وقد وضع يديه على خديه فأدار

---

* اسم مكان فى لندن اشتهر صاحبه شرخ بجمع الحيوانات المتوحشة .

رأسه فى تؤدة وودنا إلى وقال حين كررت الكلام عن السلسلة التى تطوق معصمه الأيمن : « إنها لكذلك ، إنها لكذلك » ثم تلاشت من وجهه تلك الابتسامة العابرة . حتى حين راح ينظر إلى السلسلة ، وبعد لحظة من التردد تابع تأملاته التى كنت قد قطعت عليها السبيل . وجلست وأنا فى دهشة من أمرى كيف لم ألحظ ذلك إلا فى تلك اللحظة . وأخيراً فكرت فى الضوء الأزرق الذى كان يغمرنا والذى سلب ذلك المعدن لونه ، وقادنى هذا الكشف كذلك إلى سلسلة من الخواطر حلقت إلى عوالم بعيدة ، ونسيت أنى كنت أتساءل منذ لحظة أى شىء لنا فى القمر . الذهب ...

وهم كافور بالكلام فقال : « يخيل إلى أنه يوجد طريقان يمكن انتهاجهما » .

— أجل ؟

— إما أن نحاول أن نشق لنا طريقاً ، فنقاتل إذا استدعت الضرورة . لنخرج إلى سطح القمر ثانية ثم نبحث عن الكرة إلى أن نجدها ، وإن لم نفعل ذلك فإن برد الليل كفيل بأن يقضى علينا ، أو ...

وتمهل برهة ، فقلت : « أجل ؟ » رغم معرفتى بما سوف يقوله .

فاستطرد يقول : « ويمكننا بذل محاولة جديدة لإيجاد تفاهم بيننا وبين عقول سكان القمر » .

— فيما يخصنى أنا ، إنها المحاولة الأولى .

— أشك فى ذلك .

— أما أنا فلا شك عندى .

وقال كافور : « أنت ترى أننى لا أظن أنه فى استطاعتنا الحكم على المخلوقات القمرية استناداً على ما رأيناه منهم ، ذلك أن عالمهم الرئيسى ، عالمهم المتحضر يقع فى المغاور السفلية فى الأعماق البعيدة ، حول بحرهم . أما المنطقة التى نحن فيها فهى القشرة الخارجية لذلك العالم ، المقاطعة المتطرفة منه ، إقليم مراع . هذا هو تفسيرى للأمور على أية حال ، وهذه المخلوقات التى رأيناها قد لا تكون سوى ما يعادل رعاة الأبقار عندنا أو العمال الذين يعدون الآلات البخارية بالماء والوقود . وإن استعمالهم للناخس ، لتخس حيواناتهم القمرية على الأرجح ، وتجردهم من الخيال هذا التجرد الذى دلوا عليه وهم يتوهمون فينا القدرة على إتيان الأعمال التى يقدرون هم عليها ، ووحشيتهم التى لا جدال فيها ، جميعها تشير إلى شىء من هذا القبيل ولكننا لو صبرنا ....

وقلت له : « لم يكن أحدنا ليتحمل السير مدة طويلة على لوح عرضه ست بوصات مشيد فوق هوة لا قرار لها » .

وقال كافور : « كلا ، ولكن ....

وقلت : « لن أفعل » .

واكتشف سلسلة جديدة من الاحتمالات وأنشأ يقول : « حسناً ، لنفرض أننا استطعنا الاعتصام بأحد الأركان ، نذود عن أنفسنا ضد هؤلاء العمال . وإذا استطعنا الصمود أسبوعاً

أو نحوه فمن المرجح أن تتسرب أخبار ظهورنا إلى الأجزاء الآهلة والتي تمتاز بذكاء أكبر . . . . . .

— إن كان لها وجود .

— لابد أنهم موجودون ، وإلا فمن أين أتت هذه الآلات الماثلة

— هذا جائز ، ولكنه أردأ الفرضين .

— ويمكننا أن نخط كتابة على الجدران .

— وكيف لنا أن نعرف أن عيونهم سوف تقع على العلامات التي وضعناها ؟

— إذا حفرنا هذه العلامات .

— هذا جائز بطبيعة الحال .

وبدأت بسلسلة جديدة من الأفكار وأنشأت أقول : « لا أظنك تعتقد أن هؤلاء التمريين أعقل من البشر إلى ما لا نهاية » .

فقال : « لاشك في أنهم يعرفون أشياء عديدة أكثر من البشر ، أو على الأقل أموراً عديدة تختلف عما نعرفه نحن » .

— نعم ، ولكن .

ولم أدر ما أقول ، ومع ذلك تابعت حديثي فقلت :

— أظنك تعترف يا كافور بأنك رجل تختلف عن سائر الناس !

— كيف أختلف عنهم ؟

— نعم إنك تكاد تكون رجلا منعزلا ، أعني أنك عشت على هذه الحالة إلى الآن ، ولم تتزوج .

— لم أرغب قط في الزواج . ولكن لم لم ؟

— ولم تزد ثروتك أكثر مما هيأت الظروف لك .

— — لم أرغب في هذا أيضاً .

— وقد بحثت عن المعرفة فحسب .

— أجل ، فقدر من حب الاستطلاع مسألة طبيعية .

— إنك تفكر بهذه الطريقة ، وإنه لكذلك فأنت تعتقد أن كل مخلوق غيرك له عقل يريد أن يعرف ، وأذكر أني سألتك مرة عن سبب قيامك بجميع هذه الدراسات فكان جوابك أنك تبغي الحصول على المؤهل الذي يعطيك الحق في أن تصبح عضواً في الجمعية الملكية F. R. S. وأن تصل إلى اكتشاف المادة الكافورية ، وأشياء من هذا القبيل ، مع أنك تعرف جيداً أنك لم تزل دراستك لهذا الغرض ، ولكن سؤالي في ذلك الوقت كان مفاجأة لك . وتعرف كذلك أنك شعرت بوجوب حصولك على شيء له صفة الباعث أو الهدف . وحقيقة الأمر أنك قمت بأعمالك لأنه كان لابد لك من القيام بها ، فإنها الموضوع الذي تميل إليه .

— قد يكون الأمر كذلك .

لا يوجد رجل في المليون له هذا الميل ، فمعظم الناس يريدون . أجل معظمهم يريد أشياء عديدة ولكن الذين يرغبون في المعرفة لأجل المعرفة ذاتها قليلون . أما أنا فأعرف جيداً أني لا أريد ذلك ، ويبدو

فى هذه المخلوقات القمرية مخلوقات دائبة على العمل والحركة . ولكن كيف لك أن تعرف أن أذكى واحد بينها يبدى اهتماماً بنا أو بعالمنا . كذلك لست أعتقد أنهم يعرفون أن لنا عالما . إنهم لا يخرجون إلى السطح ليلا . إذ أنهم لو فعلوا لتجمدوا . ويرجح أنهم لم يروا قط أى جرم سماوى خلاف الشمس المحرقة . فأنى لهم أن يعرفوا أنه يوجد عالم آخر . وماذا يهمهم الأمر إذا علموا . ولنفرض جدلا أنهم حصلوا على فكرة ضئيلة عن عدد قليل من النجوم وعن الهلال الذى نراه من أرضنا . فما جدوى ذلك ؟ ولم يتكبد قوم يعيشون داخل كوكب مشقة مراقبة شىء من هذا القبيل ؟ لم يقم سكان الأرض بهذه المراقبة إلا بسبب فصول السنة والملاحة . أما أهل القمر فلم يقومون بها؟ .

واستطردت فى حديثى : « والآن لنفرض أن هناك عدداً قليلا من الفلاسفة أمثالك . وهؤلاء هم القمريون ذاتهم الذين لم يسمعوا قط بوجودنا ولنفرض جدلا أن أحدهم ظهر على الأرض حين كنت أنت فى ليمْنى . ألك آخر رجل على الأرض يسمع بمجيئه . هذا وأنت لا تطالع الجرائد أبداً ! وهكذا ترى أن الظروف ضدك . وبسبب هذه الظروف نجلس نحن الاثنان هنا بلا عمل بينما يمر الوقت الثمين سراعا . دعنى أقل لك إننا قد وقعنا فى ورطة . فقد جئنا إلى هنا عزلا من السلاح . وأضعنا كرتنا . وليس لدينا طعام . وكشفنا عن أنفسنا للقمريين وجعلناهم يظنون أننا حيوانات غريبة قوية خطرة . وسوف يخرجون الآن لمطاردتنا حتى يعثروا علينا . إلا إذا كانوا حمقى إلى أبعد درجات الحماقة . ومتى وجدونا فسيحاولون القبض علينا . وإذا

لم يظفروا بنا أحياء فسيقتلوننا . ويكون هذه نهاية القصة . على أنهم سوف يقتلوننا لسوء تفاهم قد يقع . حتى بعد وقوعنا أحياء فى يدهم وقد نصبح موضوع حديثهم ولكن بعد أن يكون قد قضى علينا . ولن يكون فى ذلك أى متعة لنا ؟ .

وقال كافور : « امض فى حديثك » .

فاستطردت أقول : « وهناك ، من الوجهة الأخرى ، الذهب المترامى حولنا فى كثرة الحديد الزهر . فإذا أمكننا أن نعود بمقدار منه ، وإن أمكننا العثور على كرتنا قبل أن يعثروا هم عليها . ونعود إلى الأرض إذن » .

— ثم ماذا ؟ » .

— ثم نعد عدتنا على أسس أسلم . ونعود فى كرة أكبر حجما ، ومزودة بالمدافع .

فصاح : « يا الهول ! » .

كأنى فهت بكلام مرعب . وألقيت فى الشق قدراً جديداً من القطر المشع . ورحت أقول :

« أنصت إلى يا كافور . لى فى هذا المشروع نصف الأصوات القانونية . فضلا عن أن قضيتنا هذه يلزمها رجل عملى . وأنا هذا الرجل . أما أنت فلست عمليا . وسأصبح فقى المرة الثانية فى هذه المخلوقات القمرية وفى رسومك الهندسية . إذا استطعت إليها سبيلا . . . وهذا كل ما فى الأمر . فارجع واقلع عن سريتك هذه أو عن معظمها . . وعد مرة أخرى .

وجعل يفكر ثم أنشأ يقول : « حين جئت إلى القمر ، كان يجب أن أجيء بمفردى » .

وقلت له : « ولكن كيف السبيل إلى الكرة ؟ هذا هو سؤال قبل أن تجتمع بهم » .

ولبثنا لحظة نربع ركبنا فى صمت ، ثم بدا لى وكأنه يتخذ قرارا بشأن الأسباب التى أبديتها .

وقال : « أظن أننا نستطيع أن نحصل على بيانات ، فمن الواضح أنه عندما تكون الشمس على هذا الجانب من القمر يهب الهواء خلال هذا الكوكب الاسفنجى (١) من الجانب المظلم إلى هذا الجانب ، والهواء على أية حال يتجدد ويهب من العيران القمرية إلى الفوهات البركانية . .

وهذا هو سبب وجود تيار هوائى هنا » .

واستطرد يقول : « وهذا يعنى أن هذا الشق ليس مسدودا ويوجد امتداد له فى مكان ما خلفنا ، ولما كان التيار يهب إلى أعلى فهذا هو الطريق الذى يجب أن نسلكه . وإذا أمكننا أن نعثر على مكان ما يشبه المدخنة أو الأخدود نخرج منه ، فسوف لايكون خروجنا من هذه الممرات التى يبحثون فيها عنا فحسب » .

فسألته : « ولكن ، لنفرض أن هذا الأخدود أضيق من أن يمكننا المرور منه .

---

(١) لعله يعنى أنه يمتص الهواء كالاسفنج .

فكان جوابه : « نعود أدراجنا » .

وقلت له على حين غفلة : « صه ! ما هذا ؟ » .

وأخذنا ننصت ، فسمعنا تمتمة مبهمة فى بادىء الأمر ، ثم أمكننا أن نميز صليل جرس . فقلت : « لابد أنهم يحسبوننا وحوشا قرية إذا كان هذا يخيفنا » .

— إنهم قادمون من هذا الممر .

— لابد أن الأمر كذلك .

— لن يفكروا فى الشق . سيتركونه خلفهم .

وأنصت لحظة ، ثم قلت : « قد يكون معهم فى هذه المرة نوع ما من الأسلحة » .

ثم قفزت واقفا وأنا أقول : « ويحنا ، ولكنهم سوف يفعلون يا كافور . سيرون القطر الذى كنت ألقيه و ... ! » .

ولم أتم جملتى بل درت على عقبى وقفزت فوق رءوس الفطر فى اتجاه الطرف الأعلى من المغارة . ورأيت أن تلك الساحة تنحرف إلى أعلى وتتخذ مرة أخرى شكل شق يهب عليه تيار الهواء ، وتصعد أرضها وسط الظلام الذى لاتصل العين إلى آخره ، وكدت أتسلق إلى هـــذا الشق ، ولكن جاءنى لحسن الحظ خاطر جعلنى أرتد راجعا .

وسألنى كافور : « ماذا تفعل ؟ » .

فقلت له : « امض فى سبيلك » .

وعدت فأخذت عودين مضيئين من ذلك القطر ، ووضعت أحدهما في جيب صدارى القطنية ، فبرز ليضيء طريق تسلقنا ، وعدت بالآخر فأعطيته لكافور . وكانت الضوضاء التي أحدثها سكان القمر عالية حتى أن الأمر بدا كأنهم حتما تحت الشق مباشرة ، على أن التسلق إليه قد يكون صعبا عليهم أو قد يترددون في إعادة الكرة في وجه إحجام محتمل من جهتنا . ولكننا كنا نجد عزاء في معرفتنا بتفوق عضلاتنا ، ذلك التفوق الهائل الذي منحه لنا مولدنا على كوكب آخر . ولذلك رأيتني في اللحظة التالية أتسلق بقوة جبارة في إثر كافور وهو يضيء في السبيل بقدميه المشعتين بالضوء الأزرق .

الفصل السابع عشر

القتال داخل كهف جزارى الوحوش القمرية

لا أعرف مقدار المسافة التي تسلقناها قبل أن نصل إلى الشباك ويرجح أننا صعدنا بضع مئات من الأقدام ، ولكن خيل إلينا في ذلك الوقت أنه من الجائز أن نكون قد عدنا إلى الجذب والضغط والحبل وعصر أنفسنا في زنزنة مسافة ميل أو يزيد في صعود عمودي ، وكلما ذكرت تلك اللحظة يعود إلى مخيلتي الطنين الثقيل الذي كانت تحدثه سلاسلنا الذهبية عند كل حركة نأتيها . وسرعان ما تسلخت ركبتي وعقد أصابعي وارتض أحد خدي ، وبعد فترة خف ذلك العنف الذي استهلكت به جهودنا ، وأصبحت حركاتنا أكثر حزما وأقل ألما وكانت أصوات مطاردينا قد تلاشت كلية ، ويغلب على الظن أنهم ، على ما يبدو ، لم يقتفوا أثرنا إلى أعالي الشق بعد كل ما حسبناه ، رغم كومة القطر المتكسر التي كانت ملقاة تحته بالتأكيد ، لتنم عنا . وكان هذا الشق أحيانا يضيق حتى تعذر علينا النفاذ منه إلا في عسر ، وكان في أحايين أخرى يتسع فيتخذ شكل مناور كبيرة تغشاها فصوص بلورية شائكة أو نثور لامعة من نبات كئيب المظهر يشبه الفطر ، وكان هذا النبات يلتف تارة حول نفسه بشكل لولبي ، وينحدر تارة أخرى فيكاد يتخذ

إتجاها أفقيا . وكان الماء بين الفينة والفينة يتقاطر حولنا فى قطرات متقطعة ، وخيل إلينا مرة أو مرتين أننا سمعنا حفيف مخلوقات صغيرة تطير بعيداً عن متناولنا ولكننا لم نرها قط لنعرف كنهها ، وقد تكون حيوانات سامة ، إذا لم أكن مخطئاً . ولكن لم يلحقنا منها أى أذى ، وكنا قد اتجهنا بسرعة معينة حين لاح شىء غريب يزحف فى قلة أو كثرة ، ولكننا لم نحفل به . وفى آخر الأمر رأينا فوق رءوسنا ذلك الضوء المائل إلى الزرقة الذى أصبح مألوفاً لنا ، يتسرب من خلال شباك اعترض سبيلنا .

وراح الواحد يهمس للآخر ويشير إلى ذلك الضوء . واتخذنا مزيداً من الحيطة ونحن نتسلق صعداً ، وسرعان ما وجدنا أنفسنا على مقربة من الشباك ، ووضعت وجهى بين قضبانه فاستطعت أن أشاهد جزءاً محدوداً من تلك المغارة وهى تلوح بعيداً . وقد كان واضحا أنها على اتساع كبير وأنها كانت بلا شك مضاءة بذلك الضوء الأزرق الذى رأيناه يجرى فى تلك القناة خارجا من تلك الآلة الصاخبة . وكانت قطرات الماء تنزل فى قطرات متقطعة بين القضبان ، على مقربة من وجهى .

وانصرف اهتمامى الأول بطبيعة الأمر إلى رؤية ما قد يوجد على أرض المغارة ، ولما كان شباكنا يقع فى منخفض فقد حجبت حافته جميع المناظر عن أعيننا ، فلما فشلنا فى رؤيتها تحول اهتمامنا إلى تلك الأصوات المختلفة التى طرقت آذاننا علها توحى بشىء لنا ، وفوجئت برؤية عدد من الأطياف النحيلة تتراقص فوق السقف القائم فوق رءوسنا .

ولا جدال فى أن تلك الساحة الفسيحة كان بها عدد من سكان القمر عدد غير قليل على الأرجح ، فقد كنا نسمع جلبة حديثهم والأصوات الخافتة التى عرفت أنها وقع أقدامهم . وكانت هناك أصوات أخرى تتكرر بانتظام وتتعاقب تقول تشد ، تشد ، تشد ، لا تفتأ تبدأ حتى تسكت وتوحى بسكين أو معول يعمل فى مادة رخوة ، وتبع ذلك جلجلة كجلجلة السلاسل ، وتصفير وفرقعة كالتى تخرج من سيارة كبيرة تسير فوق طريق مجوف . ثم عادت تلك الضربات تتكرر . وكانت الأطياف تتم عن أشباح تتنقل بسرعة وحركات منتظمة توقيعية تتبع فى توافقها تلك الضربات المنتظمة ، وتقف حين تقف .

وقربت رأسى من رأسه ورحنا نبحث هذه الأمور فى همس لا يكاد يسمع .

فقلت له : «إنهم منشغلون . هناك ما يشغلهم . .

— أجل .

— إنهم لا يبحثون عنا ولا يفكرون فينا .

— لعلهم لم يسمعوا عنا .

— هؤلاء الآخرون يبحثون عنا تحت هذا المسكان ، فإذا ظهرنا بغتة هنا .

وأخذ أحدنا ينظر إلى الآخر .

وقال كافور : «قد تهيأ لنا فرصة التداول» .

فقلت : «كلا ، ليس بحالتنا الراهنة» .

وظل كل واحد منا مستغرقاً فى أفكاره وقتاً ما .

وراحت الضربات تتوالى تشد ، تشد ، والأطياف تروح جيئها وتجىء .

ونظرت إلى الشباك ، وصحت : « إنه رقيق » .

فقال : « يمكننا ثنى قضيبين من قضبانه والزحف إلى الداخل » وأمضينا وقتاً قصيراً فى حديث مبهم ، ثم أمسكت بأحد القضبان بكلتا يدى ، ورفعت قدمى إلى أعلى الصخرة حتى صارتا فى مستوى رأسى تقريباً ثم دفعت القضيب فانثنى فجأة ، وكدت أسقط ، وتسلقت بالمكان وشرعت أثنى القضيب المجاور فى اتجاه مضاد للأول ، ثم أخذت القطر المثير من جيبى وألقيته فى الفرجة .

وقال كافور وأنا أثنى جسمى إلى أعلى داخل الفرجة التى وسعت حجمها : « لا تتسرع فى أى شىء » . ولمحت أشباحاً مستغرقة فى عملها ، وذلك حين كنت أدخل جسمى خلال الشباك ، فانحنيت إلى أسفل بحيث حجبتنى عن أنظارهم حافة المنخفض الذى كان يقع فيه الشباك ، وقبعت منبسطاً ، وأنا أشير إلى كافور وأبدى له النصح ، وكان يتأهب للدخول من الشباك ، وسرعان ما وجدنا أنفسنا جنباً إلى جنب ، داخل منخفض الشباك ، وأخذنا نطل من الحافة على المغارة وشاغليها .

كانت تلك المغارة أكبر مما بدت لنا لأول وهلة ، وألقينا نظرتنا عليها من أكبر أجزاء أرضها المائلة انخفاضاً إلى أعلاها ، وكانت تزيد اتساعاً كلما زادت بعداً ، وكان سقفها ينخفض فيحجب الجزء البعيد كلية وكان يمتد على طول الساحة فى صف طويل يتباعد إلى أن يتلاشى أخيراً

عند ذلك المنظر الهائل . أقول كان يمتد على طولها عدد من الأشكال الضخمة وهيا كل آلات ضخمة شاحبة وجدنا المخلوقات القمرية تعمل عليها فى دأب . وكانت هذه الهيا كل فى أول الأمر تبدو كأنها اسطوانات كبيرة بيضاء غامضة المدلول ، ثم رأيت الرءوس التى عليها تتجه صوبنا وقد نزعت منها عيونها وجلودها فبدت كرءوس الأغنام فى حانوت القصاب . واتضح لنا أنها جثث الوحوش القمرية ، وقد قطعت كتلا صغيرة كما يفعل صيادو الحيتان عندما يجرون إلى سفينتهم حوتاً اصطادوه ، وكانوا يقطعون اللحم قطعاً طويلة . وكنا نشاهد ظلوع الصدر البيضاء على جذوع بعض الجثث البعيدة عنا . وكانت الأصوات المترددة تشد ، تشد ، هى ضربات فئوسهم . وعلى مسافة منها رأينا شيئاً يشبه عربة الترام التى تسير بالأسلاك ، تجرى على منحدر المغارة محملة بكتل من اللحم اللين وهذه الطريق الطويلة من الهياكل الحيوانية التى قدر لها أن تكون طعامهم ، أمدتنا بفكرة عن ازدحام القمر بالسكان ، ازدحاماً لا يفوقه شىء سوى ما انطبع فينا من أثر عند أول مرة نحتنا فيها مدخل المطبق الأرضى .

وخيل إلى فى أول الأمر أن المخلوقات القمرية لابد أن تكون واقفة على لوح قائم على مساند * ولاحظت بعد ذلك أن الألواح

---

* لا أذكر أنى رأيت على القمر أى شىء مصنوع من الخشب فالأبواب والقوائم وكل ما يشبهها على الأرض من أعمال النجارة قد صنعت من المعدن ، وأعتقد أن معظمها من الذهب الذى فيه من الصفات الطبيعية ما يكفيه للنيابة عن غيره بسبب مطاوعته للصانع وبسبب كثافته ومتانته .

والمسائد والقشوس كانت جميعها من لون معدنى واحد كالأغلال التى كانت فى قدمى عندما يسقط عليها الضوء الأبيض، وكان على الأرض عدد من الحلقات غليظة الشكل ، يبدو أنهم كانوا يستعينون بها لقلب حيواناتهم على جنبها ، كان طول الواحدة ستة أقدام على الأرجح ولها مقابض ذات أشكال وسلاح له منظر منفر وقد أحنى المكان كله بثلاثة بحار ضوئية من ذلك الفيض الأزرق ممتدة فى عرض المكان .

ولبثنا نشاهد هذه الأمور فى صمت وأخيراً صاح كافور : «ثم ماذا ؟»

وجلست القرفصاء فى مكان منخفض والتفت نحوه ، لأحدثه عن فكرة بارعة خطرت لى .

قلت : « لابد أننا أقرب إلى السطح مما كنت أعتقد ، هذا إذا لم يكن هؤلاء القوم قد أنزلوا هذه الجثث بواسطة آلة رافعة »

فقال : « ولم ؟ »

— لأن الحيوانات القمرية لاتحلق وليست لها أجنحة .

وعاد ينظر إلى من فوق حافة المنارة ثم أخذ يقول :

« والآن أعجب . . . . فإننا لم نبتعد عن السطح .....»

فأمسكت بذراعه ، لأسكته ، فقد طرق سمعى صوت صادر من الشق تحتنا .

وثنينا جسمينا وظللنا ساكنين سكون الموتى ، وقد تحفزت كل حواسنا ، ولم تمض برهة قصيرة حتى تأكدت أن شيئاً ما كان يصعد

إلى الشق فى هدوء . فأمسكت بالسلسلة التى على يدى بإحكام وبتأن دون جلبة ، لأطمئن نفسى ورحت أنتظر ظهور هذا الشىء .

وقلت : « أنظر ربك إلى هؤلاء الفتية بفتوسهم للمرة الثانية »

فقال كافور : « إنهم فى حال جيدة »

واتخذت هدفاً إحتياطياً عند ثغرة الشباك ، واستطعت من موقفى أن أسمع بوضوح تلك الزقزقة الناعمة التى أحدثها القمريون الصاعدون وتخبط أيديهم على الصخر ، وتساقط التراب وهم يصعدون .

ورأيت بعد ذلك تحت الشباك شيئاً كشبح يتحرك وسط الظلام ، ولكنى لم أستطع تمييز شكله ، وبدا كل شىء لحظة فى تردد ، ثم سددت الضربة ، كنت قد نهضت واقفاً وضربت ضربة وحشية وقعت على شىء لامع مسدد إلى كأنه سنان حربة حاد ، ومازلت أعتقد أن طوله وضيق الشق منعا عون ذلك تسديده متحركاً ليصيبنى ، ورغم ذلك اندفع من الشباك كما يندفع لسان الأفعى من فمها . وأخطأت المرمى ثم ارتد ، ولمع مرة أخرى ، ولكنى فى المرة الثانية تلقفته ، وأمسكت به ثم ألقيته عنى بعد أن ثنيته ، وكان غيره قد طار نحوى ولكن لم يصبنى .

أرسلت صيحة النصر وأنا أشعر بيد المخلوق القمرى تقاوم وأنا أجذبها ثم تستسلم بعد لحظة ، ورحت بعد ذلك أوسع القوم ضرباً ولكما خلال القضبان وتحت الشباك ، ووسط الصرخات فى الظلام ، وكان كافور قد اختطف الحربة الأخرى وطفق يقفز ، ويلوح بها إلى جانبى ، ويضرب ضربات فاشلة ، وترددت أصوات جلجلة خلال

القضبان . وإذا فأس تطوح فى الهواء ، وترتطم بالصخر البعيد لتذكرنى بالقصابين وهم يقطعون الخشب فى أعلى المغارة .

والتفت حولى ، وإذاهم قادمون نحونا فى سير مكشوف منتظم وهم يلوحون بفئوسهم . كانوا صغار الأجسام قصارا غلاظا يبدون كالمتسولين ، ولهم أذرع طويلة تختلف عن الأذرع التى رأيناها من قبل اختلافا يدعو إلى الدهشة ولا بد أنهم أدركوا الموقف بسرعة لاتصدق وإن لم يسمعوا عنا قبل ذلك . ورحت أحدق النظر إليهم لحظة ، والحربة فى يدى ، وصرخت بكافور طالبا منه أن يحرس الشباك .

ثم أخذت أعوى لأفزعهم وأندفعت القاهم . أخطأتنى فئوس اثنين منهم ووجد الباقون لذتهم فى الهرب ، وعاد الاثنان الأولان يجريان بعيدا فوق المغارة ، وقد حنيا قبضة أيديهما وأطرقا برأسيهما ، ولم أر قط رجالا يجرون مثلهما .

ورأيت أن الحربة التى بيدى لا فائدة منها ، فقد كانت رفيعة رقيقة لا تصلح إلا للقذف ، وأطول من أن تساعد على الكر السريع ، وهكذا مضيت أطارد القمريين إلى أن بلغت الجثة الأولى ، ثم وقفت عندها وأمسكت بإحدى العتلات التى حولى ، وكان وزنها مريحا ولكن كافيا لتهشيم أى عدد من المخلوقات القمرية ، وألقيت الحربة من يدى الأخرى وأمسكت بدلها عتلة أخرى فشعرت بأن قوتى تضاعفت عشر مرات عما كنت عليه والحربة فى يدى . وكانت المخلوقات القمرية قد وقفت عن السير فهزت العتلتين على سبيل التهديد ، وكانت تتألف

من فئة قليلة على الجزء المرتفع من المغارة . والتفت حـــولى أبحث عن كافور .

كان يقفز من جانب من الشباك إلى الجانب الآخر منه ، يوجه ضربات شديدية بحربته المكسورة ولم يكن فى ذلك مايشير . فقد تحجر فعله هذه تلك المخلوقات فى مكانها السفلى فترة من الوقت على أية حال . ونظرت إلى أعلى المغارة مرة أخرى ، ورحنا نتساءل عما يجب القيام به فى تلك الأونة .

فقد كنا أشبه بالمحاصرين فعلا ، ولكننا كانت مفاجئة لهؤلاء القصابين ويغلب على الظن أنهم ارتاعوا ولم يكن لديهم أسلحة حادة سوى تلك الفئوس الصغيرة وهنا وضح سبيل الحرب وكانت أشباحهم الصغيرة العنيدة ، التى تفوق أجسام رعاة الوحوش القمرية قصرا وغلاظة ، موزعة فوق المنحدر تعبر تعبيرا فصيحا عن تردد أصحابها فى اتخاذ أى قرار . وكانت حزيئى الأدبية هى تلك المزية التى لثور هائج فى أحد الشوارع ، أمامهم فكانوا يبدون فى أعداد غفيرة ، ويرجح أنهم كانوا كذلك . وكان للمخلوقات التى فى أسفل الشق حراب طويلة نكراء ، وربما كانوا يعدون لنا مفاجئات جديدة . . . . ولكن تبا لهم ، فإذا قنا بهجوم من أعلى الكهف فسوف يحفزهم ذلك إلى مهاجمتنا من الخلف ، وإذا لم نهاجم فسوف تصل الأمداد إلى أولئك المتوحشين فى أعلاه ، ولا يعرف إلا الله أية آلات حربية هائلة ، أية مدافع وقنابل وطربيدات قد يرسل لتدميرنا هذا العالم الذى تحت أقدامنا ، وهو العالم الواسع الذى لم نخترق إلا غشاءه الخارجى . وأصبح واضحا لنا أن الهجوم خير ما يجب علينا

عله وأنحى أكثر وضوحا حين ظهرت أقدام عدد آخر من المخلوقات القمرية تجرى أسفل الكهف فى اتجاهنا .

وصاح كافور يناديني ، وإذا هو واقف فى منتصف الطريق بيني وبين الشباك .

فصحت به : « عد إلى مكانك ! ماذا تفعل ؟ »

فقال : « لقد أحضروا ..... إنه يشبه المدفع »

وظهر رأس وكتفان من بين قضبان ذلك الشباك ، وكان صاحبها يكافح لاختراق تلك الحراب الدفاعية ، وكان نحيلا فريدا فى نحوله ، ذا سمات حادة كالزوايا ، ويحمل جهازا معقداً .

وتأكد لى عجز كافور التام عن الدخول فى هذا النوع من القتال وترددت لحظة ثم اندفعت وتركته ورائى ، وكنت ألوح عتلتى وأصرخ لأربك المهاجم وأضيع عليه هدفه ، وأخذ يصوب الآلة نحوى بصورة متناهية فى الغرابة وقد أسندها على بطنه ، وإذا أنا أسمع أزيزها . إنها لم تكن مدفعا فقد انطلقت كما ينطلق القوس وأوقعتنى فيما يشبه نصف وثبة .

لم أسقط إلى الأرض ولكنى انحنيت نحوها انحناءة ما كانت تحدث لو لم يصبنى الجهاز ، وأستدل من تحسسى لكتفى أن الجهاز ربما ضربنى ضربة خفيفة ثم انحرف عنى ، ورميت السهم مرة أخرى بيدى اليسرى ورأيت أن شيئا يشبه الحربة قد انغرس نصفه فى كتفى ، وفى اللحظة التالية كنت أمسكت العتلة بيدى اليمنى وضربت بها المخلوق

القمرى ضربة كقفزة فانهار وانسحق وانكمش جسمه وتهشمت رأسه كما تهشم البيضة وألقيت إحدى العتلتين إلى الأرض ثم نزعت الحربة من كتفى ورحت أطعن بها فى الظلام من خلال الشباك فكانت كل طعنة تعقبها صرخة وزقزقة ، وفى آخر الأمر طوحت الحربة عليهم بكل ما لدى من قوة ، ثم وثبت وثبة عالية ، وأخذت العتلة من الأرض ثانية واندفعت فوق المغارة نحو جموعهم .

وراح كافور يناديني وأنا أندفع وسطهم .

ويخيل إلى أنى أتذكر خطواته وهو يسير خلفى .

خطوة فقفزة ، . . ثم صوت خطوة ثرثية . . .

ويخيل إلينا كأن كل قفزة استغرقت أجيالا ، وكان باب الكهف ينفتح بعد كل منها وفى كل مرة نرى عدداً آخر من المخلوقات القمرية . بدوا فى أول الأمر يجرون حول المكان وكأنهم نحل فى خلية مضطربة وراح واحد أو اثنان منهم يلوح فأسه ويتقدم للقتال ، وهرب أكثرهم واندفع البعض نحو جانبى طريق الجثث الحيوانية ، ولاح للبصر غيرهم من حملة الحراب ثم أقبل غيرهم وغيرهم ، ورأيت منظراً غريباً ، فقد انطلقت الأيدى والأرجل لتؤلف غطاء للهاجمين ، وازدادت العتمة فى أعلى المغارة ، وطار شىء من فوق رأسى فأحدث صوتا خافتاً ، وبين أنا آخذ نصف خطوة سابحا فى الهواء إذا حربة تهتز بعد أن انغرست فى إحدى الجثث التى عن يسارى ، وما أن لامست قدمى الأرض حتى رأيت أخرى تسقط على الثرى أمامى ، وسمعت الأزيز

البعيد الذى تحدثه آلتهم وهى تطلق هذه الحراب . ثم تعالت أصوات الحراب التى ظلت لحظة تنزل كالمطر . لقد كانوا يطلقون مدافعهم .

ووقفت فجأة .

ولا أظن أنى كنت فى تلك الساعة أفكر تفكيراً سليماً . ويخيل إلى أنى تذكرت عبارة مصموغة وراحت تجول فى ذهنى : منطقة ضرب النار ابحث عن مخبأ . وأذكر أنى اندفعت نحو الفراغ الذى يفصل بين جثتين من الجثث ، ووقفت فيه ألهث تعباً وأشعر بروح الشر داخلى .

والتفت حولى باحثاً عن كافور ، ومرت لحظة بدا لى فيها وكأنه قد اختفى من العالم ، إذ هو يخرج من وسط الظلام فاتحه بين طريق الجثث وجدران المغارة . كان وجهه الصغير يبدو أسود مزرقاً ، ويطفح عرقاً وانفعالا .

وكان يتكلم ، ولكننى لم أعره التفاتا ، وكنت قد تأكدت من أننا قد نستطيع القيام بعملياتنا الحربية من جثة إلى جثة فى أعلى المغارة إلى أن نصبح على قرب كاف يمكننا من توجيه هجوم فعّال ، فإما هو أو ضاع علينا كل شىء .

وقلت لكافور وأنا أسير أمامه : « أقبل ! » .

هذا وقد كان ذهنى منصرفاً إلى التفكير ونحن نسير فى ذلك الطريق الضيق بين الجثث وجدران المغارة ، وكانت الصخور مائلة فاستحال على ملقاتهم أن تصيبنا . ورغم صعوبة القفز من ذلك المكان الضيق فقد كنا بفضل قوتنا الأرضية أقدر على الجرى السريع من تلك المخلوقات القمرية وقدرت فى حسابى أنه سوف لا يمضى وقت حتى نجد أنفسنا فى وسطهم

وسوف يبدون مروعين كالخنافس السود عند هجومنا عليهم . على أنهم سوف يبدأون بإطلاق سهامهم . ففكرت فى خدعة حربية ، هى أن رحت أجرى وأضرب الهواء بعطفى القطنى .

ونادى علىّ كافور ، وهو يلهث ورائى .

والتفت خلفى وسألته عما يريد منى .

فراح يشير إلى أعلى فوق الجثث ثم قال : « الضوء الأبيض ! الضوء الأبيض مرة أخرى . » .

فنظرت إلى حيث أشار ، وإذا هو كما قال : طيف أبيض خفيف من الفسق فى سطح المغارة البعيد ، فضاعف ذلك من قوتى ، كما خيل إلىّ .

وقلت له : « لا تبتعد عنى ! » وعندئذ انطلق من وسط الظلمة قمرى طويل القامة مسطح الجسم . أرسل صيحة مرتعب ثم ولى الأدبار ، فوقفت وأوقفت كافور بحركة من يدى ، ثم علقت معطفى فوق العتلة والخنبث وأخفيت نفسى وأنا أسير حول الجثة التالية ، ثم ألقيت المعطف والعتلة جانبا ، وأظهرت لهم نفسى وتراجعت إلى الوراء .

وأرسلت الآلة أزيزها فانطلق منها سهم واحد . وعندئذ أطبقنا على المخلوقات القمرية وكانت مجتمعة معا الطويل منها والقصير والغليظ ، ومعها مدفعية من أدواتها الحربية موجهة إلى أسفل المغارة . وتبع السهم الأول ثلاثة أو أربعة أخرى ثم وقف الرشق .

ورفعت رأسى إلى أعلى فتكان فى ذلك تجاف من سهم كان على قيد شعرة منى ، ووزعت فى هذه المرة اثنى عشر سهما أو يزيد ، ثم سمت

القمريين يزقزقون ويصيحون كأن رشق السهام قد استثارهم، وتناولت المعطف والمثلة من الأرض ثانية.

وطوحت المعطف وأنا أقول: «تم الآن!».

وتردد الأزيز فأصبح مطبقاً في لحظة واحدة أشبه بلجة كثة من السهام، كما راحت هذه السهام تئز فوق الجثث التي انغرست فيها. وأخرجت المثلة من تحت المعطف وألقيته عنى على أرض القمر حيث لا يزال يرقد إلى الآن، ولا أدرى أن فعلت شيئاً غير ذلك، ثم كررت عليهم.

وكان القتال أشبه بمذبحة واستمر دقيقة واحدة. لقد كنت شرساً فلم أميز بينهم وقد كانوا على الأرجح في حالة ذعر فلم يقاتلوا. ولم يكن عليهم صدى يشبه أي نوع من القتال على أية حال. ورغم ذلك رأيت وقتاً عصيباً، كما يقول المثل. وأذكر أنى رحت أغوص بين هذه المخلوقات الجلدية كما يغوص الإنسان وسط النجيل الطويل فكنت أجشهم وأضربهم بقدمى يميناً ويساراً وأهشمهم تهشيماً فتتناثر حولى قطرات صغيرة من شيء سائل. وكنت أدوس على أشياء يسمع لها صفير وهي تنسحق تحت قدمى وتضحى لجة. وكانت جموعهم، على ما يبدو، تفتح في وسطها طريقاً ثم تنسد، ثم تتدفق كالماء. ويبدو كذلك أنه لم يكن لديهم خطة مترابطة من أي نوع، فكانت الحراب تتطاير حولى وقد أصابتنى واحدة منها بسحجة فوق أذنى، وطعنتنى أخرى في ذراعى وثالثة في خدى، ولكنى لم أكتشف هذا إلا بعد

حين، حين شعرت بالدكاوة بعد أن سال الدم بطيئاً وبرد.

ولم أدر ما كان كافور يفعله، ومرت فترة بدا فيها أن القتال قد استمر جيلاً، وسوف يدوم إلى الأبد، ولكنه انتهى فجأة، ولم تعد ترى إلا الظهور والرءوس التي كانت تظهر وتختفى حين يجرى أصحابها في جميع الاتجاهات. وخيل إلى أنى لم أصب بأى أذى. ورحت أعدو بضع خطوات إلى الأمام وأصيح، ثم التفتُّ إلى الخلف فرأيت ما أذهلنى.

لقد وجدت نفسى أخترق صفوفهم وقد حلقت فوقهم بخطواتى الواسعة التى تركتهم وراءى، فراحوا يجرون في شتى الأنحاء ليختبئوا.

وما كان أعظم دهشتى لتبخر ذلك القتال الذى ألقيت نفسى فيه دون أن أنال منه مجداً، ولم يبد الأمر لى كأنى اكتشفت أن هؤلاء المخلوقات القمرية رقيقة رقة لم تكن تتوقعها بل كأنى اكتشفت بأنى قوى قوة لم أكن أتوقعها. فضحكت ضحكة الأعياء، وياله من قمر غريب!

ورحت أنظر لحظة إلى تلك الأجسام المهشمة الملتوية المتناثرة فوق أرض المغارة، تراودنى فكرة غامضة باستخدام هذا العنف مستقبلاً، ثم أسرعت الخطى وراء كافور.

الفصل الثامن عشر

فى ضوء الشمس

ورأينا الثغر المغارة التى أمامنا تنفتح فتكشف عن فراغ لا تتضح فيه الرؤية ، ودخلنا فى اللحظة التالية إلى ما يشبه الرواق المائل الذى كان يمتد فى فضاء واسع مستدير وهوة كبيرة أسطوانية الشكل تمتد عموديا من أعلى ومن أسفل . وكان الرواق المائل يحيط بهذه الهوة دون أن يكون له حاجز ما يقى من السقوط إذا ما دار أحد حوله دورة ونصف دورة ثم يصعد عاليا فيتصل بالصخر مرة أخرى . وذكرنى هذا الرواق حينئذ بإحدى القنوات اللولبية التى يلفها القطار الذى يخترق ممر سانت جوثرد . لقد كان كل شىء فيه ضخما متناهيا فى الضخامة . ولست آمل فى أن أنقل لك النسب الكبيرة التى كانت عليها أجزاء ذلك المكان أو الأثر الكبير الذى يتركه فى النفس . وكانت أنظارنا تتبع ميل جدار الهوة ، ذلك الميل العظيم ، وكنا نشاهد فوق رءوسنا إلى مسافة بعيدة فتحة مستديرة وقد رصعت بنجوم خافتة الضوء بينما كانت الحافة المحيطة بها مضاءة إلى نصفها بنور الشمس الأبيض الذى يكاد يخطف الأبصار وعندئذ أرسلنا صيحة عالية فى وقت واحد .

وقلت له ، وأنا أسير أمامه : « أقبل ! » .

وقال كافور : « ألا هناك أتبعك ؟ » على أنه سار بخطوات وئيدة ، مقتربا من حافة الهوة ، وفعلت مثله وقد اشرأب عنقى إلى الأمام وأنا أنظر إلى أسفل . ولكن ذلك البريق الذى فوق خطف بصرى فلم أستطع أن أرى سوى الظلام الذى لا قرار له والتى كانت تسبح فيه بقع قرمزية وأرجوانية من الطيف . على أنه إذا انعدمت الرؤية فلم ينعدم السمع ، فقد كان يخرج من ذلك الظلام صوت ، صوت يشبه طنين النحل الغضوب حين يدنى أحد أذنه من خليته ، صوت يصدر من ذلك التجويف الهائل ، وقد يكون على عمق أربعة أميال تحت أقدامنا .

وأنصتُّ لحظة ، ثم شددت قبضتى على العتلة التى فى يدى وسرت قدام زميلى أصعد ذلك الرواق .

وقال كافور : « لا بد أن يكون هذا باب الهوة التى رأيناها أسفل ذلك الغطاء . »

— فى ذلك المكان السفلى حيث رأينا الأضواء .

— الأضواء ! أجل أضواء العالم الذى نراه الآن .

— سنعود .

قلت ذلك لأنه قد طال عروجنا ، وكنت متحمسا إلى حد الجنون للعثور على الكرة .

ولكنى لم أسمع جوابه ، فقلت : « ماذا ؟ » .

فقال : « ليس هذا بالأمر الهام ! » وأسرعنا الخطى فى صمت .

يخيل إلى أن ذلك الطريق الجانبي المنحدر يمتد إلى مسافة أربعة أو خمسة أميال ، إذا قدرنا فى حسابنا انحناءاته . وينحدر انحدارا سريعا يجعل من الصعب اجتيازه لو كان على سطح الأرض ، ولكننا صعدناه بسهولة ، ونحن تحت تأثير الأحوال القمرية . ولم نر فى تلك المرحلة من مراحل هروبنا سوى اثنين من تلك المخلوقات القمرية ، وما إن شعروا بوجودنا حتى ولوا الأدبار ، فلاشك فى أن أخبار قوتنا وشدتنا قد وصلت إليهم . أما طريقنا إلى سطح القمر فقد وضح بصورة لم نكن نتوقعها . وقد أفضى الرواق الطولى إلى نفق مستقيم الاتجاه ، وتغشى أرضه آثار كثيرة الوحوش القمرية ، وكان مستقيما وقصيرا بالنسبة إلى سقفه المقوس الهائل لدرجة أن الظلام المطلق لم يكن سائدا فى أى جزء من أجزائه . ثم ظهر الضوء فيها بعد ذلك مباشرة ، وبدت من الخارج فتحة النفق بضوئها الذى يكاد يذهب بالبصر وكانت على ارتفاع عال ومسافة بعيدة ، وبدت فى سرعة انحدارها كقمة من قمم الألب . وكان يعلوها دغل ذو أوراق مسننة ، ولكنها بدت فى تلك الساعة طويلة محطمة ، وقد جفت وماتت وانعكست سيقانها على صفحة الجو فى ضوء الشمس .

وإنه لمن الغريب أننا نحن الذين ظهرت لنا النباتات منذ عهد قريب شيئا مرعبا ، ننظر إليها الآن بالعاطفة التى قد يشعر بها رجل عائد من المنفى إلى وطنه حين تقع عيناه على أرض أجداده وكنا نرحب حتى بالهواء الشحيح الذى جعلنا فلنلهث ونحن نجرى ، والذى لم يعد لحديثنا رجاله تلك السهولة السابقة ، بل اضطرنا إلى بذل الجهد إذا أردنا من الغير أن يسمعونا وازدادت مساحة الدائرة الضوئية التى فوقنا ،

وكبر حجمها . وغمرت الجزء القريب من النفق منطقة سوداء لم يمكن تمييزها . ولم يعد أى أثر للخضرة فى ذلك النبات الشائك كالمراتب بل استحال إلى شيء بنى اللون جاف سميك وألقت ظلال فروعه العليا التى كانت بعيدة عن مرأى العين رسوما كثيفة متشابكة على الصخور المنهارة . وكان عند المدخل القريب للنفق ساحة فسيحة مطروقة رأينا الوحوش القمرية تروح وتجىء عليها .

وأقبلنا أخيرا على تلك الساحة وسط ضوء وحرارة لفحانا وضغطا علينا ، وقطعنا البقعة المكشوفة بعذاب وتسلقنا منحدارا واقعا وسط جذوع الأدغال ، وفى آخر الأمر جلسنا فى مكان عال تحت ظل كتلة من الركام البركانى الملتوى الملتف ، نلهث تعبا . وكان الصخر حارا رغم أنه فى الظل .

وكان الهواء شديد الحرارة فكنا نشعر بتعب جسمانى كبير ، ولكننا لم نعد نقاسى الكابوس رغم ذلك كله وخيل إلينا أننا قد عدنا إلى منطقتنا تحت النجوم . وقد ذهبت عنا جميع المخاوف وذلك الضيق الذى لازمنا أثناء هروبنا فوق تلك الممرات والشقوق المظلمة التى تحتنا وقد ملأنا القتال الأخير ثقة بأنفسنا تجاه هذه المخلوقات القمرية . ونظرنا خلفنا إلى تلك الفتحة السوداء التى خرجنا منها ونحن لا نكاد نصدق أنفسنا . على أنها كانت لا تزال تكمن تحتنا ، يغمرها ذلك الوهج الأزرق الذى يبدو لذاكرتنا الآن أقرب شيء إلى الظلام المطلق ، كما تبدو تلك الأشياء التى قابلناها ، تلك المخلوقات التى تلبس الخوذات تقليدا ساخرا

جثونا للإنسان وقد ساقونا أمامهم علانا الخوف فتسللنا لهم إلى أن عنقنا نرعا بالاستسلام، وهاهم أولاء قد تهشموا كأنهم الشمع وذروا كالتبن وتناثروا هاربين واختفوا كأنهم من شبح الأحلام!

ورحت أفرك عيني وأنا في ريبة من أمري — ألا يمكن أن تكون قدمنا وحلمنا بهذه الأشياء من جراء ذلك الفطر الذى أكلناه ولكنى اكتشفت وجود دم على وجهى والتصاق قميصى بكتفى وذراعى مما سبب لى ألما.

فصحت: «يا لى!» ورحت أتحسس جروحى بيدى ولم يلبث فم ذلك النفق أن أصبح عينا تراقبنى كما خيل لى.

وتساءلت: «ماذا هم فاعلون الآن وماذا نحن فاعلون؟»

فهز رأسه وعيناه لا تفارقان فتحة النفق، وأنشأ يقول: «كيف يمكن التنبؤ بما سوف يفعلون؟»

فقلت له: «هذا يتوقف على رأيك فينا، ولا أدرى كيف يمكننا أن نتنبأ بهذا الآن، ويتوقف كذلك على ما لديهم من خطط. إن الأمر كما قلت يا كافور: إننا لم نصل إلا إلى الجزء الخارجى الرقيق من هذا العالم قد يكون عندهم فى داخل القمر مختلف المعدات، ويمكنهم أن يذيقونا الأمرين حتى بهذه الأجهزة التى يستخدمونها لإطلاق السهام...»

وقلت متابعا حديثى: «ومع ذلك وإذا فرضنا جدلا أننا لم نعثر على الكرة حالا فأمامنا فرصة. يمكننا الثبات والمقاومة، حتى وسط الليل يمكننا أن ننزل إلى جوف القمر مرة أخرى، ونحاول الحصول عليها».

وأجلت النظر حولى بعينين مفكرتين وإذا طبيعة المنظر قد اعتراها تغيير شامل بسبب الجو الحائل الذى وصل إليه الدغل، وما تبعه من جفاف. وكانت القمة التى نجلس عليها عالية وتشرف على أرجاء واسعة من المشاهد المحيطة بالفوهة البركانية، فإذا هى قد ذبلت جميعا وجفت فى أواخر الخريف القمرى وفى فترة ما بعد الظهر. وشاهدنا المنحدرات والحقول المطروقة التى كانت الوحوش القمرية ترعى عليها وقد لاحت فى لون بنى، الواحد بعد الآخر. وظهر قطيع منها على مسافة بعيدة فى وهج الشمس وراح يصطلى فى نعاس ويبدو بأشكال متفرقة وعلى كل حيوان منها بقعة من الظل كأنه خروف على سفح كثيب من الكثبان. أما تلك المخلوقات فلم نعثر على أثر لها، ولا يمكننى أن أخمن أكان سبب ذلك أنهم هربوا على إثر خروجنا من الممرات الداخلية، أم أنهم اعتادوا على ملازمة ديارهم بعد سوق رعيتهم. واعتقدت آنئذ أن السبب الأول هو الذى يصدق عليهم.

وأنشأت أقول: لو أشعلنا النار فى جميع هذه النباتات لأمكننا العثور على كرتنا وسط الرماد المتخلف.

ويبدو أن كلماتى لم تصل إلى كافور فقد كان واضعا يديه على عينيه ينظر خلال أصابعهما إلى النجوم، وكانت لا تزال بادية للعين فى أعداد كثيرة رغم شدة حرارة الشمس، وأخيرا سألنى:

— كم من الوقت تظن قضينا هنا؟

— أين؟

— على القمر

— يومين أرضيين ، على ما أرجح .

— أكثر من حوالى عشرة أيام . فاعلم أن الشمس قد تخطت سمت الرأس ، وغاصت غربا فى الأفق . وسوف يحل الليل بعد أربعة أيام أو أقل .

— ولكننا لم نتناول الطعام الا مرة واحدة

— أعلم ذلك . و . . . ولكن هاهى ذى النجوم !.

— ولكن لم يبدو الزمن مختلفا ونحن على كوكب أصغر من أرضنا

— لا أدرى . ولكن هذا الواقع

— كيف يعرف الإنسان الوقت ؟

— الجوع والإعياء وما إليهما ... تختلف . كل شىء يختلف . ويبدو الأمر لى أن المسألة مسألة ساعات . ساعات طويلة ، على الأرجح منذ خروجنا من الكرة .

وقلت : « عشرة أيام ، فيبقى . . . » ورفعت نظرى إلى الشمس لحظة ، فرأيت أنها فى منتصف الزاوية بين سمت الرأس والأفق الغربى وتابعت حديثى .

« أربعة أيام ! . . . اذن يجب ألا نجلس هنا ونحلم ، ماذا ترى فى الطريقة التى يمكننا أن نبدأ بها ؟ »

ونهضت واقفا ثم مضيت أقول : « يجب أن نحدد نقطة ثابتة نتعرف

عليها . ويجب أن نرفع علما أو منديلا أو أى شىء ، ونرسم مربعا على الأرض ، ونقوم بالعملية حوله .

ووقف إلى جانبى وأنشأ يقول :

« أجل ، لا يمكننا تدبير أمورنا إلا بالبحث عن الكرة . لا يمكننا على أننا نستطيع العثور عليها . . . لاشك فى أننا نستطيع أن نجدها . ولكن إن لم . . . » .

فقلت : « نستمر فى البحث » .

وراح ينظر من هنا وهناك ، ثم ألقى نظرة عاجلة إلى السماء فوقه وأخرى إلى النفق تحته ، وأدهشتنى منه حركة فجائية تنم بعدها ضجرا فاقد الصبر ، وأنشأ يقول : « لقد تصرفنا تصرفا طائشا ! ويئول بنا الأمر هذا المآل . فكر فى الأحداث وكيف كانت ستسير ، وفى الأعمال التى كان يمكن أن نعملها » .

وقلت : « مازال فى إمكاننا أن نعمل شيئا ! » .

فقال : « لن يكون ذلك ما كان يمكن أن نقوم به . فهنا تحت أقدامنا يقع عالم . فكر فيما يجب أن يكون عليه هذا العالم . فكر فى تلك الآلة التى شاهدناها ، فى ذلك الغطاء وفى باب الفوهة لقد كانت أشياء بعيدة فحسب ! أشياء فى الفضاء الخارجى ، ولم يكن هؤلاء الأقوام الذين رأيناهم وحاربناهم سوى ريفيين جهلة ، من سكان الضواحى ، فلاحين وعمال ، قد يقربون من الحيوانات وتلك الأعمال السفلى ! مغاور تحت مغاور . نفق وأبنية وطرق . . . . يجب أن يكشف عما فيه ، ويكبر

ويتسع ويتزايد سكانا كلما أوغلنا فى النزول . يجب أن يكون كذلك إلى أن نصل فى آخر الأمر إلى البحر الأوسط الذى يكمن فى جوف القمر . تأمل مياهه الدهماء تحت تلك الأضواء المدخرة — إن أحوج عيونهم الضوء — تأمل روافده ومساقط مياهه المتدفقة وهى تصب فى القنوات لتغذيته بالماء . تأمل الأمواج على سطحه ، وانسياب المد والحسار الجذر . قد تكون لديهم السفن التى تسير عليه . وقد توجد فى هذا العالم السفلى مدن وطرق تعج بالناس . وحكمة ونظام يفوقان عقول البشر ، وقد تقضى تجاربنا ، دون أن نرى أولئك السادة الذين لاشك فى وجودهم — يسيطرون على هذه الأشياء . وقد تتجمد أجسادنا وتجف فى هذا المكان ، ويتجمد الهواء ويذوب عليها ، ثم . . . ثم يأتى هؤلاء الأقوام ، فيعثرون على جثتنا وقد تصلبت وسكنت ، وقد يجدون الكرة التى قتلنا فى العثور عليها ، ثم يدركون فى آخر الأمر ، وبعد فوات الوقت ، تلك الفكر والجهود التى انتهى بها المطاف هنا عبثاً ! »

كان صوته رغم ذلك الحديث كله يشبه الصوت الذى يسمعه الإنسان المتكلم على المسرة ضعيفا آتيا من بعيد .

وقلت له : « ولكن الظلمة » .

— يمكن التعود عليها .

— كيف ؟

— لا أدرى . من أين لى أن أعرف ؟ قد نحمل شعلة ، وقد نحصل على مصباح . أما الآخرون فقد يدركون .

ووقف لحظة ، وقد أرخى يديه ، وأطل بوجه كسيف على هذا الفراغ الذى يتحداه ، ثم التفت نحوى وقد بدت عليه إمارات إنكار الذات ، وراح يعرض على اقتراحاته بصدد القيام ببحث منظم عن الكرة .

وقلت له : « فى استطاعتنا أن نعود » .

وقال وهو يطل حوله : « يجب علينا أولا أن نعود إلى الأرض

— إذن لاستطعنا أن نعود بمصابيح نحملها وأدوات حديدية نستخدمها التسلق ومئات من الضروريات .

— نعم .

— ونستطيع أن نعود عن سبيل هذا الذهب بما يحقق لنا النجاح .

ونظر إلى عتلتى الذهبيتين . وانقضت فترة لم ينبث فيها ببنت شفة ووقف وقد شبك يديه وراء ظهره وراح يصوب نظره إلى الفوهة البركانية ، ثم أرسل آهة وأنشأ يقول :

« أنا الذى اكتشفت الطريق إلى القمر ، ولكن ليس كل من وجد طريقا صار صاحبه . وإن عدت إلى الأرض بهذا السر فما الذى سوف يحدث ؟ على أننى لست أدرى كيف السبيل إلى الاحتفاظ بهذا السر سنة أو جزءا من سنة ، وسوف ينكشف الأمر إن عاجلا وإن آجلا ، حتى لو قام آخرون باكتشافه مرة أخرى ، وبعد ذلك سوف يقع الصراع بين الدول للمجىء إلى هنا . وسوف تقوم دولة على دولة ثم يحاربون سكان القمر ، ولن ينتج عن هذا إلا انتشار الحروب واتساع أسبابها ، ولن يمضى وقت طويل حتى تغشى جثث القتلى من بنى البشر جميع

اروقة هذا الكوكب إلى أعمق الأعماق ، إذا أنا أذعت سرى . وقد تقع أحداث أخرى ، ولكنى فى شك من وقوعها أما الحرب فمؤكدة .. كان القمر أى نفع للإنسان ! إذ ماذا يمكن الإنسان أن يفيد من القمر ؟ وماذا صنع الناس بكوكبهم ذاته الا أن أحالوه إلى ساحة للقتال ومسرح لترفهم الذى لا حد له ، وما زال أمامه من الأعمال على الأرض أكثر مما يستطيع أداءه ، رغم صغر عالمه وقصر عمره . كلا ! لقد ظل العلم طويلا يصنع الأسلحة ليستخدمها المجانين وقد آن الأوان ليكف يده ، وليكشف الإنسان الحقيقة لنفسه مرة أخرى فى غضون ألف سنة .. »

وقلت : « هناك أساليب للسرية » .

فرفع نظرة إلى وابتسم ثم تابع حديثه فقال : « ولم القلق ؟ ليس لدى أمل كبير فى العثور على الكرة . وهنا فى المنطقة السفلية التى تحتنا أحداث تختمر . إننا نفكر فى العودة لا لسبب إلا لأننا نحن البشر اعتدنا على أن نعلل النفس بالآمال إلى يوم الممات ، ولسنا إلا فى بداية متاعبنا . لقد أظهرنا الشدة لهؤلاء القوم القمريين ، وأذقناهم طعم أخلاقنا وموقفنا منهم يكاد يشبه موقف نمر تسلل من مخبئه وقتل رجلا فى حديقة هايدبارك بلندن . ولا بد أن أخبارنا قد تسربت الآن من رواق إلى رواق إلى أن وصلت إلى الأجزاء الوسطى . . . ولن توصف بالتعقل تلك المخلوقات التى تسمح لنا بالاستيلاء على الكرة والرجوع إلى الأرض بعد كل الذى رأته منا » .

وقلت له : « لن يطرأ تحسن على مركزنا إذا نحن ظللنا جالسين هنا .. »

ووقفنا الواحد بجانب الآخر .

وراح هو يتكلم . قال : « يجب أن نفترق ، بعد كل هذا يجب أن نعلق منديلا على هذه النباتات العالية الشائكة هنا ثم نربطه بإحكام . ولنتخذ هذا المكان مركزا نعمل منه فوق هذه الفوهة البركانية . فلتقم أنت غربا فى شكل أنصاف دوائر جيئة وذهابا فى اتجاه الشمس الغاربة ، ويجب أن تسير أولا بحيث يقع طيفك عن يمينك إلى أن تصنع زاوية قائمة مع اتجاه منديلك ثم سر بعد ذلك وطيفك إلى يسارك . وسوف أحذو أنا حذوك إلا أننى سأتجه يمينا وسنبحث فى كل أخدودة ونفحص كل الجزائر الصخرية ، ولنبذل قصارى جهودنا لإيجاد كرتى . وإذا رأينا أحداً من المخلوقات القمرية فلنختبئ منها على قدر المستطاع ولنتخذ الجليد شرابا وإذا شعرنا بحاجة إلى الطعام فيجب أن نقتل أحد الوحوش القمرية إذا استطعنا إليها سبيلا ، ونأكل لحمه أيا كان نوعه — نأكله نيئا ، ثم ليسر كل منا فى طريقه الخاص » .

— وإذا عثر أحدنا على الكرة ؟

— عليه أن يعود إلى المنديـــل الأبيض ويقف إلى جواره ، ويعطى إشارات إلى زميله .

— وإذا لم ...

— نستمر فى البحث إلى أن يخيم علينا الليل ببرده .

قال هذا وهو ينظر إلى الشمس فقلت له :

« هب أن القمريين عثروا على الكرة وأخفوها » .

فهز كتفيه ، وانثنيت أقول :

« أو أنهم جاءوا يتعقبوننا حالا ؟ » .

فلما لم يحر جوابا قلت له :

« من الخير لك أن تمسك عصا غليظة » .

فهز رأسه وأشاح بوجهه عنى وهو ينظر الى الفراغ الواسع .

ولكنه لم يتحرك السير بل راح ينظر حوله باستحياء ، ثم ظل مترددا لحظة وقال : « إلى اللقاء » .

وشعرت بطعنة عاطفية غريبة ، وإحساس بالمرارة التى سببها الواحد الآخر ولا سيما ماسببته أنا له منها . وقلت فى نفسى : « تبا لنا ! كان فى إمكاننا أن نحسن التصرف . » وكدت أطلب منه أن نتصافح ، لقد كان ذلك هو شعورى فى تلك اللحظة ، على أية حال ، وإذا هو يضم رجليه ويقفز بعيدا عنى متجها شمالا . وبدا وكأنه يندفع مع الهواء كورقة الشجر اليابسة ، وحط على الأرض بخفة ثم عاد يقفز قفزة أخرى وقفت لحظة أراقبه ، ثم حولت وجهى صوب الغرب ضد رغبتى ، وتأهبت وقد تملكنى شعور من يثب فى ماء مثلج . ثم اخترت نقطة الوثوب وسبحت إلى الأمام تواقة لقيامى وحدى بارتياد النصف الآخر من العالم القمرى ، فسقطت سقطة خائبة بين الصخور . نهضت

واقفا ورحت أنظر حولى ، ومن ثم تسلقت حافة من الصخر ووثبت وثبة أخرى .

ورحت أبحث عن كافور فى الحال ، ولكنه كان قد توارى عن الأنظار . أما المنديل فقد ظل ثابتا فوق قاعدته يلوح بياضه فى وهج الشمس .

وعزمت ألا يغيب ذلك المنديل عن نظرى مهما حدث .

الفصل التاسع عشر

المستر بدفورد وحده

وخيل إلى بعد فترة قصيرة كأنى كنت دائما وحدى على القمر ، وأخذت أبحث عن الكرة بشيء من الشدة ، ولكن الحرارة كانت لاتزال قوية جدا ، ورقة الهواء تشعر الإنسان بما يشبه الطوق يلتف حول صدره ، وسرعان ما وصل بى المطاف إلى حوض مجوف تسمو على أطرافه سعف طويلة بنية اللون جافة ، جلست تحتها لأستريح وأنعم بالبرودة ، ولما لم يكن فى نيتى أن أستريح إلا فترة قصيرة ، وضعت حذائى بقربى وجلست مسندا ذقنى على يدى ورأيت بشيء من الاهتمام المبهم أن صخور ذلك الحوض كانت تجرى فيها عروق من الذهب وترصعها قطع متناثرة منه ، وعندما ينكمش الخراز الصخرى الذى يغطى أجزاء متفرقة منها بعد أن يجف ويتكسر ويكشف عما حوله ، تظهر بروز مستديرة متجمعة من هذا المعدن فى مواضع كثيرة منها بين حطام النبات . ولكن ما أهمية ذلك الآن ؟ وحل بأطرافى ورأسى نوع من الخمول ، فلم أعد أعتقد أننا سنجد الكرة فى هذه البرية الترابية الجافة ، وخيل إلى أنه يعوزنى حافز لأبذل مجهودا ، إلى أن تظهر المخلوقات القمرية . على أنى فكرت فى وجوب بذل هذا المجهود انصياعا لذلك الأمر غير المعقول الذى يحث

الإنسان على أن يحافظ على حياته ويدافع عنها قبل أى شيء آخر ، حتى إذا حفظها يموت بعد وقت قصير ميتة أكثر ألما من الأولى .

فلم كان مجيئنا إلى القمر ؟

لقد مر هذا السؤال بمخيلتى كأنه معضلة متعددة ، إذ ما هى تلك الروح التى فى الإنسان ، التى تفتأ تحثه على هجران السعادة والأمان وعلى الدأب وركوب المخاطر ، والمغامرة بموت محقق ؟ لقد انكشفت لى تلك الحقيقة وأنا على سطح القمر شيء كان حريا بى أن أعرفه دائما وهو أن الإنسان لم يخلق ليجول فى الأرض آمنا مستريحا مالئا جوفه ، متمتعا بلعب . وإذا وضعت هذه الحقيقة أمام رجل فى صورة فرص يقابلها فى الحياة وليس صورة عبارات كلامية ، فإنه يكاد يظهر لك أنه يعرف هذا كله . فهو دائما وأبدا مسوق ليأتى أعمالا غير معقولة ، أعمالا ضد مصالحه وسعادته . فهناك قوة خارجة عنه ، تدفعه ، وإذا هو ينسحب رغما عنه . ولكن لم ؟ لم هذا كله ؟ ورحت أستعيد قصة حياتى وأنا جالس هناك وسط الذهب القمرى العديم النفع ، ووسط أشياء تخص عالما آخر واقترحت أننى سوف أموت طريدا شريدا على وجه القمر ، وعجزت عجزا تاما عن رؤية الغرض الذى خدمته . ولم أجد ما يلقى ضوءا على هذه المسألة . على أن الأمر واضح لى على أية حال وضوحا لم أعرفه قط فى حياتى ، فأنا لم أكن أخدم هدفى الخاص ، وفى الحقيقة لم أخدم طيلة حياتى أى هدف من أهداف حياتى . أية أغراض كنت أخدم إذن ؟ ولمن كانت هذه الأهداف التى خدمتها . . . . لم أعد أفكر فى سبب مجيئنا إلى القمر وسبب قيامنا بهذه السفرة الطويلة . وسبب مجيئى إلى

الأرض . ولم كانت لى حياة خاصة ؟ . . . . وضللت سبيلى أخيراً فى تأملات لا نهاية لها .

وأصبحت أفكارى مبهمة تشوبها الغيوم . ذلك أنها لم تعد تؤدى بى إلى أية اتجاهات معينة . لم أكن قد شعرت بالثقل والإعياء . ولا يمكننى أن أتخيل شخصاً يشعر بهذا الشعور على القمر . ولكن تغلب على ظنى أنى كنت متعباً جداً . وقد نمت على أية حال .

وأعتقد أنى شعرت براحة عظمى بعد ذلك النوم . وكانت الشمس آخذة فى المغيب ، وعنف الحرارة آخذاً فى الفتور طيلة الساعات التى هجعت فيها . وأفاقنى من غفوتى ضوضاء آتية من بعيد وشعرت بالنشاط يدب فى جسمى ثانية والمقــــدرة توانينى . ورحت أفرك جفونى وأمط ذراعى ونهضت واقفاً على قدمى — شعرت بتصلب بسيط فى جسمى — ولكن سرعان ما تأهبت لمعاودة بحثى ، فحملت هراوة التعدين على كتفى وخرجت من الوادى الذى تخترق صخوره عروق الذهب .

وكانت الشمس منخفضة بالتأكيد وأكثر انخفاضاً مما كانت وزادت برودة الهواء ، وعرفت أنى قد نمت فترة من الزمن ، وخيل إلى أن مسحة من الزرقة التى يغشاها الضباب كانت تكتنف التل الغربى . وتلفت إلى نتوء صخرى مستدير وأخذت أراقب الفوهة منه ، فلم تقع عينى على أثر للوحوش أو المخلوقات القمرية ، ولا على كافور ، ولكنى استطعت أن أرى منديلاً على مسافة بعيدة منشوراً على الدغل الشائك

ورحت ألتفت حولى ثم وثبت إلى الأمام إلى الموضع التالى الذى يناسب الرؤية .

وسرت فى خط منحن يرسم نصف دائرة ثم عرجت لأصنع نصف دائرة أخرى أبعد من الأولى ، ورسمت هلالا منها . كانت عملية شاقة لا أمل يرجى منها . وزادت برودة الهواء زيادة كبيرة عما كانت عليه ، وخيل إلى أن الظل الواقع أسفل التل الغربى أخذ يزداد عرضاً وكنت بين الفينة والفينة أقف لأعيد النظر ، ولكنى لم أستدل على أثر لكافور أو القمريين . وبدا لى كأن الوحوش القمرية قد سيقت إلى حظائرها داخل القمر لأنى لم أعثر على واحد منها . واشتدت بى الرغبة لرؤية كافور . كانت أشعة الشمس قد اختفت ولم تكد تبعد حافة السماء مسافة أطول من قطر قرصها . وشعرت بضيق عندما جالت برأسى الفكرة بأن القمريين سوف يقفلون الأبواب ويتركوننا خارجاً تحت رحمة الليل القمرى القاسى الذى على مداخل قمرهم ، ويتركوننا خارجاً تحت رحمة الليل القمرى القاسى الذى سوف يخيم علينا . وبدا لى أنه قد آن الأوان جداً أن نكف عن البحث ونخلص معا للاستشارة . وشعرت بمسيس الحاجة إلى اتخاذ قرار بصدد المنهج الذى يجب اتباعه . لقد فشلنا فى العثور على الكرة ، فلم يعد لدينا الوقت للبحث عنها ، وسوف نهلك إذا أغلقت أبواب المداخل القمرية دوننا . وسوف يهبط علينا ليل الفضاء البهيم . هذا السواد الذى يملأ الفراغ وهو ليس سوى الموت عينه . لقد اهتز كيانى عندما خطر لى ذلك الخاطر . لذا يجب علينا دخول القمر ثانية ولئن لقينا حتفنا ونحن نحاول ذلك . ورواحت تخطر أمامى وتعذبنى رؤيا جسدينا وقد تجمدا

وهلاكنا، ومنظرنا ونحن نطرق على مدخل الفوهة العظمى بآخر ما بقى فينا من قوة .

ولم أعد أفكر فى الكرة، بل فى العثور على كافور فحسب . وكدت أميل إلى دخول القمر مرة أخرى بدونه ، مفضلا ذلك على البحث عنه إلى مابعد فوات الوقت وكدت أصل إلى منتصف الطريق عائداً إلى مدينتنا، وإذا أنا فجأة أنتفض .

لقد رأيت الكرة .

لم أكن أنا الذى وجدتها بقدر ما كانت هى التى وجدتنى . كانت تقع إلى الغرب على مسافة تبعد عن المكان الذى وقفت عنده فى بحثى ، وقد دلت على وجودها الأشعة الثلاثة التى أرسلتها الشمس الغاربة وعكسها زجاجها فى شعاع يبهر البصر . وطفقت أفكر لحظة فى أن هذه خطة جديدة من خطط القمريين ضدنا ، ثم أدركت الأمر .

رفعت ذراعى وأرسلت صيحة خفيفة ثم قفزت إليها قفزات واسعة ، وزلت بى القدم فى إحدى هذه القفزات فسقطت فى واد عميق ، فالتوى كاحلى وصرت بعد ذلك أتعثر فى جميع خطواتى ، ولازمتنى حالة من حالات الألم النفسى فكنت أرتعش بشدة وكادت أنفاسى تنقطع وقتاً طويلا قبل أن أصل إليها، واضطررت ثلاث مرات على الأقل إلى الوقوف، ووضع يدى على خاصرتى . وكنت أتصبب عرقاً رغم رقة الهواء وجفـــافه .

لم أكن أفكر فى أى شىء سوى الكرة ، إذ وصلت إليها. وتشبثت

بهى بصـــدد أحوال كافور . وألقيت بثقلى الأخيرة ويدى على زجاج الكرة فارتميت عليها ألهث تعبا، وحاولت أن أصيح : « هاهى ذى الكرة يا كافور» . وما إن استجمعت قواى حتى نظرت خلال الزجاج السميك فبدت الأشياء التى بداخلها منقلبة ، واغتبطت لأنى ألقيت إليها نظرة عن كثب وحاولت الدخول إليها ، واضطررت إلى أن أزحزحها قليلا لأدخل رأسى من طاقتها فشاهدت داخلها عجلة الوقوف واستطعت أن أدرك أنه لم تمسسها يد ، ولم يصبها سوء . فقد كانت راقدة فى المكان الذى تركناها فيه حين هبطنا منها وسط الجليد . وشغلت وقتاً فى جرد مافيها وإعادة جرده ووجدت نفسى أرتعش بعنف ، ما أبهج ظلامها الداخلى المألوف ! لا أستطيع أن أصف لك هذه البهجة ، وسرعان مادخلتها وجلست وسط آلاتها . ونظرت الى عالم القمر خلال زجاجها فسرت القشعريرة فى جسدى ووضعت جوارق الثعبيتين على رزمة حوائجنا . ومددت يدى فأخذت قليلا من الطعام . ولم أفعل ذلك لأنى كنت فى حاجة إليه بل لأنى وجدته أمامى فحسب . ثم خطر لى أنه قد حان وقت إرسال إشارة إلى كافور ، ولكننى لم أذهب لإرسالها فى ذلك الوقت ، فقد كان ثمة شىء يدفعنى إلى البقاء فيها .

كان كل شىء يسير سيراً حسناً رغم ذلك كله ، فلا زال أمامنا وقت للحصول على مزيد من ذلك الحجر السحرى الذى يمنح الإنسان السيادة على أخيه فهناك الذهب سهل قريب المنال ينتظر من يحمله ، وتستطيع الكرة أن ترحل وهى محملة منه إلى نصفها وكأنها لاتحمل شيئاً . تستطيع العودة الآن ، سادة أنفسنا ، وسادة العالم ، ثم . . .

وأفقت من تفكيرى ثم خرجت من الكرة بجهد ، وكنت أرتعش عند خروجى ، لأن هواء الليل كان قد بدأ يبرد . . . ووقفت فى ذلك التجويف أنظر حولى بكل حرص ، وذلك قبل أن أقفز إلى الحافة الصخرية القريبة منى . وقفزت ذات القفزة التى قفزتها على القمر فى المرة الأولى ، ولكنى أديتها هذه المرة دون جهد واتسع نطاق نمو تلك النباتات وذبولها ، وتغيرت جميع معالم الصخور . ولكن كان لا يزال من الصعب فهم كنه ذلك المنحدر الذى كانت البذور تنبت فيه أو تلك الكتلة الصخرية التى ألقينا منها أول نظرة على الفوهة البركانية ، ولكن الأعشاب الشائكة التى كانت تغطى المنحدر كانت قد خفت والتفت لونا بنيا ووصل علوها إلى ثلاثين قدما وراحت تلقى الظلال المديدة التى ترامت على مسافات بعيدة حتى لم تعد العين ترى نهايتها . أما البذور الصغيرة التى تجمعت فى أغصانها العليا فكانت قد اصطبغت بلون بنى ونضجت . وقد أدت عملها وأخذت سبيل التعفن ، وعلى وشك السقوط والانكماش تحت تأثير الهواء القارس الذى يتبع قدوم الليل مباشرة وكانت نباتات الصبير الضخمة التى كنا نراقب نموها ، قد انفجرت ونثرت بذورها فى أربعة أرجاء القمر . . هذا الركن الصغير الخفى من الكون ومرمى البشر .

وجال فى فكرى أنى سوف أقيم نصبا فى أحد الأيام ، وسط ذلك التجويف تماما ، وأنقش عليه كتابة . وخطرت لى كذلك فكرة ، فلو أن هذا العالم القمرى الداخلى الزاخر عرف ما تعنيه هذه اللحظة لى وما تدل عليه ، اذن لا شتد صراخه وثارت ثائرته .

ولكنه لن يمكنه أن يعلم بأهمية مجيئنا . إذ أنه لو استطاع ذلك لأصبحت هذه الفوهة البركانية تعج بضوضاء المطاردين بدلا من هذا السكون الشبيه بالموت . ونظرت حولى باحثاً عن مكان أستطيع منه إرسال الإشارات إلى كافور ، فوقع نظرى على تلك الرقعة من الصخر التى قفز منها ذات مرة من المكان الذى أقف عليه . وكانت لا تزال تلوح فى ضوء الشمس جدباء عارية من النبات . وترددت لحظة فى الابتعاد عن الكرة ولكنى وثبت متألما مستحيا من ذلك التردد . . .

ورحت أراقب الفوهة مرة ثانية من هذا الموقع الممتاز ، فإذا منديلى الأبيض الصغير يرفرف فوق الدغل على مسافة بعيدة منى ، وقد لاح فى قمة الظل المائل الذى ألقاه جسمى على المكان ، كان صغيراً وبعيداً جداً . أما كافور فلم أقف له على أثر . وخيل إلى أنه يبحث عنى منذ زمن دون شك . لقد اتفقنا على ذلك ولكنه لم يبد العيان فى أى مكان ووقفت أنتظر وأراقب ، وقد حجبت عينى بيدى ، متوقعا ظهوره بين لحظة وأخرى . ويرجح أن وقوفى طال فحاولت الصياح ولكنى سرعان ما تذكرت رقة الهواء ، وسرت خطوة عشوائية عائدا إلى الكرة ، ولكن خوفى من المخلوقات القمرية كان لا يزال يتربص لى ، وجعلنى أتردد فى إخطارهم بمكانى . ورفع أحد البطاطين التى استعملنا وقت النوم فوق إحدى الشجيرات المجاورة ، ورحت أفحص الفوهة مرة أخرى .

كان للفراغ الذى يسودها أثر القشعريرة فى جسدى ، فضلا عن السكون الذى يخيم عليها ، حتى لقد تلاشى كل صوت من العالم السفلى الذى يسكنه

أهل القمر لقد كانت في سكون الموت لا صوت ولا ظل من الصوت، إلا تلك النفخة الضعيفة التي صدرت من الدغلة المحيطة بي عند هبة نسمة صغيرة عليها وحتى النسيم كان يهب باردا .

تبًّا لكافور .

واستنشقت نفسا عميقا، ثم وضعت يدي على جانبي فمي وطفقت أنادي كافور بصوت جهير . كان وقعه كصوت دمية تصرخ من مكان بعيد .

وصوبت نظرة إلى المنديل ونظرة إلى الوراء، إلى الظل الآخذ في الامتداد، ظل الصخرة الغربية المطلة على الدوحة، ونظرة إلى الشمس من تحت يدي فبدت لي بشيء من الوضوح وكأنها ترحف هابطة في كبد السماء .

وشعرت أن الواجب يقتضي أن أقوم بعمل سريع إذا أردت إنقاذ كافور، فنفضت معطفي وألقيته فوق سنان الدغل الجافة التي تقع خلفي بمثابة علامة، ثم سرت في خط مستقيم صوب المنديل، مسافة ميلين على الأرجح، قطعتهما في بضع مئات من الوثبات والخطوات الواسعة، وقد ذكرت آنفا أن تلك الوثبات القمرية تشعر الإنسان بأنه يسبح في الفضاء، وفي فترات الوقوف بين الوثبة والوثبة كنت أبحث عن كافور وتمخبئه لاختبائه وكنت أشعر بالشمس تغرب خلفي عند كل قفزة أقفزها، وكلما مست قدمي الأرض كنت أشعر بشيء يغريني بالرجوع .

وجاءت بي الوثبة الأخيرة إلى المنخفض الذي يقع تحت منديلنا،

وسرت خطوة واسعة، وجدت نفسي بعدها واقفا فوق موضعنا الممتاز السابق الذي يكشف المكان أمامنا، ويقع على بعد ذراع من المنديل واتصبت في وقفتي، أنعم النظر في العالم المحيط بي، بين عمودي الظل الآخذين في الامتداد، فلاح لي منظر النفق الذي هربنا من فوقه، وكان على مسافة بعيدة في أسفل أحد المنحدرات الطويلة. وكان ظل يصل إلى ذلك المدخل، يمتد أمامه ويلامسه كأنه أصبع الليل .

ولا أثر لكافور، ولا صوت في ذلك السكون. أما تحرك الدغل والأطياف وتماوجها فقد كانا وحدهما في ازدياد، وألمت بي وحشة برد خيالية عتيقة، فرحت أنادي كافور ولكنني سرعان ما أدركت مرة أخرى عدم فائدة الصوت البشري في ذلك الهواء المتخلخل .

وخيم على المكان سكون — سكون الموت .

وإذا عيني تلمح شيئا — شيئا صغيرا مطروحا على المنحدر، على بعد خمسين ياردة على الأرجح، وسط خليط من الأغصان المثنية والمقصوفة، وتساءلت عن كنه هذا الشيء، وعرفت ولكنني لسبب من الأسباب لم أرد أن أعرف .

واقتربت منه، فإذا هو قبعة الكريكت التي كان يلبسها كافور . ووقفت أنظر إليها دون أن ألمسها .

ورأيت عندئذ أن الأغصان المتناثرة حولها كانت قد هشمت عمدا وديست بالأرجل. ووقفت مترددا ثم سرت خطوة إلى الأمام والتقطتها من الأرض .

ووقفت أنظر إلى الأعواد والأسماك المهروسة حولي، وقبعة كافور في يدي. كان على بعضها بقع سوداء من مادة لم أتجاسر على لمسها، وعلى بعد اثنتي عشرة ياردة تقريبا كان النسيم الصاعد يدحرج شيئاً أمام عيني، شيئا صغيراً ناصع البياض.

كان ذلك الشيء قصاصة من الورق قد ثنيت وغضنت بشدة فالتقطتها وشاهدت عليها لطخا حمراء. ووقعت عيناى على كتابة بالقلم الرصاص ففحصتها وسويتها ورأيت عليها كتابة غير منتظمة ومتقطعة تنتهى في آخر الأمر في خط معوج على الورق.

ووطدت العزم على حل طلسمه.

بدأت الأسطر الأولى واضحة بعض الوضوح، كما يلي: «جرحت حول الركبة، وأظن أن طاستها مصابة فلا أقدر على الزحف أو الجرى».

وتلت ذلك أسطر أقل وضوحا «الفارى»، قال فيها:

«ظلوا يطاردونني فترة من الزمن. إنها مسألة —»

ويبدو أنه كان قد كتب كلمة «وقت» ثم محاها واستعاض عنها بكلمة لا تقرأ، ثم تابع كتابته: «قبل أن يمسكوا بي. إنهم يحاوروننى».

ثم أصبحت الكتابة مهتزة: «أستطيع سماعهم» ولعل هذا ما قصد كتابته. وتستمر الكتابة غير المقروءة. وتأتى بعد ذلك سلسلة من الكلمات واضحة بعض الوضوح، فيقول: «نوع من المخلوقات القمرية يختلف اختلافا كليا. يبدو أنه يقود الـ —» وتعود الكتابة مرة أخرى إلى الاضطراب والسرعة، فيكتب:

«غلاف أدمغتهم أكبر منه عند الآخرين، أكبر جداً. وأجسامهم أقل نحافة ولهم أرجل قصيرة. ويحدثون أصواتا لطيفة ويسيرون بتأن وانتظام في الحركة ....

«لا زلت أستبشر خيرا... بقدومهم، رغم أنى جريح لا حول لى ولا قوة».

إنه كافور بعينه يتكلم، وتستمر الكتابة كما يلي:

«لم يصوبوا إلىّ حرابهم، ولا حاولوا إيقاع الأذى. وفي نيتي...»

وبلى ذلك خط مختلف، بالقلم الرصاص، سطر بجانبه بعرض الصفحة وعلى ظهر الورقة وأطرافها — بقع من الدم!

وبين أنا واقف هناك في بله وحيرة، وفي يدى هذا الأثر المذهل للعقل، إذا شيء ناعم خفيف، بارد، يلامس يدى لحظة ثم يتلاشى ويليه نقطة بيضاء صغيرة تتطاير أمام طيف من الأطياف، إنها ندفة دقيقة من الجليد، الندفة الأولى التي يرسلها الليل بشيرا به.

ونظرت إلى السماء مجفلا، وإذا هي قد أظلمت، وكادت ظلمتها تستحيل إلى سواد، وتجمعت فيها النجوم الباردة الساهرة. وحولت نظرى إلى الشرق، وإذا ضوء ذلك العالم المتغضن قد مازجه سواد برونزى أما في الغرب فقد بسط الضباب المتجمع حلة بيضاء على الشمس سلبتها نصف حرارتها وبهائها، فما أن لامست حافة الفوهة حتى غابت عن النظر وتبدو جميع الأدغال والصخور المحززة والمتساقطة رافعة رءوسها المثلثة في غير نظام ومنعكسة عليها في أشكال سوداء. وتجمع الضباب على شكل

كإكليل كبير من الزهر . وغاص في بحيرة الظلام الواقعة إلى الغرب وهبت ريح باردة أرسلت القشعريرة إلى جميع أطراف الفوهة البركانية . وبانقضي فترة قصيرة هبة من الجليد المتساقط وإذا العالم حولي يتحول إلى لون رمادي قاتم .

وسمعت بعد ذلك صوتاً ، لم يكن عالياً يخترق الفضاء كالصوت الذي سمعته أول مرة ، بل كان خافتاً ، مغلقاً كصوت رجل يحتضر ، لقد كان دقاً ، ذلك الدق عينه الذي استقبل النهار ، ذلك الدوي يوم ! يوم ! . . . . يوم ! . . . . .

وتردد الصدى حول الفوهة البركانية ، وبدا كأنه ينبض مع نبضات النجوم الكبرى وحين كان ذلك الصوت يدوي يوم . . يوم غاص الهلال الأحمر الذي صنعه قرص الشمس .

ولكن ماذا حدث لكافور ؟ لقد كنت واقفاً في ذهول أثناء ذلك الدوي . وأخيراً وقف الدوي .

وانغلق على حين غرة فم ذلك النفق السفلي المفتوح كما تنغلق أجفان العين ، وتوارى عن الأنظار .

وعندئذ ألفيت نفسي وحيداً حقيقة .

وكانت الأبدية تطبق عليّ من فوق ومن حول ، وتخشخش وتقربني إليها لحظة بعد لحظة . هذه الأبدية التي وجدت مع الأزل والتي سوف تنتصر على النهاية . ذلك الفراغ الهائل الذي ما الضوء والحياة والوجود فيه سوى الهباء الرقيق المتلاشي الذي يلازم النجم الهاوي —

البرودة والهدوء والسكون ، الليل اللانهائي والأخير للفضاء .

وطغى علي شعور الوحدة والهجران فأحسست بوجودهما وسريانهما إلى حتى كادا يلمساني .

ورحت أصيح : «كلا ! كلا ! لم يحن الوقت بعد ! لم يحن بعد . انتظر ! انتظر ! ربك انتظر ! » وتعالى صوتي إلى صراخ ، وألقيت الورقة المغضنة عني ، وهرعت عائداً إلى قمة الفوهة لأتبين موضعي ، ثم لجأت إلى جميع مالي من إرادة ، ووثبت في اتجاه العلامة التي كنت قد تركتها ، وقد أضحت بعيدة معتمة في مكانها من طرف الظل .

ورحت أثب الوثبة بعد الأخرى ، وكل منها استغرقت سبعة أجيال .

ولاح أمامي ذلك الجزء الشاحب من الشمس ، الجزء المتعلق بالأفق ، كما يبدو ، وراح يغوص وراء الأفق . وتسارعت الأطياف نحو الكرة لتعوذ بها قبل أن أتمكن من الوصول إليها . وكنت على بعد ميلين منها قطعتهما في مائة وثبة أو يزيد . وأخذ الهواء المحيط بي يرق ويتخلخل كما يفعل تحت مفرغة الهواء . وكان البرد يقرص مفاصلي ولكنني لو مت لمت وأنا أقفز . وكانت قدمي تزل المرة بعد الأخرى فوق الجليد المتراكم فتتعثر من مشي وثبي . وفي إحدى المرات سقطت وسط الأدغال ، فاصطدمت بكتل صغيرة معفرة ، وبأشياء لا قيمة لها خطفتها . وفي مرة أخرى تعثرت أثناء قفزي ، وانقلبت رأساً على عقب وسط إحدى الحفر ، ونهضت مرضوضاً مجروحاً مضطرباً فيما يتصل بوجهة سيري .

ولكن هذه الأحداث الصغيرة لا تعد شيئاً بالقياس إلى الفترات التي تفصل بينها . تلك الوقفات الرهيبة حين يندفع الإنسان في الهواء مع اندفاع تيار خضم الليل . وكان تنفسي يحدث صفيرا .

ويخيل إلي أشعر كأن السكاكين تدور في رئتي . وبدا قلبي كأنه يخفق فوق قمة رأسي ورحت أسائل نفسي : « هل سأصل إليها هل سأصل إليها أيتها السماء ؟ » .

واجتاح كياني كله ينبض بالألم .

وكان لسان حالي ، في ألمي ويأسي ، يصرخ بي أن أضطجع ولكني كلما حاولت الإقتراب منها بدت لي على بعد رهيب وأحسست لا أحس بشيء . أتعثر وأترنح وأجرح نفسي ، ولكن جسمي لا يدمى .

وبعدت الكرة المنظر .

وسقطت على يدي ورجلي وشهقت من رئتي .

وزحفت والصقيع يتجمع على شفتي وقطع الجليد تعلق بشاربي وتكلك باليأس بسبب الجو المتجمد .

وأصبحت على بعد اثنى عشرة ياردة منها . وعتمت عيناي ، وكان هاتف اليأس يقول لي : « اضطجع ! اضطجع . »

ولمستها ثم وقفت ، ولكن هاتف اليأس ظل يقول : « لقد فات الأوان اضطجع » .

وتماسكت معها تماسكا قليلا . كنت على حافة الكرة ، ولكني

في حالة تخدر ، كأنني بين حي وميت . كان الجليد يكتنفني وجررت نفسي إلى داخلها ، فإذا بقية من الهواء الدافئ لا زالت تكمن فيها .

وكانت ندف الجليد والهواء تتراقص حولي وأنا أحاول دفع الغطاء داخلها بيدي المتجمدتين . ثم أدرته بإحكام وشدة وشهقت وأنا أقول : « سأفعل » ، وصررت بأسناني . وتحولت نحو أزرار أبواب النوافذ الخارجية ، أعالجها بأصابعي المرتعشة الضعيفة .

وبينما أنا أعبث بمفاتيح الأجهزة التي لم تسبق لي إدارتها ، استطعت أن أرى الألسنة الثائرة الحمراء المندفعة من الشمس الغاربة ، وكانت تلوح بغير وضوح خلال الزجاج المتلبد بالضباب وكانت هذه الألسنة تتراقص وتومض وسط العاصفة الجليدية بينما الأشباح السوداء التي تعكسها الأدغال تزداد سمكا واتساعا ، ثم تتكسر تحت ثقل الجليد الهائل كم وكان الجليد يدور مع الزوبعة فيزداد تكاثفه كلما دار ويبدو أسود أمام الضوء ، ماذا لو غلبتني المفاتيح على أمري حتى في تلك اللحظة ؟

ولكني حسست شيئا يتكتك تحت يدي ، وفي لحظة توارى عن عيني ذلك المنظر الأخير لعالم القمر ، ووجدت نفسي وسط سكون الظلام داخل الكرة المتنقلة بين الكواكب .

الفصل العشرون

المستر بدفورد فى الفضاء اللانهائى

بدت الأمور كأنى قتلت . ويمكننى فى الحقيقة أن أتخيل أن رجلا يقتل مفاجأة وبعنف يكون له ذات الشعور الذى كان لى . فهو فى هذه اللحظة يشعر بعاطفة الألم والخوف وهو فى اللحظة التالية يغمره الظلام والركود ، فلا نور ولا حياة ولا شمس ، ولا قمر ولا نجوم بل فضاء اللانهائية . ورغم أن ما أعانيه هو من صنع يدى ورغم أنى دفعت ثمرة هذا العمل ذاته فى صحبة كافور ، ورغم هذا وذاك شعرت بالدهشة والذهول والانهيار وخيل إلى أنى أرتفع إلى أعلى وسط الظلام المدلهم . وسبحت أصابعى بعيدا عن الأزرار وتعلق جسمى فى فضاء الكرة كأنى تلاشيت وأخيرا اتجهت بلطف وهدوء صوب رزمة أمتعتنا والسلسلة الذهبية والعتلتين وكانت هذه الأشياء قد انجذبت إلى وسط الكرة .

ولا أدرى كم من الوقت استغرق ذلك الانجذاب ، لأن إحساسنا بالزمن الأرضى داخل الكرة أكثر منه على القمر بالطبيعة ولكنه رغم ذلك كان عديم الجدوى . وعندما لامست الرزمة كنت كمن استيقظ من نوم لا أحلام تتخلله وسرعان ما أدركت أنى لكى أظل نشيطا ومستيقظا يجب على أن أحصل على ضوء أو أفتح نافذة ليتهيأ لعينى تبين الأشياء . وكنت أشعر بالبرد فضلا عن ذلك ، لذلك رحت

أضرب بقدمى مبتعدا عن الرزمة ، وتشبثت بالحبال الرفيعة داخل الزجاج ثم زحفت إلى أن بلغت حافة الكرة ، فعرفت موضعى من الضوء وأزرار الستائر وانتقلت قليلا ودرت دورة حول الرزمة ، واعترضت قراصى من شىء كبير رقيق كان يسبح طليقا فأمسكت بالحبال القريبة من الأزرار فبلغت هذه وبدأت بإضاءة المصباح الصغير لأرى الشىء الذى اصطدمت به ، وإذا هو تلك النسخة القديمة من جريدة لويدز نيوز ، وكانت قد انزلقت من موضعها وراحت تسبح فى الفضاء الداخلى . فأعادتنى هذه من اللانهائية إلى أوضاعى الخاصة مرة أخرى ، وجعلتنى أضحك وألهث قليلا ، وأوحت إلى بالحصول على قدر من الأكسجين من إحدى الاسطوانات ، ثم اشعلت جهاز التسخين إلى أن شعرت بالدفء . وتناولت بعد ذلك طعاما وشرعت أعالج الستائر الكافورية بحذر لأرى هل يمكننى بوسائلى الخاصة أن أعرف طريقة سير الكرة .

وما أن فتحت النافذة الأولى حتى عدت إلى إغلاقها فوراً وظللت لحظة مثبط العزم لا أستطيع النظر بسبب ضوء الشمس الذى أبهرنى وبعد أن فكرت قليلا عمدت إلى معالجة النوافذ التى تصنع زاوية قائمة مع النافذة الأولى فشاهدت القمر هلالا ضخما والأرض خلفه هلالا صغيراً ، وذلك للمرة الثانية . وأدهشنى أن اكتشفت الشقة البعيدة التى تفصلنى عن القمر ، وكنت قد قدرت أنه لن تقع لى « القفقة » التى وقعت لنا فى الجو الأرضى عند بدء الرحلة ، فضلا عن أن « التطاير » الذى يحدثه القمر فى دورانه للأشياء المماسة لسطحه سوف يعادل

التطاير الذى تحدثه الأرض ثمانية وعشرين مرة على الأقل ، وكنت أتوقع أن أرى نفسى معلقا فوق الفوهة البركانية وعلى حافة الليل ، ولكن لم يكن ذلك كله فى الساعة إلا جزءاً من الخطوط الخارجية للهلال الأبيض الذى كان يملأ السماء . وماذا عن كافور.... ؟

إنه أصبح غاية فى الصغر .

وحاولت أن أتخيل ما يمكن أن يكون قد حدث له . ولكننى فى تلك الساعة لم أكن أفكر فى شىء سوى الموت : خيل إلى أنى رأيته منحنيا عطشا فى أسفل أحد الشلالات المتناهية الارتفاع التى ترسل الضوء الأزرق ، وقد التفت حوله تلك الحشرات الغبية وراحت تحدق النظر إليه . . . .

وأصبحت رجلا عليا مرة أخرى ، فترة من الزمن ، وقد اتضح لى أن الواجب يقتضى عودتى إلى الأرض . ولكننى رأيت — بقدر ما سمحت الرؤية لى — أننى كنت أسبح بعيداً عنها . أما كافور فقد عجزت عن أن أمد إليه يد المعونة ، أيا كان الحادث الذى وقع له ، وحتى إذا كان على قيد الحياة ، وهو أمر بدا لى بعيد التصديق بعد أن رأيت تلك القصاصة الملطخة بالدم . إنه هناك ، حى أو ميت ، وراء ستار ذلك الليل الذى لا قبس فيه من النور . وهناك يجب أن يظل إلى أن أعود لمعونته بإخوان لنا من الأرض . أيجب على فعل ذلك ؟ لقد كان يجول فى فكرى شىء من هذا القبيل أن أعود إلى الأرض إن استطعت إلى ذلك سبيلا ، ثم تتبع بعد ذلك ما يوحى به نضوج الفكر ، فإما أن نطلع فئة من العقلاء على كرتنا ونشرحها لهم ، ونعمل

معهم أو أحتفظ بالسر وأبيع الذهب ، وأحصل على الأسلحة والمؤن وأحد المساعدين ، ثم أعود بهذه المزايا لأعالج الأمور على قدم المساواة مع أهل القمر ذوى الأجسام الرقيقة ، ولأنقذ كافور ، إذا كان ذلك لا يزال ممكناً ، ولأحصل على أية حال ، على مئونة كافية من الذهب ، تؤهلنى لأن أضع خططى المستقبلة على أساس أمتن . ولكنها لعلها آمال بعيدة المنال . فعلى أن أعود أولا .

وشرعت أتخذ قرارى فيما يتعلق بالوسائل التى يمكن الاتجاه إليها للعودة إلى الأرض . ورحت أناضل للتغلب على هذه المشكلة فلم أعد أقلق على ما يجب عمله عند الوصول إلى الأرض . فقد كان همى الأخير هو العودة إليها أولا .

وفكرت أخيراً أن خير فرصة لى هى النزول إلى القمر مرة أخرى والاقتراب منه إلى المسافة التى تمكننى من ادخار السرعة ، ثم أغلق النوافذ وأطير خلفه ، فإذا خلفته ورائى فتحت نوافذى التى تواجه الأرض ثم انطلقت بالسرعة المناسبة صوبها ، ولكننى لم أستطع التنبؤ هل سأصل فى الحقيقة إلى الأرض أم أنى سأجد نفسى دائراً حولها فى منحنى القطع الزائد أو المكافىء أو غيرهما . واستلهمت بعد ذلك خاطرا سعيدا ذلك أنى فتحت نوافذ معينة تطل على القمر ، كانت تبدو فى السماء مواجهة للأرض . فبدل ذلك اتجاهى وجعله جانبياً لأتحول بعيداً عن الأرض . فقد وضح لى أنى يجب أن أمر خلفها دون الاتجاه إلى وسيلة كهذه . وقد استغرقت منى هذه المسائل كثيراً من التفكير المعقد ، ذلك

لأنى لست من رجال الرياضة . واستطعت آخر الأمر أن أهبط إلى الأرض وهذا أعزوه إلى الحظ أكثر منه إلى إعمال الفكر . ولو أنى عرفت حينئذ — كما أعرف الآن — الحقائق الرياضية والفرص التى هيأتها عندى لاحجمت دون شك عن تكبد مشقة لمس تلك الأزرار للقيام بمحاولتى . وما أن فكرت فيما يجب على عمله حتى فتحت جميع النوافذ المواجهة للقمر ، ثم جلست القرفصاء ، فحملنى هذا العمل عدة أقدام فى الهواء ، وسبحت فيه على أغرب صورة . ورحت انتظر ازدياد حجم الهلال شيئا فشيئا إلى أن شعرت بأنى أصبحت على قرب مأمون بما فيه الكفاية أما بعد ذلك فأغلق النوافذ وانطلق فى الفضاء تاركاً القمر خلفى بعد أن أتزود منه بالسرعة اللازمة — هذا إذا لم أرتطم به — وهكذا أستمر فى انطلاقى فى اتجاه الأرض .

وهذا مافعلته :

وشعرت فى النهاية أن القوة الدافعة التى ادخرتها من انطلاقى صوب القمر كانت كافية . فأغلقت النوافذ وبذلك حجبت القمر عن عينى وأذكر الآن أنى كنت فى حالة نفسية عالية ، خلوا لايصدق ، من القلق أو أى من المثبطات ، عندما جلست لأبدأ سهرى فى تلك الذرة الصغيرة المصنوعة من المادة ، السابحة فى الفضاء اللانهائى ، تلك السهر الذى لن ينقطع حتى تلمس كرتى الأرض . وقد أدفأ جهاز التسخين الكرة دفئا مناسبا وساعد الأكسجين على تنقية هوائها . وكنت أشعر بالراحة التامة إذا استثنينا ذلك الاحتقان البسيط الذى أشعر به فى رأسى كلما بعدت عن الأرض . وأطفأت النور ثانية خشية ألا يكفينى فى النهاية

فأمسيت فى ظلام ، لولا الضوء المنعكس من الأرض ولولا تلألؤ النجوم من تحتى . وساد السكون المطلق والهدوء التام كل شىء حتى أنى ربما كنت الكائن الوحيد فى هذا الكون . ومن الغريب أنى رغم ذلك لم أشعر بالوحدة أو الخوف أكثر مما لو كنت راقدا فى الفراش على كوكبنا الأرضى وهذا أمر غريب بما فيه الكفاية ، بل ويبدو لى أغرب من غيره لأن شعورى بالوحدة المطلقة كان يعذبنى فى الساعات الأخيرة لوجودى فى فوهة القمر .

وهذه الفترة الزمنية التى قضيتها فى الفضاء لا نسبة بينها وبين أية فترة زمنية أخرى فى حياتى ، رغم أن هذا قد يبدو بعيد التصديق ، فقد خيل لى فى بعض الأحيان كأنى قطعت أزمنة أبدية لا قياس لها وأنا جالس جلوس أحد الآلهة على ورق زهرة اللوتس ، وخيل لى فى أحايين أخرى كأنى لم استغرق فى رحلتى من القمر إلى الأرض الا لحظة انتظار قصير . على أن الرحلة كلها لم تستغرق فى حقيقة الأمر بضعة أسابيع ، بمقياس الزمن الأرضى ولكنى تغلبت فى تلك المدة على الهم والقلق والجوع والخوف . كثيرا أنا أسبح فى الفضاء أفكر فى آفاق وحرية غريبة ، فى جميع ما مر بنا ، وفى جميع أطوار حياتى وبواعثى ، وفيما يتمخض عنه كيانى من أسرار . وبدا لى كأنى كبرت فى عين نفسى وازددت عظمة ، وأنى فقدت كل إحساس بالحركة ، وبأنى أسبح وسط النجوم ، يلازمنى دائما وأبدا الشعور بصغر الأرض اللانهائى وبتفاهة حياتى ، تفاهة لا نهاية لها .

وأقرر بأنى لا أستطيع أن أفسر الأشياء التى مرت بذهنى ، والتى يمكن بلا شك أن أعزوها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى الأحوال

الطبيعية التي كنت أعيش فيها ، وها أنا ذا أضمها إلى قيمتها الحسية دون أي تعليق . وأهم ما تتصف به هو ما يحوم من شك حول شخصيتي . فلم تعد لي صلة ببدفورد ، إذا صح لي أن أقول ذلك ، فإني كنت أنظر إليه بوصفه شيئا تافها ، شيئا عرضيا ، علاقتي به كانت محض الصدفة . ورأيت بدفورد هذا في علاقات كثيرة . رأيته حمارا أو دابة مسكينة بينما كنت إلى تلك اللحظة أميل إلى أن أعده بفخر شخصا ذا حيوية أو شخصا يكاد يفرض شخصيته فرضا . لم أره حمارا فحسب بل رأيتنا لأجيال كثيرة من الحمير . فقد رجعت به إلى أيام الدراسة ، وإلى أيام الشباب الأولى ، ويوم عرف الحب أول مرة ، كما يستعرض الإنسان أعمال الخيالة في الرمل . ويؤسفني أن بعض ذكريات أيام الصفا لا تزال عالقة بذهني وأشك في مقدرتي على استعادة ما كنت عليه في أيامي الأولى من اكتمال الجسم ورضاء النفس . على أن هذا الأمر لم يكن قط مؤلما لي في ذلك الوقت ، لأني كنت مقتنعا اقتناعا غريبا بأني سواء كنت بدفورد أو غيره ، فأني لم أكن في الواقع سوى عاقلا يسبح في صفاء الفضاء وسكونه فلم تزعجني تقصيرات بدفورد هذا ؟ فأنا لست مسئولا عنه أو عن تقصيراته ورحت أكافح فترة ضد هذا الوهم الغريب حقا . وحاولت أن أستعين بذكريات تلك اللحظات البارزة التي كانت تجيش في أثنائها العواطف ، رقيقها أو عنيفها ، وشعرت أن هذه القطيعة المتزايدة سوف تنتهي إذا أنا استطعت أن أستعيد وخزة حقيقية واحدة من وخزات الأحاسيس ولكني لم أستطع إلى ذلك سبيلا . ورأيت بدفورد يسرع الخطى في تشا نسري لين في طريقه إلى الامتحانات العامة ، وقد

قبعت قلنسوته على مؤخرة رأسه وأخذ الهواء يعبث بأذيال معطفه ، ورأيته يتملص من متابعة الصغار أمثاله في الطريق — ذلك المزاب الذي يعج بالناس — ويرتطم بهم بل ويحييهم . أأنا ذلك الشخص ؟ رأيته مع تلك السيدة في مواقف وانفعالات متنوعة ، لم أشعر قط قبل ذلك اليوم بمدى الانفصال عنه . رأيته يسرع السير إلى تيمبي ليكتب مسرحيته ، رأيته يتحدث مع كافور ، ويشتغل في صنع الكرة وقد خلع معطفه ، ويسير إلى كنتربري لخوفه من الزيارة ؟ أأنا ذلك الشخص ؟ لم أصدق ذلك .

ورحت رغم ذلك أفكر أن ذلك كله هذيان سببه وحدتي وفقداني الوزن والإحساس بالمقاومة . وحاولت أن أستعيد ذلك الإحساس بأن أرتطم بجوانب الكرة وأقرص يدي وأضمهما . ومن الأمور الأخرى التي فعلتها أني أحسست النقود وأمسكت بتلك النسخة الممزقة من صحيفة لويدز ، وأخذت أطالع مرة أخرى تلك الإعلانات الواقعية المقنعة عن تلك الدراجة التي من نوع كتشويه وعن السيد ذي الموارد الخاصة والسيدة الواقعة في محنة التي ترغب في بيع شوكها وملاعقها ، إذ لاشك أن هذه الأشياء كانت موجودة . وقلت لنفسي : « هذا عالمك وأنت بدفورد ، وستعود لتعيش بين هذه الأشياء ما بقي لك من عمر » على أن الشكوك التي كانت داخلي كان في مقدورها أن تمضي في جدلها وهي تقول : « لست أنت الذي تقرأ ، إنما الذي يقرأ هو بدفورد ، وأنت على بينة من ذلك ، وهذا هو مبعث الخطأ » .

وصرخت : « يا لى ! إننى لم أكن بدفورد فمن أكون ؟ »

ولكننى لم أتلق من هذا الجانب ما يكشف الحقيقة أمامى ، رغم توارد أغرب الخيالات إلى رأسى ورغم الظنون الغريبة البعيدة ، التى كانت تتوالى كما تتراءى الأطياف من بعيد ... أو تحدى أنه خطر لى فى الحقيقة بأنى لست أجنبيا عن هذا العالم فحسب ، بل عن جميع العوالم وعن الفضاء والزمن ، وأن بدفورد هذا ما هو إلا ثقب صغير أطل منه على الحياة ؟ ...

بدفورد ! إن جحدته فأنا مرتبط به بكل تأكيد ، وأدركت أنى أيا كنت فلا بد لى من أن أشعر بوطأة رغباته ومشاعره ، جميع أفراحه وأتراحه إلى أن تنتهى حياته . ثم ماذا بعد أن يموت بدفورد ؟

وأكتفى بذكر هذه الناحية الغريبة من اختبارى ، وأنا أسردها لأبين كيف أن عزلة الإنسان واغترابه عن كوكبه لا تؤثر على جميع الوظائف والمشاعر لكل عضو من أعضاء جسمه فحسب ، بل على نسيج عقله أيضا . عدة فيه اضطرابات غريبة لم يكن يتوقعها . وخلال الجزء الأكبر من هذه الرحلة الطويلة وأنا معلق فى الفضاء كنت أفكر فى أمثال هذه الأمور الروحية ، مجرداً عن العواطف غير مرتبط بشىء ، معتقداً بالعظمة اعتقاداً مبهما ، على ما كان يبدو ، وسط النجوم والكواكب فى الفضاء الفسيح ، وقد بدا لى العالم الذى أنا عائد إليه ، صغيراً متناهيا فى الصغر ، وتافها غاية فى التفاهة ، ليس هو فحسب بل أيضا مغاور المخلوقات القمرية المضاءة بالنور الأزرق ، ووجوههم التى على

شكل الخوذات وآلاتهم العملاقة العجيبة ، والقدر الذى ساق كافور إلى ذلك العالم وجعله بلا حول ولا قوة .

رحت أفكر فى هذه جميعا إلى أن بدأت فى النهاية أشعر بجذب الأرض لكيانى . هذا الجذب الذى يعيدنى ثانية إلى الحياة الحقة فى نظر الناس ، ثم بدأ الأمر يزداد وضوحا لى أنى بدفورد بكل تأكيد . وبعد كل الذى كان وأنى عائد إلى عالمنا بعد مغامرات عجيبة ، وأنى كنت على وشك فقدان حياتى فى طريق عودتى . وشرعت أفكر فى الأحوال التى يجب أن يكون عليها هبوطى إلى الأرض .

مستر بدفورد فى لتلستون

كان خط طيرانى يوازى سطح الأرض حين وصلت إلى طبقة الهواء العليا وبدأت حرارة الكرة ترتفع رويدا رويدا ، فأدركت أنه يجدر بى أن أهبط فوراً وكان البحر يمتد تحتى فى نور الغسق القليل القاتم . وفتحت ما استطعت من نوافذ ، وانتقلت من الشروق إلى المساء ومن المساء إلى الليل ، وبدأت الأرض تزداد اتساعا ، فابتلعت النجوم ، وانقشر حجاب السحاب الفضى الصافى المضاء بنور النجوم ، الذى تسربل به الأرض ، وامتد ليمسك بى ، وبدت الدنيا فى نهاية الأمر مسطحة ، ولم تعد تظهر فى شكل الكرة ، ثم لاحت للعين مقعرة ، ولم تعد كوكبا فى السماء بل عالما للإنسان . أغلقت جميع النوافذ ما عدا فتحة صغيرة فى اتساع البوصة من نافذة تواجه الأرض وهبطت بسرعة أخذت تقل تدريجياً ، واتسع سطح الماء واقترب منى صاعدا إلى ليقابلنى بحيث استطعت أن أرى الأمواج تتلألأ فى ضوء أسود . واشتدت سخونة الكرة فأغلقت الشق الأخير الباقى من النافذة ، وجلست متجهم الوجه أعض عقد أصابعى وأنتظر الاصطدام .

وارتطمت الكرة بالماء فتطاير فى موجة عاتية لابد أنها وصلت

فى ارتفاعها إلى عدة أقدام ، ولما وقع هذا الصدام فتحت نوافذ الكرة كلها وهبطت بطيئاً وئيدا ، ثم شعرت بالكرة تضغط على قدمى ، وقفزت إلى فوق مرة ثانية كما تقفز فقاعة الماء ، وطفوت فى النهاية على سطح البحر ورحت أتأرجح عليـــه ، وبهذا تنتهى رحلتى خلال الفضاء .

كانت تلك الليلة مظلمة معتمة ، وظهرت من بعد نقطتان صفراوان فى حجم رأس الدبوس دلتا على مرور إحدى السفن . وعلى مسافة أقرب من الأولى ظهر بريق أحمر يروح ويجيء ، وكان يمكن التفاؤل فى تلك الليلة لو لم تستهلك كهرباء مصباحى . وكنت متيقظا فى تلك الساعة رغم الإعياء المفرط الذى كنت قد بدأت أشعر به : يحدونى الأمل فى حرارة وفقدان صبر ، أن سفرتى فى نهايتها .

وتوقفت فى آخر الأمر عن الحركة وجلست واضعاً مرفقى على ركبتى ، أحدق النظر فى ضوء أحمر بعيد يتأرجح إلى أعلى وإلى أسفل ويهتز دون توقف ، وذهب تيقظى وتأكد لدى أنه يتحتم على قضاء ليلة أخرى فى الكرة ، وشعرت بثقل جسمى وتعبى بدرجة لا حد لها ، ومن ثم استسلمت للكرى .

وأيقظنى من سباتى تغيير طرأ على حركتى المنتظمة ، ورأيت من انكسار الضوء فى الزجاج أنى لامست الأرض ونزلت على ضفة رملية ضخمة ، وخيل إلى أنى شاهدت المنازل والأشجار من بعيد ، كما شاهدت فى اتجاه البحر شيئا منحنيا هو تشويه غامض لسفينة معلقة بين البحر والسماء .

ونهضت مترنحاً تحدونى رغبة واحدة ، ألا وهى الخروج من الكرة ، وكانت الكوة إلى أعلى لحلوات إدارة اللولب ، وفتحت الكوة على مهل ، وإذا الهواء فى النهاية يدخل مرة أخرى محدثاً ذات النغم الذى أحدثه ذات مرة وهو يخرج ، ولكننى فى هذه المرة لم أنتظر حتى يتعادل الضغط . وفى اللحظة التالية كانت النافذة بثقلها فوق يدى ، ووجدت نفسى مكشوفاً ، مكشوفاً تماماً للسماء ، الأولى التى فارقتها ، الأرض .

ولفحنى الهواء فى صدرى حتى صرت ألهث ، فألقيت اللولب الخاص بالزجاج وأرسلت صرخة ، ووضعت يدى على صدرى وجلست ، ودام الألم وقتاً ما ثم شهقت شهقات عميقة استطعت بعدها أن أقف وأتحرك مرة أخرى .

وحاولت إدخال رأسى فى الكرة فتدحرجت الكرة ، وشعرت كأن شيئاً دفع رأسى إلى أسفل حال انسحابها من الكرة ، فانحنيت بشدة ولولا ذلك لسمرت فى مكانى ولغطس وجهى تحت الماء . ولكننى بعد قليل من التلوى والدفع أمكننى أن أخرج من تحت الكرة زحفاً على الرمال التى كانت الأمواج لا تزال تندفع إليها وتنحسر عنها .

ولم أحاول النهوض فقد خيل إلى أن جسمى يجب أن يتحول لحظة إلى رصاص . لقد أحكمت أمنا الأرض قبضتها على فى تلك الساعة . إذ لم يكن ثمة مادة كافورية تحول دون ذلك . وجلست غير حافل بالماء الذى غمر قدمىّ .

وكان الوقت فجراً . فجراً رمادياً ، يسوده بعض الظلام وقد بدت هنا وهناك رقعة طويلة ذات لون رمادى تختلط به خضرة خفيفة ،

وكانت إحدى السفن ترسو على بعد وقد بدت خيالاً شاحباً بنورها الأصفر الوحيد ، وكان الماء يتماوج فى موجات طويلة خفيفة وعلى بعد قليل إلى اليمين ظهرت أرض منخفضة تتكون من جرف من الحصباء تقوم عليه أكواخ صغيرة ، وفى نهايته فنار ، وإشارة لإقلاع السفن وعلامة ، وكانت تمتد داخل الأرض بقعة رملية مستوية ، تتخللها برك من الماء وتنتهى إلى مسافة ميل تقريباً بشاطئ منخفض تكسوه الأحراش ، وإلى الشمال الشرقى لاح للنظر مكان منعزل به مياه معدنية ، وصف من النزل الشاحبة ، وكانت أعلى المبانى التى رأيتها على الأرض ، وبدت قائمة على صفحة السماء اللامعة . لعمرى أى صنف غريب من الناس استطاع أن يقيم هذه الأكوام العمودية فى فناء واسع كهذا ، فقد بدت كأنها جزء من مدينة برايتن ، ضل وسط هذا الاتساع .

وجلست هناك وقتاً طويلاً ، أتثاءب وأفرك وجهى ، وكافحت فى النهاية لأنهض فنهضت وكأنى أرفع حملاً . ثم وقفت .

ورحت أصوب نظرى إلى المنازل البعيدة ، وفكرت فى الطعام الأرضى لأول مرة منذ ألم بنا الجوع فى الفوهة البركانية . ورحت أحصى لحم الخنزير ، والبيض ، وخبز محمص طيب ، وقهوة لذيذة .. ولكن بالله عليك أنى لى أن أنقل جميع هذه الأشياء إلى ليمبنى ؟ ، ورحت أتساءل أين أنا . لقد كنت على شاطئ شرقى على أية حال وكنت قد رأيت أوروبا قبل هبوطى .

وسمعت وقع أقدام تنغرس فى الرمل . وظهر على الشاطىء الرملى رجل صغير الجسم مستدير الوجه ، تبدو عليه سمات المودة ويلبس قميصاً من القطن ، وقد لف مئزرا حول كتفيه : وحمل ملابس الاستحمام على ذراعه . فأدركت فى الحال أنى لابد أن أكون فى انجلترا ، وراح يحدق النظر فى ورق الكرة ، واقترب منى وهو لايزال يوليني نظراته وأستطيع أن أقرر أن منظرى كان وحشيا بما فيه الكفاية — فدائرة وشعت إلى درجة لاتوصف ، ولكن لم يخطر ذلك ببالى فى تلك اللحظة ووقف على بعد عشرين ياردة منى وراح يكلمنى وهو مرتاب من أمرى :

« أهلا ياصاحبى » .

واطمأن لما قال ، فتقدم نحوى يسألنى :

« وما هذا الشىء بالله عليك ؟ » .

فقلت له . « أتستطيع أن تخبرنى أين أنا ؟ » .

فقال : وهو يشير إلى التل « هذه لتلستون ، وتلك دنجنيز ! أرسوت إلى البر هذه الساعة ؟ ماهذا الذى معك ؟ أهذه نوع من الآلات ؟ » .

فقلت : نعم » .

وعاد يسألنى : « وهل سبحت إلى الشاطىء ؟ هل انكسرت بك السفينة أو وقع لك حادث ! ما الأمر ؟ » .

ومضيت أفكر بسرعة ، فاحصاً مظهر هذا الرجل الصغير الجسم وهو يقترب منى . وراح يقول : « أؤكد لك أنك لاقيت أوقاتا

عسيرة ! ظننت أنك — أجل — أين غرقت بك السفينة ؟ هل هذا الشىء نوع من العوامات التى تستخدم فى انقاذ الأرواح ؟ » .

وقررت أن أجاريه فى هذا السبيل وقتياً ، فأمنت على كلامه بعبارات غامضة ، وقلت له بصوت فيه بحة : « أريد مساعدة ، أريد أن أحمل إلى الشاطىء بعض الأشياء التى لا يمكن تركها على هذه الصورة بأية حال من الأحوال » . وشعرت بوجود ثلاثة رجال آخرين حسان المنظر يقتربون منى ، ورأيتهم يسيرون على الرمال فى اتجاهى ، كانوا يحملون مآزر ويلبسون سترات للكريكت وقبعات من القش ، كانوا بلا شك الفريق المبكر من المستحمين فى لتلستون هذه .

وقال لى الرجل الصغير الجسم : « مساعدة ! لابأس » وراح يبدى نشاطا بصورة مبهمة وتابع كلامه : « ماالذى تريده على الأخص ؟ » والتفت حوله ثم أتى حركة . وأسرع الرجال الثلاثة فى سيرهم ، وفى دقيقة واحدة وجدتهم يلتفون حولى ، يقذفوننى بأسئلة لم أكن متأهبا للرد عليها فقلت لهم : « سأجيبكم على جميع أسئلتكم ، فيما بعد . وأنى منهك ، بائس » .

وقال الرجل الأول الصغير الجسم : « تعال إلى الفندق . وسنعنى بهذا الشىء » .

فرحت أقول لهم فى شىء من التردد : « لا أستطيع . فى تلك الكرة قضيبان كبيران من الذهب » .

فطفقوا ينظرون الواحد إلى الآخر غير مصدقين ، ثم حولوا نظرهم نحوى . فتوجهت إلى الكرة ، وزحفت إلى داخلها بعد أن

أحفيت جسمي ، وسرعان ما عدت بالعلبتين والسلسلة المكسورة التي أخذتها من أهل القصر . ولو لم أكن منهكاً لسخرت منهم فقد كانوا أشبه بقطيطات تحيط بخنفساء ، ولم يعرفوا التصرف إزاء هذه الأمور ، وانحنى الرجل السمين الصغير الجسم فرفع طرف العلبتين ثم ألقاهما على الأرض وهو يزمجر . وحذا الباقون حذوه .

قال أحدهم : « هذا رصاص أو ذهب » .

وقال آخر معبراً على كلمة ذهب : « بل هو ذهب » .

وقال الثالث : « ذهب صحيح » .

وراحوا جميعاً يحملقون في . ثم حولوا نظرهم تجاه السفينة الراسية .

وقال الرجل الصغير الجسم : « قل لي من أين لك هذا ؟ » .

وكنت في حالة من الإعياء حالت دون تمكني من الاستمرار في كذبتي ، فقلت لهم : « جئت بها من داخل القصر » .

فرأيتهم ينظرون الواحد إلى الآخر .

وقلت لهم : « انصتوا إلي . لست على استعداد للجدال معكم الآن . ساعدوني في نقل هذه الكتل الذهبية إلى الفندق . — أظن . بفترات من الراحة يستطيع كل اثنين منكم حمل واحدة . وفي إمكاني أنا أن أجر هذه السلسلة معي . وسأوافيكم بالمزيد من الحديث عندما أتناول طعاماً .

— وذلك الشيء ؟

— بقاؤها هناك لن يضير أحداً . وعلى أية حال . يالعنة ! لابد أن تبقى هنا الآن فإذا ارتفع المد فسوف تطفو بلا مشقة .

وحمل هؤلاء كنوزي على أكتافهم بمنتهى الاذعان ، وفي دهشة عظيمة ، وسرت في مقدمتهم كأننا في موكب . بأقدام في ثقل الرصاص ، نحو ذلك الجزء البعيد من الطريق البحري ، وانضمت إلينا في منتصف الطريق بنتان صغيرتان أخذتهما الرهبة ، كانتا تحملان معولين . ثم ظهر بعدهما ولد صغير نحيف ، كان يتشمم بأنفه شمشمة عميقة ، وأذكر أنه كان يجر دراجة معه وهو يسير وتبعنا إلى ما يقرب من مائة ياردة ، ولما رأى أننا لا نثير اهتمامه ، امتطى دراجته وركبها فوق الرمال المسطحة إلى حيث الكرة .

والتفت ورائي ترافقه عيناي . فقال الشاب الممتلىء الجسم معلقاً « سوف لا يعيدها » ولم يكن في وسعي إلا أن أطلب .

كنت أولاً أفكر في ضباب ذلك الصباح . ولكن سرعان ما تخلصت الشمس من السحب التي تحيط بالأفق على ارتفاع واحد ، فأنارت العالم وأحالت البحر الذي كان في لون الرصاص إلى مياه براقة فانتعشت نفسي ، وتطرقت إلى رأسي مع بزوغ الشمس شعور بالأهمية القصوى للأعمال التي قمت وسوف أقوم بها . وأطلقت ضحكة عالية بينما كان الرجل الذي يسير في المقدمة يترنح تحت ثقل الذهب الذي يحمله . كم سيدهش العالم حين أتخذ المكان الجدير بي فيه !

ولولا التعب المفرط الذي أعانيه لأصبح صاحب الفندق موضع تسلية لي في وقفة التردد التي وقفتها بين الذهب والجماعة المحترمة التي ترافقني وبين مظهري القذر . ولكنني وجدت نفسي أخيرا في حمام أرضي مرة أخرى ، فيه مياه ساخنة لاغتسالي بها ، وحلة من الثياب ضيقة غاية في الضيق ولكنها نظيفة على أية حال ، وقد أعارها لي الرجل الصغير الجسم كما أعارني أيضا موسى الحلاقة . فلم أستطع أن أثني من عزمي على مهاجمة مراكز الشعر الخارجية المحيطة باللحية الكثة التي غطت وجهي .

وجلست أتناول إفطارا إنجليزيا ، بشهية ثائرة تقادم العهد عليها عدة أسابيع وهرمت . ثم تهيأت للإجابة على الأسئلة التي وجهها إلى الشبان الأربعة . وقلت لهم الحقيقة :

— أجل ، بما أنكم تلحون علي ، لقد أتيت بها من داخل القمر

— القمر ؟

— م ...... القمر الذي في السماء .

— ولكن ماذا تعني ؟

— أعني ما أقول . يا للعنة !

— أتيت توا من القمر ؟

— تماما ! خلال الفضاء — في تلك الكرة !

وقضمت لقمة لذيذة من البيض ، ودونت في مذكرتي الخاصة أنني إذا عدت إلى القمر ، فسوف آخذ معي صندوقاً من البيض .

ورأيت بوضوح أنهم لم يصدقوا كلمة واحدة مما قلت ، ولكنهم عدوني من بين الكذابين الذين قابلوهم وأكثرهم احتراما بلا شك ، وراحوا ينظرون الواحد إلى الآخر ، ثم ركزوا نيران عيونهم علي . ويخيل إلي أنهم توقعوا أن يجدوا دليلا يُنم عني في طريقتي في تناول ملح الطعام ويبدو أنهم وجدوا شيئا ذا مغزى في طريقة رش الفلفل على البيضـــة . وكان تفكيرهم منصبا على تلك الكتل الذهبية الغريبة الشكل التي كانوا ينوءون بحملها . وكانت تلك الكتل ملقاة أمامي وكل منها تقدر بآلاف من الجنيهات ، ولكن من الصعب على أي إنسان أن يسرقها ، كما يصعب سرقة منزل أو قطعة من الأرض . وبينما أنا أحتسي قهوتي وأراقب وجوههم وقد علتها الدهشة ، أدركت شيئا من التيه الهائل من التفسيرات التي يتحتم علي الإدلاء بها لكي يفهمني الناس مرة أخرى .

وأخذ أصغر الشبان سنا يقول بنغمة من يكلم طفلا عنيداً : « أنك لا تعني حقيقة . . . . »

فقطعت عليه سبيل الكلام كله بقولي له : « ناولني طبق الخيص ذاك الخسـب » .

وأخذ أحدهم يقول : « أنصت ياهذا . اعلم أننا لن نصدق ذلك »

وقلت وأنا أهز كتفي : « حسنا »

وتكلم أصغر الشبان سنا ، على أنفراد إلى درجة ما فقال عني : « إنه لا يرغب في أخبارنا » ثم قال مبديا رزانة كبرى : « أيضيرك إن أخذت سيجارة ؟ »

فرحت له يدي مبديا موافقتي الصادقة ، ثم مضيت في تناول افطاري

وقام اثنان من الآخرين فأطلا من نافذة قصية ووراحا يتكلمان بصوت غير مسموع ، ومرت برأسى فكرة ، فقلت : « هل سيتهى المد ؟ » .

نجيم عليهم السكون ، لا يدرون من يلزم بالرد على . فقال السمين الصغير الجسم : « الجزر يوشك أن يأتى » .

فقلت : « حسنا . لن تطفو بعيدا » .

وقطعت رأس البيضة الثالثة ، وشرعت ألقى خطابا موجزا قلت فيه : « أعيرونى سمعكم . أرجوكم ألا تظنوا أنى شخص مشاكس ، أو أنى أكذب عليكم أكاذيب لا تليق ، أو أى شىء من هذا القبيل وأنا مضطر لأن أكون مقتضبا فى كلامى وغامضا . وأعرف أن الأمر غريب بقدر ما تكون الغرابة ، وأن خيالاتكم تسرح فيه بلا شك ، وأستطيع أن أؤكد لكم أنكم فى زمن أهل للذكرى ، ولكن ليس فى مقدورى الآن أن أوضح المسألة لكم — فهذا مستحيل ، وأقسم لكم بشرفى أنى قدمت من القمر ، وهذا كل ما أستطيع أن أقوله . . . ومهما يكن فأنا ممتن جدا لكم ، كما ترون ، ممتن جدا ، وأرجو ألا تكون طريقتى قد أغضبتكم بأية حال » .

وقال أصغرهم متلاطفا : « كلا ، بتاتا ! فى وسعنا أن ندرك تماما » ، وكان يرمقنى بنظراته طوال الوقت . واتكأ بكرسيه إلى الوراء حتى كاد ينقلب ، ثم عاد إلى وضعه بعد عناء . وقال الشاب البدين : « كلا ، لم نغضب بتاتا . ألا ترون ذلك ؟ » ، عند ذلك نهضوا جميعا وتفرقوا ، وكانوا يتمشون ويدخنون السجائر ، محاولين بوجه عام أن يظهروا

أنهم فى كمال اللطف والتحرر ، ولا يرون أقل غرابة فى شخصى أو فى الفكرة . وسمعت أحدهم يقول بصوت خافت : « على أنى لن أدع تلك السفينة الجيدة تغيب عن نظرى » . وأعتقد أنهم لو اضطروا لذلك لخرجوا وتركونى وحدى . ومضيت فى أكل البيضة الثالثة .

وقال الرجل السمين فجأة : « الطقس جميل جدا ، أليس كذلك ؟ لا أذكر متى كان لنا صيف كهذا . . . . . . ! » .

وإذا أزيز كصاروخ هائل . . . . . فو — وزز

وانكسرت نافذة فى مكان ما . . . . . .

فقلت : « ما هذا ؟ » .

وقال الرجل الصغير القد ، وهو يندفع نحو النافذة الركنية : « ألعله . . . . . ؟ » .

وجرى الآخرون إلى النافذة مثله ، وأنا جالس أنظر إليهم

ولكننى وثبت فجأة ، ورميت البيضة الثالثة ، وهرعت إلى النافذة أيضا ، وكان قد مر شىء بخاطرى .

وصاح الصغير القد ، وهو يهرع إلى الباب : « لا يمكن رؤية شىء من هنا » .

وصحت ، وأنا أصرخ غاضبا بصوت أجش : « إنه ذلك الولد ذلك اللعين » ، ودرت على عقبى ، ودفعت خادم الفندق جانبا الذى كان يحمل إلى مزيدا من الخبص ، واندفعت من الغرفة إلى الخارج حيث الساحة التى عند مدخل الفندق .

وقد انقلب البحر الصاخب هائجاً ، وتسارعت التيارات ، وإذا الأمواج تتقلب في الموضع الذي كانت الكرة تشغله ، كما تتقلب في مؤخرة السفينة ، وظهرت فوق المكان سحابة صغيرة راحت تتلوى كالدخان المتطاير ورفع الذين على الشاطئ رءوسهم — وكانوا ثلاثة أو أربعة — وراحوا يصوبون النظر بوجوه متسائلة ، إلى تلك النقطة الصغيرة التي أحدثت ذلك الصوت غير المتوقع .

وكان هذا كل ما في الأمر . وانطلقت في إثرى أرجل ، خادم الفندق والرجال الأربعة ذوو المآزر ، وانطلق الصياح من النوافذ والأبواب ، وامتلأ المكان بقوم قلقين من جميع الفئات ، وقد فغروا أفواههم دهشة .

ووقفت أنا أيضاً فترة من الزمن ، وقد طغى على ما استجد من أمر فعجزت عن التفكير في الناس . ولشدة ذهولي لم أستطع في بداية الأمر أن أرى أية كارثة ماحقة . لقد كنت مذهولا فحسب ، كما يذهل الانسان إذا أصابته ضربة عنيفة مفاجئة ، إذ أنه لا يشعر بوقع المصيبة حقاً إلا بعد وقوعها .

وصحت : « يا للهول ! »

وشعرت كأن أحداً يصب على قفاى ناراً من طاس . وتخاذلت قدماى فقد وصلني أول إخطار عن مدلول الكارثة لي . أما ذلك الولد اللعين فقد ارتفع في الجو . و « هجرت » هجراناً تاماً . ولم يبق لي ما أمتلكه على هذه الأرض سوى ذلك الذهب — في مقهى الفندق . فكيف ستسير الأمور ؟ وكانت النتيجة العامة إنني أصبحت في حالة اضطراب هائل لا ضابط له .

وانطلق صوت الرجل الصغير القذر يقول : لا أظن . . . . . أظنك تعرف . . »

ورحت أطوف في المكان ، وكان حولي عشرون أو ثلاثون رجلا ، حشد مضطرب من مختلف الطبقات ، وكلهم يمطرني بوابل من الاستجوابات المرسلة في شكوك وظنون لا حد لها . كنت أشعر بإطباق عيونهم بصورة لا تحتمل فرحت أزمجر بصوت مرتفع وأصرخ قائلا : « لا أستطيع ! أقول لكم لا أستطيع ! لست كفؤاً لهذا العمل يجب أن تفكروا و . . . . . . واللعنة عليكم . . »

ورأيت حركة تشجيعية واندفعت في وسطهم ، واجتزت الطريق إلى الفندق ، ثم صعدت إلى المقهى ودققت الجرس بشدة ، وكان الخادم داخلا فأمسكته وصرخت فيه : « أتسمعني ؟ استعن بأحد وانقل هاتين العلبتين إلى غرفتي فوراً . . »

وعجز الرجل عن فهمي ، فصرخت في وجهه ورحت أهذى ، وظهر رجل حسن صغير الجسم تبدو عليه أمارات الرعب يلبس ميدعاً أخضر وجاء بعده رجلان من الذين كانوا يلبسون قمصاناً من القطن . فأقبلت عليهم وأجبرتهم على تقديم خدماتهم ، وما أن نقل الذهب إلى غرفتي حتى شعرت بأنه لا يعوقني شيء عن الشجار ، فصرخت فيهم وأمرتهم بالخروج وقلت لهم : « اخرجوا كلكم إلا إذا أردتم أن تروا رجلا ينقلب مجنوناً على مرأى منكم ! » ووقف الخادم متردداً على عتبة الباب فدفعته من كتفه ، ولم أكد أوصد الباب عليهم جميعاً ، حتى نزعت عن جسمي ملابس الرجل الصغير القذر ،

وأتقيتها بعنة ويسرة ، ثم دخلت فى الفراش توا . فاضطجعت وأنا أئن وألهث ، ولم تبرد حدة غضبى إلا بعد وقت طويل . ولما هدأت ثائرتى فى نهاية الأمر نهضت من الفراش ودققت الجرس ، فطلبت إلى الخادم ذى العينين المشربتين أن يأتينى بقميص نوم قطنى وبعض الويسكى والصودا ، وعدد من السجائر الجيدة . ولما أحضر لى هذه الأشياء بعد انتظار أثار غيظى واضطرنى إلى دق الجرس عدة مرات ، أوصدت الباب ثانية . وشرعت أنظر إلى المسألة برمتها نظرة جدية .

فقد انتهت التجربة كلها بالفشل الذريع . بهزيمة أسفرت عن بقائى وحدى على قيد الحياة . لقد كانت انهيارا مطلقا ، وكان هذا الحادث الكارثة الأخيرة فلم يبق أمامى إلا إنقاذ نفسى بقدر المستطاع ، بما بقى لى من مخلفات الهزيمة ، إذ أن بعد هذه الضربة الواحدة القاضية ، هذه الضربة الأخيرة تلاشى جميع ما كنت قد اتخذته من قرارات مبهمة للعودة إلى القمر واستعادة ما كان فيه . وتلك النية التى بيتها الرجوع إليه وملء كرتنا بالذهب ، ثم أخذ قطعة من المادة الكافورية ، وتحليلها وكشف النقاب عن السر العظيم ، وأخيرا احتمال العودة حتى بجثة كافور . جميع هذه الأفكار تلاشت كلية .

لقد كنت الوحيد الباقى على قيد الحياة ، وهذا كل ما فى الأمر .

وكان ذهابى إلى الفراش فى حد ذاته أسعد فكرة خطرت لى فى ظرف طارئ كذلك الظرف ، وأعتقد اعتقادا جازما أنه لولا ذلك لفقدت رشدى أو أتيت عملا مشينا طائشا . أما وقد أوصدت على الباب وأصبحت

فى مأمن من جميع المضايقات فقد تواتى لى التفكير فى الموقف من جميع جهاته واتخاذ التدابير على مهل .

وقد وضح لى تماما طبيعة الحال ماحدث لذلك الغلام ، فقد زحف إلى داخل الكرة وراح يعبث بالأزرار وأغلق النوافذ الكافورية وطار صاعدا وأرجح جدا أنه لم يغلق باب الكوة . وحتى لو فرضنا جدلا أنه أغلقها لكانت ظروف نجاحه فى العودة بنسبة واحد إلى الألف . لقد كان الأمر واضحاً وضوحاً مناسبا أنه سوف يتجلب هو وردم أمتعتى إلى مكان ما فى وسط الكرة وسوف يظل فى ذلك الوضع فلاتعود الأرض تهتم بأمره اهتماما شرعيا مهما قد يبدو هاما بالنسبة لسكان منطقته النائية فى الفضاء . وسرعان ما أقنعت نفسى بهذه المسألة . أما فيما يتعلق بمسئوليتى عن هذا الحادث فكلما فكرت فى الأمر ازداد وضوحا أنى لو كنت قد لزمت الصمت إزاء هذه المسائل لما احتاج الأمر إلى هذا الازعاج لنفسى . ولو واجهنى الوالدان وطالبانى بابنهما لكان على أن أطالبهما بكرتى المفقودة فحسب أو أطلب إليهما تفسير كلامهما . وتمثلت لى فى أول الأمر رؤيا الوالدين والأوصياء المنتحبين وما يتبع ذلك من شتى التعقيدات . أما فى تلك الساعة فقد رأيت أنى كلما طال اضطجاعى وتدخينى وتفكيرى زادت لى وضوحا الحكمة فى عزلتى .

ومن حق كل مواطن بريطانى لم يتلف شيئا للغير ولم يرتكب عملا منكرا أن يظهر فجأة فى أى مكان يريده بالثياب المهلهلة والقذارة اللتين يريدهما وبأى مقدار من الذهب الخام يرى من المناسب أن يحمله معه

وليس لأحد الحق فى تعطيله أو منعه عن العمل . كونت هذه الفكرة لنفسى فى النهاية ورحت أكررها بوصفها ميثاقا ، ماجنا كارتا ، خاصا من مواثيق حريتى .

وما أن وضعت هذه النتيجة جانبا حتى استطعت أن أتناول بالتفكير عدة اعتبارات معينة بالطريقة ذاتها . وهى اعتبارات لم أجرؤ على التفكير فيها قبل ذلك ، ألا وهى الاعتبارات التى تنشأ فى حالة إفلاسى . أما وأنا أنظر إلى الأمر الآن بهدوء وتؤدة فقد استطعت أن أرى أنه لو أمكننى كتم حقيقة شخصى بحمل اسم يقل عنى شهرة والاحتفاظ باللحية التى تركتها تنمو مدة شهرين على وجهى ، فإن خطر تعرضى لمضايقة ذلك الدائن الحقود الذى أشرت إليه منذ قليل سوف يقل بالتأكيد ، ويصبح الطريق ممهدا بعد ذلك لأى عمل معقول أقوم به فى العالم . لقد كان الأمر بلا شك تافها بدرجة مخجلة ولكن ماذا بقى لدى من أعمال أقوم بها ؟

ولقد عقدت العزم على أن أظل متزنا وأن أقف موقفا سلبيا فى أى عمل تناوله .

وأمرت بإحضار أدوات الكتابة . وسطرت خطابا بعنوان مصرف ليرومنى . أقرب مصرف إلى المكان ، كما أخبرنى خادم الفندق وأوقفت إلى مدير المصرف برغبتى فى فتح حساب مع مصرفه ، وطلبت إليه أن يرسل شخصين يثق بهما ومعهما عربة وجواد قوى ويخولهما السلطة ليقبلا هندردويت (١٢ رطلا) من الذهب انفق وجوده

معى . ووقعت على الرسالة باسم « بليك » الذى بدا لى على درجة كبيرة من الاحترام ، ولما انتهيت من ذلك أخذت دليلا هو كتاب « فولستون » الأزرق ، واخترت متجرا لأدوات السفر وأوصيته أن يوفد إلى حائكا ليفصل لى حلة سمراء من الصوف « التويد » وطلبت أيضا حقيبة للسفر وأخرى لأدوات الزينة وحذاء بنى اللون وقفازا وقبعة ملائمة ، وأشياء أخرى من هذا القبيل ، واخترت متجر ساعات وطلبت ساعة . ولما انتهيت من إرسال هذه الخطابات طلبت إلى الخادم أن يحضر إلى حجرتى ألذ غذاء يستطيع الفندق أن يجهزه وجلست بعد ذلك أدخن سيجارا فى أهدأ بال وأحسن حال إلى أن حضر وقتما توصيات موظفين من المصرف يخولهم السلطة اللازمة فوزنا ذهبى وحملاه معهما . وبعد ذلك غطيت أذنى بملابسى حتى أحول دون تطرق أصوات الطرق على الباب إليهما . وذهبت لأنام وأنا أشعر بالراحة .

ذهبت لأنام . وهذا بلاشك أمر عادى لرجل عائد من القمر ، وأستطيع أن أتخيل أن القارىء الصغير الواسع الخيال سوف يجد تصرفى هذا مخيبا لآماله ، ولكنى كنت متعبا بشكل مخيف ومتضايقا . فماذا كان فى إمكانى أن أفعل غير ذلك ؟ يا لى ! ألم يكن ثمة أى رجاء لى فى أن يصدق الناس إن رويت قصتى فى تلك الساعة ، والتعرض بذلك وبشكل تأكيد لمضايقات لا تحتمل . ونمت ولما استيقظت كنت على استعداد لمواجهة العالم كما اعتدت أن أواجهه دائما منذ بلوغى سن الرشد . وذهبت من هناك إلى إيطاليا وها أنذا أكتب هذه القصة فيها ، فإذا لم

يقبلها العالم بوصفها حقيقة فليقبلها بوصفها قصة من نسج الخيال ، فهذا أمر لا يهمني .

وإنه ليدهشني ، بعد أن انتهيت من القصة ، أن أرى أن هذه المغامرة قد ذهبت ونسيت تماما . فالجميع يعتقد أن كافور لم يكن من العلماء النابهين الذين يجرون التجارب العلمية ، وأنه دمر نفسه ومنزله في ليمبي وهم في تفسيرهم الفرقعة التي وقعت بعد وصولي إلى تلشتون ، يشيرون إلى التفجيرات التي تجريها الهيئات الحكومية في ليد على بعد ميلين . ويجب أن أصرح بأني للآن لم أعترف بنصيبي في اختفاء السيد تومس سيمثر الصغير وهو اسم ذلك الغلام ، وقد يؤول الأمر إلى أن هذه الناحية من التأييد يصعب دحضها فهم يعللون بطرق بارعة مختلفة ظهوري على شاطئ تلشتون مهلهل الثياب ومعي عتلتان لا جدال في أنهما من الذهب ولا يتلقى ما يظنونه عني فهم يقولون إنني قد سبكت هذه الأقوال جميعها معا حتى لا يضيق على الخناق في السؤال عن مصدر ثروتي . إني أريد أن أرى ذلك الرجل الذي يستطيع اختلاق قصة يتوافق لها أن تماسك كهذه القصة . لذلك يجب أن ينظروا إليها كما ينظرون إلى قصة خيالية . وها هي ذي أمامهم .

لقد رويت قصتي وعلي الآن في اعتقادي أن أحمل هموم الحياة الأرضية مرة أخرى . وعلى الإنسان أن يكسب قوته ، وإن كان قد سافر إلى القمر . وهذا ما حدا بي إلى الاشتغال هنا في « أمالفي » في وضع مناظر تلك المسرحية وهي المناظر التي رسمتها قبل أن يدخل كافور إلى حياتي . وأحاول الآن أن أضم شتات حياتي كما كانت قبل أن أراه

ويجب علي أن أعترف بأني أجد صعوبة في تركيز فكري في المسرحية عندما يتسرب نور القمر إلى غرفتي . إنه الآن بدر ، وقد جلست ليلة البارحة في الشرفة عدة ساعات أنظر بعيدا إلى ذلك الإشراق الفضاق الذي يخفي الكثير من الأسرار . تخيله ! تخيله بما فيه من نضد وكراسي وسنائد وقضبان من الذهب . يالفتنة ! آه لو تيسر للإنسان أن يعثر على سر المادة الكافورية مرة أخرى ! لكن شيئا كهذا لا يمر على الإنسان مرتين في الحياة . وكل ما في الأمر أنني أحسن حالا هنا مما كنت في ليمبي . أما كافور فقد انتحر بطريقة باهرة تفوق ما عرفه الإنسان قبله . وهكذا تتم القصة وتختم فصولها كما في الأحلام تماما . ولا تنطبق على الكثير مما في الحياة من شئون أخرى إلا في القلة القليلة من الأمور . وكثير جدا من فصولها بعيد كل البعد عما تخبره البشر — كالوثب والأكل والتنفس ، وهذه الأوقات التي لا وزن لها — حتى أني لتمر علي لحظات أكاد أعتقد فيها أن السفرة كلها كانت حلما رغم الذهب الذي أحمله معي من القمر .

رسالة المستر جوليوس فنديجى

عندما انتهيت من قصة عودتى إلى الأرض فى تلستون كتبت فى ختامها كلمة « النهاية » ورسمت تحتها زخرفا . ثم ألقيت القلم معتقدا اعتقادا تاما أن قصة « أول من وصل إلى القمر » قد تمت بأكملها . لم أفعل هذا فحسب ، بل أنى وضعتها بين يدى وكيل إحدى الهيئات الأدبية وسمحت له ببيعها ، ورأيت معظم أجزائها ينشر فى مجلة « ستراند » وانكببت بعد ذلك مرة أخرى على مناظر المسرحية التى بدأتها فى ليمبى قبل التحقق من أن النهاية لم تأت بعد ثم وصلتنى رسالة هى أغرب شيء قدر لى أن أتسلمه فى حياتى . أرسلت منذ نحو ستة أشهر إلى « أمالفى » وبعثت إلى مدينة الجزائر عند انتقالى إليها . أبلغتنى هذه الرسالة بوجيز العبارة أن المستر جوليوس فنديجى ، وهو كهربائى هولندى ، ما انفك يجرى التجارب على جهاز معين يشبه الجهاز الذى يستعمله المستر « تزلا » فى امريكا ، يحدوه الأمل إلى اكتشاف طريقة للتخاطب مع المريخ ، أقول أبلغتنى الرسالة أن هذا الرجل ما فتىء يتسلم يوما بعد يوم رسالة بالإنجليزية ، مجزوءة بصورة غريبة ، واردة بلاشك من المستر كافور بداخل القمر .

ظننت فى بداية الأمر أن القصة كلها دعابة بارعة من رجل وقع فى يده مخطوط قصتى : ورددت على المستر فنديجى مباسطا ولكنه رد على بصورة جعلتنى أطرح عنى هذه الظنون مرة واحدة . وأسرعت ، وأنا فى حالة لا يمكن تخيلها من الانفعال ، بالسفر من الجزائر إلى المرصد الصغير على جبل سان جتَّرد ، حيث كان يعمل . وتلاشى ما كان قد بقى عندى من شكوك حين شاهدت تسجيله وأجهزته ، وأهم من كل هذا ، حين توارد على رسائل كافور . وقررت فوراً قبول اقتراحه على بالبقاء معه ومعاونته فى تسجيل الرسائل يوما فيوما وفى محاولته لإرسال رد إلى القمر . وهكذا عرفنا أن كافور لم يكن على قيد الحياة فحسب ، بل كان أيضاً منتعشا بحريته فى وسط مجتمع لا يمكن تصوره من هذه المخلوقات الشبيهة بالنمل ، هؤلاء الرجال النمل الذين يعيشون فى الظلمة الزرقاء داخل الكهوف القمرية . كان قد ألم به عرج على ما يبدو ، ولكنه فيما عدا ذلك كان يتمتع بصحة جيدة ، أوفر — كما صرح بجلاء — من صحته التى اعتادها على الأرض . وأصيب بالحمى ولكنها لم تترك فيه آثارا سيئة على أن الغريب فى الأمر أنه كان يعتقد أنى قد هلكت فى الفوهة البركانية فى القمر أو ضللت الطريق فى الفضاء الواسع .

وقد بدأ المستر فنديجى يتسلم رسائله حين كان منكبا على دراسة من نوع آخر تكاد تختلف تمام الاختلاف . ولا شك ان القارىء يذكر الضجة الصغيرة التى استهلت هذا القرن إثر بيان اصدره نكولا تزلا العالم الكهربائى الأمريكى الذائع الصيت ، وقال فيه انه تسلم رسالة من المريخ . وقد أعاد بيانه إلى الأذهان حقيقة عرفت للعلماء منذ عهد طويل

مؤداها أن ثمة موجات مغنطيسية ـ كهربائية ، لا يعرف مصدرها في الفضاء ، وتشبه شبها تاما تلك الموجات التي استخدمها السنيور ماركوني في برقياته اللاسلكية ، لا تفتأ تصل إلى الأرض . وقد انكب علماء آخرون غير المستر تزلا على اتقان جهاز الاستقبال وتسجيل هذه الاهتزازات ، بل ذهب بعضهم ـ وإن كانوا قلة ـ إلى حد اعتبارها رسائل حقيقية ، صادرة من شخص ما خارج الكوكب الأرضي . على أن بين أولئك القلائل يجب بالتأكيد أن تذكر المستر فنديجي الذي وهب نفسه كلية لدراسة هذا الموضوع منذ عام ١٨٩٨ ، ولما كان رجلا واسع الثراء فقد اقام مرصدا على جوانب قمة « مونت روزا » في وضع فريد يؤهله من جميع الوجوه لأمثال هذه الأرصاد .

ويجب على أن أعترف أن معارفي العلمية ليست كبيرة ، ولكنها مكنتني إلى الآن من الحكم على أجهزة المستر فنديجي الخاصة بمعرفة وتسجيل أية اضطرابات في الأحوال المغنطيسية ــ الكهربائية في الفضاء ، وأعتبرها بارعة ومن ابتكاره ، وتشاء المصادفات أن تقام هذه الأجهزة وتشرع في عملها قبل المحاولة الأولى التي قام بها كافور للاتصال بالأرض بنحو شهرين ولهذا كان بين أيدينا أجزاء من هذه الاتصالات منذ أن شرع فيها ، وهي لسوء الحظ مخابرات غير كاملة . وأهم الأشياء التي رأى من واجبه أن يخبر الانسانية بها توصياته لطريقة صنع المادة الكافورية ، التي إن كان قد أذاعها فعلا فقد تسربت خلال الفضاء دون أن يسجلها أحد . ولم نفلح قط في إرسال رد لكافور لذلك لم يستطع أن يعرف ما تسلمناه وما فاتنا تسلمه ، ولا حتى عرف بصفة

مؤكدة إن كان أي أنسان على سطح الأرض قد درى بجهوده ووصولها إلينا . وهذه المثابرة التي أظهرها في إرساله ثمانية عشر وصفا مسهبا للأحوال القمرية . كما يمكن أن تكون لو أنها وصلت كاملة ، هذه المثابرة ترينا أن فكره قد اتجه حتما إلى موطنه الكوكبي منذ أن تركه من عامين معنا ويمكنك أن تتخيل دهشة المستر فنديجي حين اكتشف أن اضطرابات المغنطيسية الكهربائية قد اختلطت بانجليزية كافور الواضحة لم يكن هذا العالم يعرف شيئا عن رحلتنا المغامرة صوب القمر وإذا بهذه الإنجليزية تخرج له من خلال الفضاء وجدير بالقارىء أن يدرك الأحوال التي أرسلت فيها هذه المخابرات ، كما يمكن أن تبدو ، فقد أمكن لكافور بكل تأكيد الوصول إلى عدد من الأجهزة الكهربائية في مكان ما داخل القمر واستخدامه إياها فترة من الزمن ولعله أعد علمة طريقة ما للإرسال على نمط طريقة ماركوني ، واستطاع أن يجربها في فترات غير منتظمة قد لا تستغرق أكثر من نصف ساعة في بعض الأحيان وقد تمتد في أحايين أخرى ثلاث أو أربع ساعات مستمرة وكان في هذه الأوقات يقوم بإرسال رسائله إلى الأرض بغض النظر عن التغير المستديم الذي يطرأ على وضع القمر نسبيا وأوضاع بعض المرئيات على سطح الأرض . وترتب على ذلك ، وعلى النقص الذي لا محيص عنه في أجهزة التسجيل التي لدينا ، أن رسائله كانت « تروح وتجيء » على الأجهزة متقطعة وتخرج مطموسة ، وتضعف بطريقة غامضة معيقة فضلا عن أن كافور لم يكن خبيرا في إرسال الإشارات . فإما أنه نسي بعض النسيان نظام الإشارات الشائع استعماله وإما أنه لم يتقنه قط

تماما . وكان حين يدركه التعب ، يسقط بعض الكلمات ويكتبها بهجاء غريب ويرجح أن نصف الإشارات التى ارسلها قد فقد . وما عندنا منها تالف متقطع تحو فى بعض أجزائه ، ولذا يجب على القارىء عند تلاوة الخلاصة فى الفصل التالى أن يتوقع كثيرا من الثغرات وانقطاع الحديث وتغير الموضوع . وتعمل أنا والمستر قنديجى معا فى استكمال تسجيلات كافور وكتابة تعليقات وشروح عليها فى كتاب نرجو ان يتوافى لنا نشره مع وصف مفصل للأجهزة المستعملة . وسنبدأ فى يناير القادم بإصدار المجلد الأول الذى سيكون بمثابة تقرير على واف ، وعنده نسخة طبق الأصل منه وما نقدمه هنا يكفى لإتمام القصة التى رويتها ، فضلا عن أنه يمدنا بالخطوط العريضة لأحوال ذلك العالم الآخر القريب منا والذى ينتمى إلينا رغم الاختلافات التى بيننا .

الفصل الثالث والعشرون

خلاصة الرسائل الست الأولى التى تسلمناها من كافور

يمكننا أن نختجز رسائل كافور الأوليين لنخص بها المجلد الثانى الذى سوف يكون أكبر من الأول . إنهما ترويان الحقائق المجردة التى ينطوى عليها صنع الكرة وقصة سفرنا من الأرض ، وذلك بإيجاز أكثر واختلاف فى عدة تفاصيل مشوقة . وإن لم تكن ذات أهمية حيوية . ويصدق كافور مينا طوال القصة كلها ، ولكنه حين يأتى إلى وصف نزولنا على القمر تتغير تغيرا غريبا فيقول عنى كافور «المسكين» و «هذا الشاب المسكين» ، ويلقى اللائمة على نفسه لإغرائه شابا «لم يعد قط للقيام بمغامرات كهذه» ليترك كوكبا «كان مقدراً له أن ينجح نجاحا لاجدال فيه» فى مهمة شائكة كهذه . وأظن أنه لايغض من قدر الدور الذى قمت به بشاطئى ومقدرتى العملية فى فهم النظرية التى قامت عليها الكرة ويقول « وصلنا » دون أن تتكلم عن سفرتنا خلال الفضاء أكثر مما لو كنا قد قمنا برحلة عادية بالسكة الحديدية .

ويغلو بعد ذلك فى حكمه على حكما غير عادل إلى درجة لم أكن أتوقعها من رجل تربى على البحث عن الحقيقة ، وإذ أعود إلى الوراء إلى القصة التى رويتها عن هذه الأمور ، يجب على أن أقول بإصرار

أنى كنت فى كل مارويت أعدل فى حكمى عليه مما كان هو فى حكمه على ، فقد قلت من شأن أخطائه ولم أحذف شيئاً . أما هو فيروى ما يأتى :

« وسرعان ما اتضح لنا أن غرابة أحوالنا وظروفنا — فقدان كبير الوزن ، خفف من وطأته الهواء المشبع بالأكسجين ، وما نشأ عنه من الغلو فى المجهود العضلى ، والنمو السريع لأنواع غريبة من النباتات ، من بذور غامضة ، والسماء المكفهرة — أقول أن غرابة الظروف المحيطة بنا أثارت رفيقى بصورة غير لائقة ، ويبدو أن أخلاقه على القمر أخذت تتدهور فأصبح كثير الانفعال طائشاً ، محباً للشجار . وترتب على نزقه الذى بدأ بإلتهامه بذور نبات ضخم ، تحذير أدى إلى أسرنا على يد المخلوقات القمرية قبل أن يتسنى لنا مراقبتها المراقبة الجيدة والوقوف على أسلوب حياتها ...

(وهكذا ترون أنه لايذكر شيئاً عن قبوله هذه « البذور » ذاتها)

ويتدرج فى كلامه من هذه النقطة فيقول :

« وصلنا معهم إلى ممر ضيق ، وإذا أخطأ بخموره فى تفسير حركات معينة أدوها « — أجمل بها من حركات ! — « استقل لنوبة عنف ناشىء عن الشعور بالفزع ، فثارت ثائرته واندفع كالمجنون فقتل ثلاثة من تلك المخلوقات — وربما كان يجب على بعد هذه الثورة أن أهرب معه — وبعد ذلك قاتلنا عدداً منهم انبرى ليسد علينا الطريق فقضينا على سبعة أو ثمانية آخرين . ويرتقلك هذا على التساع المعظم الذى أبدوه فلم يسرعوا فى الفتك بى عندما قبضوا على فى المرة

الثانية . وشققنا طريقنا إلى الخارج وانفصلنا عند الفوهة التى كنا قد نزلنا فيها عند وصولنا ، وذلك للاستزادة من فرص عثورنا على الكرة . وعند ئذ تلاقيت مع جماعة من أهل القمر يتقدمهم اثنان يختلفان اختلافاً غريباً عن الآخرين حتى فى شكل أجسامهم فقد كانت لهم رءوس أكبر وأجسام أنحف . وكانا متشحين بالثياب الباهرة وبعد أن تحاشيتهم بعضاً من الوقت سقطت فى حفرة وأصبت بجرح خطير فى رأسى وخلع فى طاسة ركبتى ، ولما وجدت الزحف مؤلماً قررت أن أسلم نفسى ، إن سمحوا لى بذلك ، وقد سمحوا لى وحملونى معهم إلى القمر بعد أن رأوا عجزى . فلم أعد أراه أو أسمع عنه ، وكذلك لم يره أو يسمع عنه أحد من القمريين ، وهذا يقدر ماوصل إليه علمى فإما دهمه الليل أو أنه عثر على الكرة — وهذا أكثر إحتمالا — فطار بها رغبة منه فى الفوز على . وجل ما أخشاه أن تكون الكرة عنيدة القياد فيلتقطه حتفه فى الفضاء الخارجى » .

وينتهى كافور من أمرى بهذه الرواية ثم ينتقل إلى مواضيع فيها تشويق أكثر . وأنا أمقت فكرة الانتفاع من موقفى بوصفى المحرر ، كما أبدو للغير — الذى يكتب قصته ، ويحورها لصالحه ولكنى مضطر هنا للاحتجاج ضد الطريقة التى يصور بها الحوادث ، فهو لا يقول شيئاً عن الرسالة الحارة على الورقة الملطخة بالدم التى ذكر فيها قصة مختلفة جداً — أو حاول أن يذكرها . فأنا أصر على رأى أن هذا التسليم المشرف الذى لجأ إليه بعد ان بدأ يشعر بالإطمئنان إليهم ، هذا التسليم هو نظرة إلى الموقف جديدة تماماً أما عن فكرة « الفوز عليه » فأنا

على تمام الرضا بأن يقف القارىء بيننا ليقرر الحقيقة فى ضوء الحقائق التى أمامه. لست مثاليا وأنى أعرف ذلك، ولم أدع بأنى مثالى. ولكن هل أنا كما وصفنى ؟

هذه هى خلاصة أخطائى رغم ذلك، وأستطيع من هذه الناحية أن أحرق كتاب كافور وأنا مرتاح الفكر لأنه كف عن ذكرى.

ويبدو أن المخلوقات القمرية التى عثرت عليه حملته إلى مكان ما داخل القمر، من فتحة كبيرة، فى شىء وصفه بأن «يشبه المنطاد». ونستخلص من هذه الفقرة المضطربة بعض الاضطراب التى يدل فيها بهذا الوصف ومن عدد من الإشارات والتلميحات المرضية فى رسائل اخرى له بعد ذلك أن هذه الفتحة الكبيرة هى جزء من نظام هائل من الفتحات التى حفروها بين «قوهة» وأخرى إلى عمق يصل إلى مائة ميل تقريبا فى اتجاه مركز هذا التابع الأرضى. تتصل هذه الفتحات بعضها من طريق نفق تتقاطع معها وتتخللها مغاور سحيقة الغور، وتمتد لها ساحات رحبة لها قباب ضخمة. فتتألف مادة القمر كله من هذا الاسفنج الصخرى حسب إلى عمق مائة ميل إلى داخله. ويقول كافور «أن جزءا» من هذه المغاور طبيعى ولكنها فى الغالب من صنع المخلوقات القمرية وجهودهم الهائلة فى الماضى. وما الرواق الدائرية الضخمة فيما حفر من صخر وأرض إلا تلك الأشكال المستديرة الكبيرة حول النفق والمعروف لدى علماء الفلك الأرضيين بالبراكين. نتيجة خطأ فى التشبيه.

ومن هذه الفتحة حملوا كافور فيما وصفه بأنه «يشبه المنطاد»، سائرين به أولا وسط سواد قاتم، ثم خرجوا به بعد ذلك إلى منطقة يتزايد فيها البريق الفسفورى. وتبينه مراسلاته على درجة عجيبة من عدم المبالاة بالتفصيل رغم أنه من رجال العلم، ولكننا نستنتج من ذلك أن هذه الأنوار مرجعها إلى مجارى المياه وشلالاتها، التى لابد من احتوائها على كائنات فسفورية. تلك المجارى والشلالات التى لاتفتأ تتدفق بكثرة متزايدة إلى المناطق السفلية فى اتجاه البحر الأوسط. ويذكر أنه أثناء نزوله، أضاءت أجسام القمريين أيضا، ورأى تحته فى النهاية ما بدا له مثل بحيرة من نار لاحرارة فيها، هى مياه البحر الأوسط، التى كانت تبرق وتتدفق فى اضطراب غريب «مثل لبن أزرق لامع على وشك الغليان».

ويقول كافور فى فقرة أخرى بعد ذلك: «إن هذا البحر القمرى ليس بمحيط راكد. ثمة موجة تبعثها الشمس تجعله دائم الحركة حول محور القمر، فتثير تلك الزوابع، وغليان المياه والتيارات وأحيانا رياحا باردة ورعودا تصعد منه إلى أعشاش النمل فى الممرات العليا منه ولا يصدر هذا الضوء إلا حين تكون مياه هذا المحيط فى حركة. فى فصول الهدوء النادرة الوقوع تكون المياه سوداء، ويراها الناظر عادة تعلو وتهبط فى فيض زيتى وفى طبقات رقيقة، وطبقات كثيفة من الزبد تنجرف مع التيار البطىء ذى البريق الضعيف. ويبحر القمريون المضايق والبحيرات التى وسط الكهوف فى قوارب مسطحة تشبه الزوارق المصنوعة من جذوع الأشجار المحفورة. وقد سمح لى بالقيام

برحلة قصيرة على مياهه وذلك قبل قيامي برحلتي إلى الممرات التي تتبع حول « القمرى الأعظم » سيد القمر .

وهذه الأغوار والممرات كثيرة الالتواء بطبيعتها ، ومعظمها مجهول إلا لربابنة المهرة ذوى الخبرة من الصيادين ، وكثيراً ما ضل القمريون طرقهم فى تيهها إلى الأبد : وقد قيل لى أن كائنات غريبة تكمن فى مياهها البعيدة ، بعضها على درجة كبيرة من الهول والخطر ، لم تستطع العلوم القمرية أن تستأصلها فهناك على الأخص « الزاقا » ، وهو كتلة معقدة من الأهداب أو الملامس المتشابكة التى لا يزيدها تقطيعها إلا تكاثراً ، وهناك « التزى » ذلك الكائن الامتصاصى الذى لا تراه العين ولكنه ينقض على فريسته بدهاء ، ومفاجأة فيقتلها .

وبقى وصف كافور عليها ضوءاً ضئيلا .

ويتابع كلامه فيقول : تذكرت فى هذه الرحلة ما كنت قد قرأته عن كهوف الماموث ، فلو كان لدى شعلة صفراء بدلا من ذلك الضوء الأزرق الذى يعم المكان ، وربان عتلىء الجسم ، مزود بمجداف بدلا من ذلك القمرى الذى كان له وجه يشبه الدلو ، وهو يعمل على آلة تتبع فى مؤخرة الزورق ، لتخيلت أنى عدت إلى الأرض بجأة . وكانت الصخور التى حولنا على درجات من الإختلاف ، منها الأسود والأزرق المائل إلى الصفرة وذو العروق ، وأرسلت هذه الصخور ذات مرة بريقا ولمعت كأننا دخلنا منجما لياقوت الأزرق . وكان الناظر يرى من تحته الأسماك الطيفية المتألقة وهى تزهو ثم تختفى إلى الأعماق السفلى التى لا تكاد تقل عنها تألقا ، ويتنقل بعد ذلك على مشهد طويل

أزرق لازوردى ، فى ذلك المجرى الفياض من مجارى أحد الجداول التى تعج بالحركة ، وعلى مصطبة للهبوط أو الرسو ، وربما إلى ذلك العطلة خاطفة يرسلها الناظر إلى تلك الفتحة الهائلة العليا المزدحمة لأحد الطرق المعمودية .

٩

« وفى أحد الأماكن الكبرى التى يتدلى من سقفها رواسب كلسية فى شكل الجليد ، فى مجموعات كثيرة ، رأنا كانت عدة قوارب مشتغلة بالصيد فركبنا أحدها ورحنا نراقب القمر بين المسلحين بحراب طويلة وهم يلقون شباكهم . كانوا حشرات صغيرة مقوسة الظهر لها أذرع قوية وأرجل قصيرة معوجة وأقنعة للوجه كثيرة الثبات . وبدت تلك الشبكة وهم يسحبونها كأثقل شىء فى الوجود وقعت عليه عيناى فى القمر . فقد كانت بلا شك مثقلة بشحنة من الذهب واستغرق جرها وقتا طويلا . ذلك أن الأسماك الكبيرة التى يتهافتون على أكلها كانت تكمن فى الأعماق من تلك المياه . وبرزت الأسماك فى الشبكة كقمر أزرق صاعد فى كبد السماء — لقد كانت زرقتها تتألق وهى تتدافع وتتصاعد .

« وكان بين الأسماك التى صادوها كائن أسود اللون عديد الأهداب له عين السوء وشراسة الحركات ، حيوه عند ظهوره بالصراخ والزقزقة وانهالوا عليه بفئوسهم الصغيرة يوسعونه بها ضربات متلاحقة عصبية مزقته إربا ، وراحت أشلاؤه تلتوى وتتلاسع بصورة شنيعة . ولما اتابتنى الحمى بعد ذلك كنت أحلم المرة بعد المرة بذلك المخلوق الشرس الكريه وهو يخرج من البحر المجهول فى قوة ونشاط حركة . لقد فاق

فى حركة وحيثة جميع الكائنات الحيـــة التى شاهدتها داخل هذا العالم القمرى .

« ولا بد أن يكون سطح هذا البحر على عمق يقرب من مائتى ميل أو يزيد تحت مستوى السطح الخارجى للقمر . وتقع جميع البلاد القمرية كما علمت ، فوق هذا البحر الأوسط مباشرة ، فى تلك الساحات الكهفية والممرات الصناعية كما وصفتها ، وهى تتصل بالخارج عن طريق فتحات عمودية هائلة تفتح جميعها فيما يسميه فلكيو الأرض « الفوهات البركانية » القمرية . وقد شاهدت السقف الذى يغطى إحدى هذه الفتحات ، أثناء جولاتى التى سبقت حادثة القبض على .

« أما الجزء الذى يقع قبل المنطقة القمرية الوسطى فلا أعرف عن أحواله شيئا . فهناك سلسلة هائلة من الأغوار التى يلجأ إليها أهل القمر أثناء الليل . وهناك مجازر ومما إليها فى أحد هذه الأغوار وفى مجزر منها وقع القتال بينى أنا وبدفورد من جهة وبين قصابى القمر من جهة أخرى . وقد شاهدت بعد ذلك مناطيد محملة باللحم تهبط من المناطق المظلمة العليا وإلى الآن لم أعرف عن هذه الأمور أكثر مما يعرفه رجل من قبائل الزولو فى لندن عن كميات القمح البريطانى فى التاريخ ذاته . على أنه من الواضح أن هذه الفتحات العمودية وتلك النباتات السطحية تلعب دورا أساسياً بلا شك فى تهوية جو القمر وجعله مناسبا . وذات مرة ، وعلى الأخص عند خروجى من سجنى ، هبت على بشكل تأكيد ريح باردة من أعلى الفتحة ، تبعتها بعد ذلك ريح كالهبوب « السيروكو » جاءت من أسفل ، كانت لها علاقة بالحمى التى أصابتنى . ذلك أنى فى نهاية

ثلاثة أسابيع تقريبا ، مرضت بحمى لا يمكن تحديد نوعها ، ورغم تعاطى أقراص الكينا التى كنت لحسن الحظ قد أحضرتها معى فى جيبى ، فقد لازمنى المرض ، وجعلنى أتبرم بأيامها إلى اليوم الذى أوقفونى فيه فى حضرة القمرى الأعظم ، سيد القمر .

ويتابع كافور كلامه فيقول : « لن أسهب الكلام فيما وصلت إليه حالتى من بؤس خلال الأيام التى مرضت فيها » ويعمد فى هذا المقام إلى التوسع فى القول والتفاصيل التى أحذفها أنا هنا ، ثم يختم كلامه فيقول « ظلت حرارتى عالية بصورة غير عادية ، وفقدت شهيتى للطعام كلية ، وكنت أعانى فترات أرق لا يتناهى ، وفترات نوم تنغصه الأحلام ، وأذكر أنى ضعفت فى إحدى مراحل المرض ، وتملكنى حنين إلى الأرض بنوبات تكاد تكون جنونية « هستيرية » ، وتاقت نفسى توقا لا هوادة فيه إلى لون جديد يعترض هذه الزرقة الأبدية . . . .

ويعود كافور فجأة إلى موضوع الجو القمرى الاسفنجى . وقد أدلى لى علماء الفلك والطبيعة أن جميع ما قاله كافور ينطبق انطباقا تاما على ما عرفه العالم إلى الآن عن أحوال القمر . ويقول المستر تنديجى إنه لو أوتى فلكيو الأرض الشجاعة وسعة الخيال للإدلاء بتأويل جرىء ، لأمكنهم التنبؤ بكل شىء تقريبا مما لدى كافور من كلام عن التركيب العام للقمر وهم يعرفون الآن معرفة أكيدة إلى حد ما أن الأرض والقمر ليسا أصلا وتابعا أو الأخت الكبرى والأخت الصغرى المشتقتين من كتلة واحدة والمركبتين نتيجة لذلك من مادة واحدة ولما كانت كثافة القمر ثلاثة أخماس الأرض فلا يمكن تفسير ذلك إلا أنه مفرغ من

الداخل بسلسلة كبيرة من المغاور . وقد قال سيرجايلز فلاب عضو الجمعية الملكية والرجل الذى أبرز الجانب المضحك من النجوم إبراءً فيه شيء من التسلية ، قال هذا الرجل إنه ليس ثمة ضرورة للذهاب إلى القمر قط للوقوف على استنتاجات سهلة كهذه . وهو يلقى هذا التهكم مشيرا إلى جرويير ، ولكنه كان يمكنه بلا شك أن يعلن عن معرفة بتجويف القمر قبل ذلك الوقت . فإذا كان القمر مفرغا أصبح من السهل بطبيعة الحال تفسير الانعدام الظاهرى للماء والهواء . فالبحر يقع داخله تحت المغاور ، وينتقل الهواء خلال فتحات الممرات الكبرى التى تشبه مسام الاسفنج طبقا للقوانين الطبيعية البسيطة . والمغاور القمرية أماكن تهب عليها الرياح ، بصفة عامة فعندما تشرق الشمس على القمر يسخن هواء الممرات العليا لذلك الجانب المواجه للشمس فيزيد ضغطه ويندفع بعضه إلى الخارج ويمتزج بالهواء المتبخر المحيط بالفوهات البركانية (حيث تمتص النباتات منه ثانى أكسيد الكربون) ، بينما يندفع الجزء الأكبر منه خلال الممرات ليحتل مكان الهواء المخلخل المحيط بالجزء الذى برد من سطح القمر لتحول الشمس عنه . ولذلك نجد هواء الممرات العليا فى حركة نسيمية دائمة متجهة شرقا ونجد حركة أخرى تتجه من أسفل إلى أعلى خلال الفتحات ، وذلك أثناء النهار القمرى وهى حركة كثيرة التعقيد بطبيعة الحال تبعا لاختلاف أشكال الممرات والخطط البارعة التى تفتق عنها ذهن أهل القمر .

التاريخ الطبيعى للمخلوقات القمرية

ورسائل كافور بين اليوم السادس والسادس عشر من الشهر أغلبها متقطعة يكثر فيها التكرار لدرجة أنها تصلح لتكوين قصة متتابعة . وستذكر بحذافيرها فى التقرير العلمى بطبيعة الحال ، ولكنه من الأنسب جدا فى هذا المقام أن نستمر فى إيراد ملخص لها مع بعض العبارات المقتبسة ، كما فعلنا فى الفصل السابق . ولقد عرضنا كل كلمة فيها للنقد والتمحيص الدقيق . وكانت مذكراتى الوجيزة وما انطبع فى ذهنى من الأحداث القمرية معينا لا يقدر لتفسير ما كان يمكن أن يظل فى ظلام دامس لولاها . وينحصر اهتمامنا بطبيعة الحال ، بوصفنا كائنات حية ، فى ذلك المجتمع الغريب الذى يتكون من تلك الحشرات القمرية ، ذلك المجتمع الذى عاش فيه ضيفا مكرما ، كما يبدو الأمر ، أكثر مما ينحصر فى الأحوال الطبيعية المجردة لعالمهم .

وقد أوضحت فى اعتقادى أن المخلوقات القمرية التى شاهدتها تشبه الإنسان من حيث أن لها أطرافا أربعة وأنها تسير منتصبة على قدمين اثنتين . وقارنت منظر رءوسها العام ومفاصل أطرافها بالحشرات . وذكرت أيضا النتائج الغريبة التى كانت لجاذبية القمر ، التى تقل عن جاذبية

الأرض ، على أجسامهم الضئيلة القصيرة ويؤيدني كافور في جميع هذه النقاط ، فهو يسميهم « حيوانات » رغم أنهم بطبيعة الحال لا ينتمون إلى أية مرتبة من مراتب تقسيم المخلوقات الأرضية . وهو يذكر أيضاً أن « نوع الحشرة ، بحسب علم التشريح ، لم يزد قط على هذا الحجم الأرضي الغاية في الصغر نسبيا ، لحسن حظ الإنسان ، ذلك أن أكبر حشرة أرضية ، سواء كانت منقرضة أو في حيز الوجود ، لا تزيد على ست بوصات طولا . » ولكن هنا على القمر ، يستطيع الكائن الحي سواء كان حشرة أو حيوانا فقريا ، أن يصل إلى قامة بني البشر ، ويعلو فوقها ، وذلك لأن القمر أقل جاذبية من الأرض .

ولا يذكر كافور النملة ، ولكنها كانت دائما في خيال طوال تلبيحاته ، في نشاطها الذي لا يعرف النوم ، وفي ذكائها ونظامها الاجتماعي ، في تركيبها وعلى الأخص وجود طوائف شتى منها كطائفة العمال وطائفة الجنود وما إليها . وهي تختلف الطائفة عن الأخرى ، في التركيب والعادات والقوى والوظائف التي تؤديها ، رغم أنها جميعا تنتمي إلى فصيلة واحدة فضلا عن الذكور والإناث ، وهما الشكلان اللذان تتألف منهما سائر المخلوقات الأخرى . وقد كان لسكان القمر أيضا أشكال مختلفة ، فهم بطبيعة الحال أكبر جدا من النمل ، وليس هذا فحسب ، بل إنهم — حسبما يرى كافور — يفوقون الإنسان إلى حد كبير جداً في الذكاء والأخلاق والحكمة الاجتماعية . وبدلا من أن يكون هناك أربعة أو خمسة أشكال للنمل ، نجد أن أشكال سكان القمر لا عدد لها . وقد حاولت أن أبين الفروق الهامة التي يمكن ملاحظتها في المخلوقات القمرية التي تعيش

بالقرب من الفضاء الخارجي للقمر ، وهي المخلوقات التي توالت في مقابلتها فرأيت أن التباين في الحجم والنسب شاسع جداً بكل تأكيد كالتباين الكائن بين أكثر أجناس البشر انفصالا . على أن الفروق التي شاهدتها لتتضاءل وتمحي إذا قورنت بالأجناس المتباينة التي يتحدث عنها كافور . ويبدو أن مخلوقات السطح التي رأيتها كانت تشغل في الغالب وظائف متشابهة فهم رعاة الوحوش القمرية ومنهم القصابون والصيادون وما إليهم . ولكن يبدو أن هناك عدداً من الأجناس القمرية لم يخطر وجودها ببعض ، وهي تختلف في الحجم وفي نسبة أجزاء جسمها بين مخلوق ومخلوق ، وفي قوة أجسامها ومظهرها ، وهي مع ذلك لا تختلف في الفصيلة ، بل تختلف الفصيلة الواحدة في تعدد الأشكال بين أفرادها . وتحتفظ في هذه الفروق جميعها بنوع من التشابه يسودها جميعا ، ويميز اتحادها الخاص . وما القمر إلا نوع من خلايا النمل الكبيرة . وبدلا من وجود أربعة أو خمسة أنواع من النمل هناك عدة مئات من الأنواع المختلفة من القمريين ، تتباين في اختلاف النوع الواحد عن الآخر تباينا فيه جميع أنواع التدرج .

ويبدو أن اكتشاف القمريين لكافور جاء سريعا . وأنا أقول عن طريق الاستنتاج لا المعرفة المستقاة من قصته ، أنه أسر على يد رعاة الوحوش القمرية بتوجيه من القمريين الآخرين الذين ، لهم أقفاص دماغية (رءوس ؟) أكبر من الرعاة وأرجل قصيرة جداً . ولما رأوا أنه يرفض السير حتى تحت وخز المنخس ، حملوه وسط الظلام ، وعبروا به قنطرة ضيقة أشبه بالوح ، ولعلها القنطرة ذاتها التي رفضت السير

عليها . ثم أزاله ووضعوه في شيء ، بدا له في أول الأمر كأنه مصعد بلاشك . إنه المنطاد ، الذى كان بالتأكيد وسط الظلام ، خفياً تماما عن الأنظار . وإن ما بدا لى مجرد سير على اللوح وسط الفراغ لم يكن في حقيقة الأمر سوى ممر المعبر . ونزل كافور في هذا الممر صوب المغاور القمرية التى كان ضوؤها يزيد إشراقا على الدوام . كان ترو لهم في البداية يخيم عليه السكوت إذا استثنينا الزقزقة التى كان يأتيها القمريون ثم دخلوا منطقة تحرك الريح وهبوبها . وكان للظلام العميق أثره على عينيه فأصبحتا في وقت قصير أكثر حساسية من ذى قبل حتى أنهما بدأتا تريان الأشياء التى حوله في كثرة متزايدة إلى أن تجسم الغموض أمامه في آخر الأمر .

ويقول كافور في رسالته السابقة : « تخيل ساحة هائلة اسطوانية الشكل ، عرضها ربع ميل على الأرجح يضيئها نور يكون ضعيفا في أول الأمر ثم يزداد بريقا . وللساحة أفاريز كبيرة تلتف من جوانبها نازلة في شكل حلزونى وفى النهاية تختفى الساحة في زرقة عميقة وسط المناطق السفلى ثم تضاء بنور أشد بريقا من سابقه . لم يستطع أحد أن يفسر السبب ولا الطريقة التى تم بها تأمل بئر ذات سلم حلزونية لا يفوقها شيء في الاتساع أو في الكبر أكبر بئر لمصعد خففت بصرك إلى أسفلها ثم اضرب عمقها في مائة ضعف . وتخيلها وأنت تنظر إلى قاع تلك البئر وتخيل نفسك بعد ذلك وأنت تشعر أن وزنك قد خف بصورة غير عادية وأنك قد تخلصت من كل إحساس بالدوار قد تشعر به

على الأرض ، وعندئذ تعرف الأحوال الأولى التى كانت عليها مشاعرى وانطباعاتى . وتخيل رواقا عريضا حول تلك الفتحة الهائلة يسير في شكل حلزونى شديد الانحدار لا يمكن أن يصدق أحد أن على الأرض شيئا أشد انحداراً منه ، وأن هذا الرواق يؤلف طريقا شديدة الإنحدار لا يحميها من جانب السلم سوى حاجز صغير يتوارى عن الأنظار في النهاية على بعد ميلين إلى أسفل .

« ونظرت إلى أعلى فرأيت الشخص ذاته الذى كنت قد رأيته في المنطقة السفلى ، وكان المكان الذى رأيته منه يبدو كأنه مخروط شديد الانحدار جداً وكانت الريح تهب على أسفل الفتحة ، وخيل إلى أنى أسمع من فوق خوار الوحوش القمرية ، وهى تساق إلى الداخل بعد أن قضت فترة رعيها على سطح القمر ، وكانت أعداد عديدة من أهل القمر منتشرين في الأروقة العليا والسفلى ، وهم أقوام شاحبون يطيئون من ذواتهم . وكانوا يراقبون مجيئنا أو يشتغلون في قضاء مهام مجهولة .

وسقطت ندفة من الجليد على النسيم البارد أو لعلى تخيلت سقوطها ، وإذا شبح صغير ، هو الرجل — الحشرة ، الضامر القد ، يهبط كندفة من الثلج ممسكا بعلالة واقية ، ونازلا بسرعة في اتجاه المناطق القمرية الوسطى

« ورآنى القمرى ذو الرأس الكبيرة الجالس إلى جانبى أحرك رأسى شأن من رأى ما يدور أمامه ، فأشار « بيده » التى تشبه الخرطوم إلى شيء يشبه رصيفاً بحريا يتراءى للنظر في المنطقة البعيدة الغور ، كأنه مرفأ معلق في الفضاء ، وحين صعد هذا الشيء في اتجاهنا تناقصت سرعتنا

تناقصا سريعا ، حتى إنه لم تمض إلا دقائق معدودات ، كما بدا الأمر لنا ، حتى كنا قد اعتليناه ، وقد وقف عن التحرك . ثم ألق إلينا حبل الوساة فأمسكنا به ، وإذا أنا أسحب إلى أسفل حتى أصبح على مستوى أرض تقف عليها جماعة من أهل القمر تتدافع بالمناكب لتراني .

« لقد كان جمعا بعيدا عن التصديق . تباين شاسع بين المخلوقات القمرية فرض نفسه فرضا سريعا عنيفا على" وملك انتباهي .

« وبدا الأمر في الواقع كأنه لم يكن في هذا الحشد المتدافع كله اثنان متشابهان " . فقد كانوا يختلفون في الشكل ، ويختلفون في الحجم ، وقد أحدثوا جميع أنواع التباين الفظيع في تخطيط مبنة المخلوقات القمرية فقد كان البعض منتفخا والبعض الآخر ممدودا ، وكان فريق ثالث يجرى بين أقدام زملائه . وكان جميعهم يومئ" بصورة تجة مفزعة بأنهم حشرات آلت على نفسها ، شكل من الأشكال ، أن تسخر من البشرية ولكنهم بدوا جميعا وكأنهم يمثلون تطرفا يصعب تصديقه لسمة خاصة من السمات فهذا قرى له ذراع يمنى رحبة تبدو كأنها عضو ضخم من أعضاء اللمس أو الإحساس التي للحشرة ، وذلك قرى آخر بدا وكأنه كله ساق واحدة مثبتة في وقفتها على طوالتين (حاملين خشبيين) ، وآخر أبرز حافة قناع وجهه بحيث صنع منه عضوا يشبه الأنف جعله يبدو شكلا بشريا مخيفا لو لم تقع العين على فمه الفاغر الذي لا ينم عن أي تعبير . أما رأس رعاة الوحوش القمرية ، هذه الرأس الغريبة التي هي أقرب الرءوس شبها لرأس الحشرة (لولا انعدام الشدقين والملمسين) فقد مرت عليها في الحقيقة تطورات لا يمكن تصديقها . فهي في واحد

منهم عريضة خفيضة ، وفي آخر طويلة ضيقة ، وثمة ثالث تبرز جبهته الجلدية فتكون قرونا وسمات عجيبة ، وللآخر شارب كشارب القطط ورأس مقسمة ، وآخر يشبه جانب وجهه جانب وجه بشرى مسخ ، وكان تشويه أحدهم ظاهرا بشكل خاص . وكان لبعضهم أغشية دماغية أو جماجم ممدودة كالمثانة بحجم ضخم . وأقنعة وجوهها ذات مقاييس صغيرة جدا . وكانت هناك أشكال عديدة تحار فيها العقول ، لها رءوس متناهية غاية في الصغر وأجسام رخصة رقراقة ، وأشياء خيالية رقيقة ، وجدت كما تبدو ، لتكون أساسا لاجزاء واسعة ممدودة تشبه البوق في القسم السفلي من القناع ، وأغرب شيء رأيته ، كما لاحت الأمور لي في تلك اللحظة ، أن اثنين أو ثلاثة من هذه المخلوقات الناشئة في هذا العالم السفلي ، وهو عالم تقيه من الشمس والمطر أميال من الصخر لا تعداد لها أقول أن اثنين أو ثلاثة منها كانوا يحملون في أيديهم الهدية مظلات تشبه المظلات الأرضية ، وعندئذ مر بخيالي ذلك القمري الذي رأيته يهبط بمظلة واقية .

وكان هؤلاء القمريون يسلكون المسلك ذاته كأي جمع تصادفه ظروف متشابهة ، فقد كانوا يتدافعون بالمناكب ويطرح أحدهم الآخر جانبا ويزيحه من مكانه ، بل إنهم راحوا يتسلقون الواحد الآخر ليتزودوا بنظرة إلى . وكان عددهم يتزايد كل لحظة ، فراحوا يضغطون بشغف على أقراص مراقبي" ، ـ ولم يشرح كافور مدلول هذه العبارة ـ ، وراحت أشكال جديدة تظهر كل لحظة من وسط الظلال ، وتقحم نفسها على" مسترعية انتباهي ودهشتي . وأومئ" إلى بحاذة ، فحملني أربعة من حمالهم ذوي السواعد القوية على أكتافهم ، ووضعوني على شيء يشبه الحفة ،

ثم ساروا بي عند الشفق فوق رءوس هذه الجماهير التي تملأ صوب الغرف التي أعدت لي داخل القمر ، وأحاطت بي العيون والوجوه والأقنعة والأصوات الجلدية التي تشبه حفيف أجنحة الخنافس وحوارًا عاليًا ودقيقًا تشبه صرير صراصير الليل وما أشبه من أصوات المخلوقات القمرية ......

نستنتج من ذلك أنه حمل إلى « غرفة سداسية الشكل » احتجز فيها فترة من الزمن ، ثم منح بعد ذلك قسطًا من الحرية كانت في الحقيقة بالقدر الذي يعطى لرجل في مدينة راقية على الأرض . ويبدو أن ذلك الشخص الغامض « سيد القمر وحاكمه » قد عين له اثنين من القمريين ، لهما رأسان كبيران ، يحرسانه ويفحصانه ويخاطبانه بأية طريقة ذهنية ممكنة وأنه لمن المذهل وغير المصدق كما قد يبدو الأمر ، أن هذين المخلوقين ، هذين الرجلين الحشريين الخياليين ، من مخلوقات عالم غريب ، استطاعا في وقت قصير أن يتخاطبا مع كافور بلغة أرضية .

ويتحدث كافور عنهما فيدعوهما « في ـ أو » و « تس ـ يف » ، ويذكر أن في أو كان يبلغ خمسة أقدام طولا ، وكان له أرجل صغيرة رفيعة يبلغ طولها ١٨ بوصة ، وقدمان صغيران من الطراز القمري الشائع يؤديان بهما جسم صغير يهتز بنبضات قلبه ، وكان لها ذراعان كثيرا المفاصل ينتهيان بمقبض ذي أهداب ، وكانت رقبته مفاصل كثيرة بالطريقة العادية ، ولكنه قصير وغليظ بصورة لا نظير لها . ويقول كافور إن رأسه — وهو على ما يظهر يشير إلى وصف سابق مثل صاحبه السجيل في الفضاء — « وكان من الطراز القمري ، ولكن مع تعديل غريب ، والفم الفتحة العادية التي لا تعبر عن شيء ، ولكنه صغير

بدرجة غير عادية ويتجه إلى أسفل . أما القناع فإنه قد تضاءل إلى أن أصبح في حجم قلابة كبيرة مفلطحة للأنف ، وتقع العينان على الجانبين . أما الأجزاء الأخرى من الرأس فقد انتفخت وصارت في شكل كرة كبيرة . وقد رقت البشرة الجلدية القاسية التي لرعاة الوحوش القمرية فأضحت مجرد غشاء يمكن من خلالها رؤية نبضات الدماغ بوضوح . فهـذا الراعي في الحقيقة كائن له دماغ متضخم تضخمًا مفرطًا يجعله بالنسبة إلى أجزاء جسمه الأخرى قزمًا سواء . كان ذلك نسبيًا أو على وجه الإطلاق .

« وفي فقرة أخرى يقارن كافور منظره من الخلف إلى أطلس وهو يحمل العالم . ويبدو أن « تس ـ يف » مشابه للحشرة جدًا ، ولكن « وجهه » قد مط فاستطال استطالة طينية ، ولما كان تضخم الدماغ في مناطق مختلفة فقد ترتب على ذلك أن رأسه ليست منتفخة بل في شكل الكمثرى مع اتجاه الساق إلى أسفل ، وكان في معية كافور أيضًا حمالون يحملون الحقائب ، ومخلوقات غير متزنة الجانبين لها أكتاف كبيرة ، وأدلاء لهم أجسام العنكبوت ، وخادم يحلس القرفصاء .

وكانت طريقة « في ـ أو » و « تس ـ يف » في معالجة مشكلة الكلام واضحة وضوحًا كافيًا ، فقد دخلا الحجرة السداسية الشكل التي كان كافور محتجزًا فيها ، وبدآ يقلدان كل صوت يحدثه مبتدئين بصوت سعاله ، ويبدو أنه أدرك غرضهما بسرعة كبيرة وأنه بدأ يعيد الكلمات عليهما مع استعمال الإشارة بقصد تعريفهما باستعمالها ، ويرجح أن الطريقة

كانت على هذا المنوال دائماً . فكان « ق ـ أو » يتحدث إلى كافور فترة ثم يشير إلى الشيء ويلتقط الكلمة التي سمعها .

وكانت أول كلمة اتفقنا على لفظه « رجل » والثانية كلمة « قرى » التي استعملها كافور على الفور كما يبدو . لتدل على السلالة القمرية بدلا من اللفظ « مخلوقات قمرية » . وعندما يتأكد « ق ـ أو » من معنى الكلمة ، كان يعيد نطقها على تس ـ بف الذي كان يتذكرها دون أن يخطىء . ولقد أتقنا في جلسة واحدة أكثر من مائة كلمة انجليزية في صورة الاسم .

ويبدو أنهما أحضرا بعد ذلك أحد جهابذة الفن ليساعد على الشرح بالصور والأشكال ، لأن رسوم كافور كانت تكون بدائية . وكان هذا الفنان « مخلوقاً له ذراع نشيطة وعين ثاقبة » كما يقول كافور ويبدو أنه كان يرسم بسرعة لا تصدق .

اما الرسالة الحادية عشرة فقد كانت بلا شك جزءاً من رسالة طويلة ، وبعد كلمات متقطعة لم يكن تسجيلها مفهوما سارت الرسالة كما يلي :

ولكن هذا لا يهم إلا القويين ويعوقني أكثر من اللازم عن الإدلاء بتفاصيل سلسلة الأحاديث التي تناولاها بعزم والتي تؤلف هذه الأقوال بدايتها . وإني لا أشك كثيراً في إمكاني إيراد بيان مرتب صحيح عن التقلصات والتلويات اللسانية التي لجأنا إليها ونحن نحاول فهم أحدنا الآخر . وكانت الأفعال مسألة سهلة ، على الأقل الأفعال المبنية للمعلوم التي استطعت التعبير عنها بالرسم ، وبعض النعوت كانت

سهلة ، ولكننا عندما دخلنا في دراسة الأسماء المعنوية المجردة وحروف الجر والتعبيرات المجازية المبتذلة التي نستخدمها في علمنا الأرضي للتعبير عن أشياء كثيرة ، كنا كمن يغوص وهو يلبس معطفا من الفلين . ولم يتيسر لنا التغلب على هذه الصعوبات إلى أن وصلنا إلى الدرس السادس حين انضم إلينا مساعد رابع ، وكان له رأس في شبه كرة القدم الضخمة وكانت براعته في البحث عن المتشابهات المعقدة . وكان ذهنه مشغولا حين دخل علينا ، فتعثر في كرسي وسقط . كان علينا ان نعرض عليه الصعوبات التي تعترضنا وذلك بقدر كبير من الطنين والضرب والوخز قبل ان تصل إلى مداركه ، ولكنه لا يكاد يدخل في الموضوع حتى يتعمق فيه بدرجة مذهلة ، وكلما دعت الضرورة للتفكير في مجالات لا يستطيع أن يصل إليها « ق ـ أو » رغم أن مقدرته ليست محدودة بأية حال من الأحوال ، لجأوا إلى هذا المخلوق ذي الرأس المستطيلة ، ولكنه كان يطلع تس ـ بف على النتيجة دائما حتى يمكن تذكرها . ذلك لأن تس ـ بف كان ترسانة الحقائق ، وعلى ذلك تقدمنا في دراستنا مرة أخرى .

« وبدا لي الزمن طويلا ، وهو مع ذلك قصير ، فلم تمض إلا أيام حين بدأت التحدث مع حشرات القمر هذه بصورة مؤكدة . كان حديثا في أول الأمر مملا مخيفا بطبيعة الحال ، ولكنه تطور إلى تفاهم دون أن نشعر وكان لصبري حدود ، ولكنه استطاع تخطيها . وكان « ق ـ أو » يقوم بالكلام كله ويفعل ذلك في كثير من التأمل والتجوء إلى الهمهمة احتياطا منه لما يقول وقد عمد إلى استعمال العبارتين « إذا حق لي أن أقول » « اذا كنت تدرك » وقطعهما في عقد كلامه .

« وهكذا يجرى حديثه . وتغيله يصف رسامه فيقول :

« م . . . م . . إنه ، إنا حق لى أن أقول ، إنه يرسم . يأكل قليلا . . . يشرب قليلا . . . ويرسم . يحب الرسم ، ولا شيء غير ذلك . يكره جميع الذين لا يرسمون . يغضب ويكره جميع من يرسمون خيرا منه . يكره معظم الناس . يكره جميع من لا يرون أن العالم كله للرسم . يغضب . م . . . . م . . . . جميع الأشياء لا تعنى شيئاً له ، ماعدا الرسم . إنه يحبك . . . إذا كنت تترك . . . . شيئا جديدا للرسم . . كريه — هذا الخيط . . أليس كذلك ؟ » .

ويتحول نحو تبى — بف ليتابع حديثه : « يجب تذكر الكلمات يجب فى تذكره . ذاكرته أقوى من أى مخلوق سواه . لا يفكر . . . لا يرسم . . . ولكن يتذكر » وهنا لجأ إلى مساعده الموهوب ليمده بالكلمات المطلوبة فقال : « بحرة التواريخ — جميع الأشياء . يسمعها مرة فيذكرها إلى الأبد » .

« هذه الأمور أعجب — فى نظرى — مما كنت أتصور . أن تعود الأشياء ثانية ، أن أسمع فى هذا الظلام الأبدى هذه المخلوقات النبيلة ـ ذلك أن الألفة ذاتها قد عجزت عن إضعاف الأثر الذى يحدثه مظهره غير البشرى وهو يخرج على الدوام صفيرا هو أقرب شيء يطابق كلامنا الأرضى ، ويوجه أسئلة ويدلى بأجوبة . وأشعر بأنى قد رجعت القهقرى إلى عهد الطفولة ، عهد سماع القصص الخرافية ، حين النساقت النملة فى حديث مع الصرصار وقامت النحلة حكما بينهما . . . . » .

وبينما هذه التمرينات سائرة على قدم وساق ، كان كافور ، على ما

يبدو ، قد تمتع بقسط من الحرية فى محبسه ، فهو يقول : « إن تروى وتعقلى فى كل ما أصنع أخذ يمحو باستمرار ما أثرنا فيهم سابقا من رعب والعدام ثقة فى ذلك الصراع النوم ، فيمكننى الآن الرواح والمجيء كما أرغب ، وإن وضعت على أية قيود فلخيرى ، وهكذا استطعت أن أصل إلى هذا الجهاز ودبرت أمر إرسال هذه الرسائل بفضل ذلك الاكتشاف السعيد وسط الأشياء المتراكمة فى هذا المخزن الكهفى الكبير . لم تبد منهم إلى الآن أية محاولة للتدخل فيما أصنع ، رغم أنى أوضحت الأمر « لفى — أو » بصراحة بأنى أرسل إشارات إلى الأرض .

فسألنى وهو يراقبنى : « هل تتحدث مع الآخر ؟ » .

فقلت له : « بل مع الآخرين » .

فعاد يسأل : « الآخرين ، أجل ، الرجال ؟ » .

« ومضيت فى إرسال إشاراتى » .

وكان كافور دائبا على إجراء تصحيحات فى قصته السابقة عن المخلوقات القمرية . كلما انهال عليه فيض الحقائق . وبعده يجرى التعديل فى النتائج التى وصل إليها . لذلك يجب أن نقبل ما سيدلى به من أقوال بقدر من التحفظ . وقد اقتبست هذه الأقوال من رسالته التاسعة والثالثة عشرة والسادسة عشرة . وبرغم أن جميعها أقوال غامضة ناقصة فهى تمدنا فيما يرجح بصورة كاملة للحياة الاجتماعية لهذا المجتمع الغريب بالقدر الذى يأمل البشر الحصول عليه لأجيال كثيرة .

ويقول كافور : « فى القمر يعرف كل مواطن مكانه . فهو يولد لذلك المكان . والنظام الذى يسير عليه فى التدريب والتعليم والجراحة . يؤهله

فى نهاية الأمر لذلك المكان تأهيلا تاما بحيث يصبح فى غنى عن الأفكار والأعضاء لأية أغراض فيما عدا ذلك . ويسأل فى - أو : « وما حاجته إليها ؟ » فإذا قدر لقمرى أن يكون رياضيا مثلا ، يتجه معلموه ومدربوه فوراً صوب ذلك الهدف ويقمعون فيه أى ميل إلى وجهات أخرى ، حال ظهوره ، ويشجعون فيه الميل إلى الرياضيات بمهارة تامة مبنية على علم النفس ، فينمو دماغه أو على الأقل تنمو فيه الملكات الرياضية التى تكون جزءا من دماغه . أما الأجزاء الأخرى فيكون نموها بالقدر الضرورى للاحتفاظ بالجزء الرئيسى منه ناميا ، فتصبح مسرته الوحيدة فى النهاية — فيما عدا الراحة والطعام — تشغيل هذه الملكة وإظهارها ، ويضحى استخدامه لها همه الوحيد ، ولا تلذ له إلا عشرة المتخصصين فى ميدان تخصصه . ويكبر دماغه باستمرار ، على الأقل فى تلك الأجزاء التى لها علاقة بالرياضيات ، فإن هذه الأجزاء تتضخم بلا انقطاع ، وتبدو كأنها تمتص الحياة والقوة جميعها من سائر أجزاء جسمه فتتكمش أطرافه ويضمر قلبه وأعضاء الهضم فيه ، ويتوارى وجهه الحشرى تحت حدود دماغه المتضخم ، ويصبح صوته صريرا للحسب ، للتعبير عن المدلولات الرياضية ، ويبدو أنه يصم أذنه عن كل شىء سوى المسائل المعبر عنها تعبيرا واضحا ، وقد فقد ملكة الضحك إذا استثنينا ضحكه عند اكتشافه مفاجأة إحدى المتناقضات . وهو ينفعل أعمق انفعال عند تطور عملية حسابية جديدة ، فيصل إلى هدفه بهذه الوسيلة :

« والقمرى المعين عليه أن يصبح راعيا الوحوش القمرية يغرى منذ طفولته على أن يفكر ويعيش مثل هذه الوحوش ، ويجد مسرته فى

العلوم الخاصة بها ، ومهارته فى تربيتها ومتابعة حياتها ، ويدرب على أن يكون صلب العود نشيطا وأن تعتاد عينه الملابس الضيقة وتقاسيم الجسم الكثير الزوايا ، وهذا هو ما يكون « الراعى البارع » وأخيرا لا يعير أى اهتمام بمناطق القمر الداخلية ، ويعد أهل القمر أقل منه علما بشئون الوحوش القمرية وينظر إليهم بعدم اكتراث وباحتقار وعداء وتتجه أفكاره كلها إلى مراعى حيواناته ، ولهجته الكلامية إلى إتقان اللغة الفنية الخاصة بالرعاة المتبحرين وهو يحب عمله ، ويؤدى بتشهى النشيط الواجب الذى يجعل لوجوده ما يبرره . وينطبق هــــذا على القمريين وعلى سائر أحوالهم ، ذلك أن كلا منهم وحدة كاملة فى دولاب الحياة العاملية .

« وهؤلاء المخلوقات ذوو الرءوس الكبيرة ، الذين تقع على عاتقهم الأعمال الذهنية يكونون طبقة أرستقراطية فى هذا المجتمع الغريب ، وعلى رأسهم القمرى الأعظم ، خلاصة أهل القمر والمركز العصبى العجيب للقمر ، والذى يجب أن أمثل بين يديه . وقد أمكن حدوث هذا التطور غير المحدود فى عقل الطبقة المفكرة بسبب انعدام وجود جمجمة عظمية فى علم التشريح القمرى ، ذلك الغلاف العظمى الغريب الذى يُطبق على الدماغ المتطور الإنسانى فى إصرار آمراً إياه ألا تتعدى إمكانياته حدود تلك الجمجمة . وتنقسم هذه الفئة الارستقراطية إلى ثلاث طبقات تختلف اختلافا عظيما فيما بينها من حيث النفوذ والاحترام . فهناك الإداريون ومنهم « فى - أو » وهم قريبون على قسط كبير من الأصالة والاطلاع ، يعد كل واحد منهم مسئولا عن قطاع معين من كتلة القمر .

وهناك الخبراء أمثال ذلك المفكر ذى الرأس المستديرة التى تشبه كرة القدم ، ويدربون على أداء أعمال معينة ، وهناك المثقفون مستودعات المعارف جميعا ، ولهذه الفئة ينتمى «تبى – بف» أول أستاذ قرأ لغات الأرض . ونلاحظ عن هذه الفئة أمراً صغيرا غريباً وهو أن تطور الدماغ القمرى قد أغناهم عن اختراع جميع المعينات الآلية التى تساعد الدماغ على العمل ، وهى المعينات التى تميزت بها أعمال الإنسان . فليس لديهم كتب أو سجلات من أى نوع ولا مكتبات أو نقوش ذلك أن جميع المعارف تختزن فى أدمغتهم المتضخمة كما يختزن نحل العسل الذى يعيش فى ولاية تكساس العسل فى جوفه المتضخم . فبالنسبة لأهل القمر تقوم مجموعات من الأدمغة القمرية الحية مقام دار سمرست* ومكتبة المتحف البريطانى . . . . . .

• وألاحظ أن الإداريين من غير المختصين يبدون اهتماما قويا بى فى معظم الأوقات كلما قابلونى ، فهم يتجهون نحوى وإن لم يكن طريقهم طريقى ويحدقون النظر فى ، ثم يوجهون إلى أسئلة يجيبهم عليها «فى – أو» ، وأرى أن البعض يتحولون وفى معيتهم حالون وأتباع ومشاتون وحاملو المظلات الواقية ، إلى غير ذلك ، وهم جماعة غريبة المنظر . أما الخبراء فإنهم فى معظم الأوقات يتجاهلوننى ، كما يتجاهل بعضهم البعض الآخر وإذا أبدوا اهتماماً فلكى يعرضون على فى وضوح مهاراتهم الخاصة . فأما المثقفون فهم مستغرقون فى حالة من الرضا التنبع المشلول . لا يستطيع

---

* مكتبة Somerset House

أن يفيقهم منها إلا إنكارهم الثقافتهم . ويتحول معهم فى العادة حراس صغار الأجسام وأتباع ومخلوقات يبدو عليها النشاط ، من الإناث عادة ، يغلب على الظن أنها زوجاتهم . ولكن هناك طبقة من العلماء المتعمقين فى المعرفة هم أعظم شأناً من أن يتنقلوا . ولذلك يحملون من مكان إلى مكان فى شىء يشبه الحفة . هؤلاء العلماء ذوو الأجسام الفالوذجية الرقراقة يثيرون دهشتى مشفوعة باحترامى . مررت بواحد منهم فى طريقى إلى هذا المكان الذى يسمح لى فيه بأن ألهو بهذه اللعب الكهربائية وكان مخلوقاً ذا رأس مرتجة واسعة حليقة . كان أصلع رقيق البشرة ، وكان محمولا على محفة السمحة ، وكان حالوه يسيرون أمامه وخلفه ، ومعهم بعض مروجى الأنباء ذوى وجوه غريبة تشبه الأبواق ، وكانوا يصرخون مذيعين شهرته .

• لقد ذكرت قبلا البطانة التى ترافق معظم رجال الفحص : الحجاب والحالون والخدم الأخصاء وكأنهم أهداب طارئة وعضلات ، وكأنهم وجدوا لتستعيض بهم هذه الرءوس المتضخمة عن قواها الجسدية الغقيمة . والحالون يرافقونهم فى جميع الظروف تقريبا . وهناك سعاة يجتازون بسرعة متناهيـــة ، لهم أرجل كأرجل العنكبوت ، وأيد ، يمسكون بها المظلات الواقية . وهناك أيضا أتباع لهم أعضاء صوتية تكاد تقدر على إيقاظ الموتى ، وإذا استثنينا ما يسيطر على هؤلاء الأتباع من ذكاء وجدناهم فى جمود وعجز المظلات فى مشاجبها ، فهم لا وجود لهم إلا فيما له علاقة بالأوامر التى عليهم إطاعتها والواجبات التى يلتزمون بتأديتها .

• على أن غالبية هذه الحشرات التي تغدو وتروح على الطرقات اللولبية، والتي تملأ المتاشيد الهابطة، هذه المخلوقات التي تزل بالقرب مني ممسكة بالمظلات الواقية، هي الطبقة العاملة، كما أستنتج أن بعضها في الحقيقة، أيد آلية، بطبيعتها الحقيقية — وأنا لا أستعمل هذه العبارة مجازيا فإن هذا الملس أو المنسب الوحيد الذي لرعاة الوحوش القمرية قد عدل تعديلا دقيقا ليصلح للقبض والرفع والقيادة أما بقية الأعضاء التي لأجسامهم فما هي إلا زوائد ثانوية ضرورية لتلك الأجزاء الرئيسية. وذلك البعض الذي ينحصر عمله في غني، في الآلة التي تضرب الجرس قد نشأت له أعضاء سمعية تطورت تطورا هائلا. والذين يشتغلون في العمليات الكيمائية الدقيقة قد برز عندهم عضو الشم متسع والآخرون منهم أقدام منبطحة يستخدمونها بمثابة دواسات مزودة بمفاصل صلبة مشدودة، وهناك غيرهم يشتغلون بصناعة الزجاج كما قيل لي، يبدو الواحد منهم كمنفاخ الرئة. على أن كل واحد من هذه المخلوقات القمرية العادية التي شاهدتها وهي تعمل قد تكيف جسمه تكيفا دائما للحاجة الاجتماعية التي يوجهها. فالفنون الدقيقة يؤديها صناع استدقت أجسامهم وأصبحوا أقزاما حسني المنظر والترتيب بصورة مدهشة، وبعضهم من الصغر بحيث استطعت أن أوقف الواحد منهم على راحة يدي. وتجد بينهم حتى الذي يدير دولاب الآلات وهو قزم يتادى عمله الوحيد وسروره الأوحد إمداد الآلات الصغيرة أما أشد المخلوقات القمرية عقلا فهي نوع من الشرطة القمرية، ووظيفتها السيطرة على جميع هذه الأشياء وردع أي ميل للانحراف عن الصواب

قد يبدر من بعض النفوس الضالة وقد دربت هذه الجماعات بلا شك منذ السنوات الأولى على أن تكن الاحترام التام لذوي الرؤوس المتضخمة وتقدم لهم الطاعة.

• أما إعداد هذه الفئات العاملة المختلفة فلابد أن يكون عملية غريبة شيقة، ولا زلت أجهلها جهلا تاما، ولكني التقيت منذ عهد قريب بعدد من القمريين الصغار، وقد حبسوا داخل جرار لم يظهر منها سوى أطرافهم الأمامية، وكانت تجرى عليهم عملية كبس ليصبحوا حراسا للآلات من نوع خاص. وفي هذا النظام من التعليم الفني الراقي رقيا عاليا، تغذى هذه «اليد» المديدة بالمنبهات والحقن بينما يترك سائر الجسم جائعا، وقد بين لي فـ— أو، إلا إذا كنت قد أسأت فهمه، أن هذه المخلوقات العجيبة التعيسة عرضة في مراحل حياتها الأولى لظهور أعراض ألم في ظروف نموها المختلفة ولكنها تعتاد بسهولة على قبول ما قسم لها، وقادني إلى المكان الذي تجرى فيه عملية إخراج عدد من هؤلاء السعاة ذوي الأطراف المرنة من الجرار وحشرهم فيها. إنه لأمر غير معقول، وأنا أعلم ذلك، ولكن هذه اللمحات في وسائل تعليم هذه الكائنات قد تركت في أثرا بغيضا، على أني أرجو أن يذهب عني هذا الخاطر وأن أستطيع رؤية صور أخرى من حياتهم الاجتماعية العجيبة. وبدت تلك اليد الهدبية البائسة المنظر وهي تبرز من جرتها وكأنها دعوة عرجاء لإمكانيات ضائعة. إنها لا زالت تعذبني، رغم أنها بالطبع تنطوي في نهاية الأمر على روح إنسانية أفضل من طريقتنا

الأرضية وعن ترك الأطفال ينمون ويصبحون كائنات بشرية تحيلها بعد ذلك إلى آلات .

« وقد حدث منذ عهد قريب أيضا . وأظنه عند زيارتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة لذلك الجهاز ، أن وضح شيء غريب من حياة هذه الطبقات العاملة ، فقد جيء بي إلى هذا المكان من طريق قصيرة بدلا من النزول على الطريق الأولية ومن طريق أرصفة البحر الأوسط فبعد أن سرنا فى طريق ملتوية مضاءة خرجنا إلى مغارة متسعة منخفضة تفوح فيها رائحة أرضية ، وكانت مضاءة بنور لامع شأن جميع الأشياء فى هذا الظلام ، وكان هذا الضوء ينبع من نباتات متكاثفة ذات زرقة داكنة ، لها أشكال الفطر وكان بعضها يشبه الغراب الأرضى شبها غريبا ، ولكن طوله يصل إلى قامة الإنسان أو يزيد .

وسألت فى — أو : « هل يأكل القمريون هذا ؟ » .

فقال : « أجل ، إنه طعام » .

قلت : « ويحى ، وما هذا ؟ » .

ذلك أن عينى كانتا قد وقعتا ، على مخلوق قمرى طويل ، بصورة لانظير لها ، مخلوق كبير سمج ملق على وجهه بين سيقان النبات فوقفنا وسألته : « أهو ميت ؟ » (ذلك أنى لم أكن قد رأيت بعد أمواتا على القمر ، والأمر الذى زاد فضولى)

فقال فى — أو : « كلا ، انه عامل لاعمل له ، تعاطى قليلا من المسكر فنام ، إلى أن نحتاج إليه . أى خير فى إيقاظه ؟ لانريده أن يتسكع فى الطرقات » .

وصحت : « هنا واحد آخر ! » .

والحقيقة أن أرض الفطر الواسعة كانت ، قد تناثرت على جميعها هذه الأشباح النائمة على وجوهها ، تحت تأثير المخدر ، إلى أن يحتاج القمر إليهم كان منهم عشرات من جميع الأنواع ، واستطعنا أن نقلب بعضهم على ظهره ونفحصهم بدقة لم تتيسر لى فيما مضى ، وكانوا وأنا أفعل ذلك يتنفسون بضوضاء ، ولكنهم لم يستيقظوا . وأذكر أحدهم بوضوح تام ، فقد انطبع شكله فى انطباعا قويا ، كما أظن ، ذلك أن الضوء الذى كان واقعـــا عليه والوضع الذى كان هو فيه أوحيا إلى بصورة قوية أنه شبح بشرى ممدد : كانت أطرافه الأمامية طويلة — أهداب رقيقة — فقد كان نوعا رقيعا من المخلوقات التى تشتغل بأيديها وكان الوضع الذى نام فيه يوحى بآلام مضنية ، وقد أخطأت بلا شك فى تفسير التعبير الذى نم عنه وضعه فى تلك الصورة ، ولكنى فسرته على أية حال . وحين قلبه « فى — أو » فى الظلام بين الأجسام السمجة مرة أخرى ، انتابنى شعور كريه واضح ، رغم أن الجانب الحشرى منه نم عنه وهو ينقلب على الأرض .

ويوضح هذا الحادث الطريقة العشوائية التى يكتسب فيها الإنسان

عادات الشعور . فتحذيرك العامل الذي لا تريده ثم طردك إياه جانبا لخير جدا من طرده من مصنعه ليتضور جوعا في الطرقات . ففي كل مجتمع معقد هناك بحكم الضرورة وظائف متداخلة بجميع أنواع التخصص في الأعمال . وبهذه الوسيلة يتوقعون دائما حدوث إضراب من جراء مشكلة « البطالة » . ومع ذلك فحتى العقول المدربة تدريبا عليا غير معقولة . ولا زلت على كراهيتي لتلك الأشباح الملقاة على الأرض بين الأروقة المضيئة الهادئة التي يؤلفها ذلك النبات اللحمي . ولذلك أتحاشى ذلك الطريق القصير بالرغم من المتاعب التي ألاقيها في الطرق الطويلة الأخرى التي تعج بالضوضاء والزحام .

« وتطوف بي هذه الطرق الأخرى حول مغارة ضخمة مظللة ، وهي طريق مزدحمة كثيرة الضوضاء . أرى فيها أمهات العالم القمري وكأنهن مشكلات النحل في الخلية عند ما يطللن من الفتحات السداسية الشكل فيما يشبه جدران الشمع في الخلية ، أو يتمشين في ساحة فسيحة خلف خليتين أو يتلقين لبنا وطعاما ، ضمنها لجلب السرور لهن صاغة ذوو أهداب رقيقة يعملون في أوجرة سفلية . وهناك مخلوقات عليهن سيماء النبل وقد تزين على غرية تمتاز بالجمال أحيانا . يمشين مشية العظمة ، ولهن رءوس صغيرة مستدقة ، ما عدا أفواهها .

« لم يتيسر لي الوقوف على الشيء الكثير فيما يتعلق بالمسائل الجنسية بين أهل القمر من حيث الزواج والتزويج والولادة وما إليها وسوف

يحتمل جهل بلا شك باطراد تقدم في — أو في . تعلم اللغة الانجليزية وفي اعتقادي أن بين أفراد هذا المجتمع القمري أغلبية عظمى من المخلوقات الخنثى ، التي ليست بالذكر ولا الأنثى ، شأنها في ذلك شأن عالم النمل والنحل ، وفي مدننا الأرضية عدد كبير بطبيعة الحال ممن لا يحيون حياة الآباء والأمهات ، تلك الحياة الطبيعية التي درج عليها الإنسان أما في القمر ، كما هو الحال بين النمل ، فقد أصبحت هذه الحالة عادية بالنسبة للجنس البشري . ويشغل مكانهم في تحمل العبء كله بحكم الضرورة عدد من الأمهات المتخصصات ، عدد ليس بالكبير على أية حال . وهن مخلوقات ضخمات عليهن مظاهر العظمة ، قد أعددن إعدادا جميلا لحمل اليرقات القمرية . ولكنهن في عجز مطلق من رعاية الصغار الذين يأتين بهم إلى القمر ، هذا إذا لم أخطئ ، فهم تفسير في — أو . فهناك من الحنو الأحمق تتناوبها حالات قاسية تتميز بالشدة والاعتداء . ولا يمضي وقت طويل حتى تنتقل رعاية هذه المخلوقات الصغيرة ، وهي لا تزال غضة الإهاب رخوة شاحبة اللون ، إلى نساء غير متزوجات ، من على ما يبدو . العاملات اللائي يكون لهن في بعض الحالات أدمغة تكاد تضاهي حجم أدمغة الذكور » .

وعند هذه العبارة بالذات انقطعت الرسالة لسوء الخط . ورغم مادة هذا الفصل مرهقة ناقصة ، فهي تشعرنا بهذا العالم الغريب المدهش بصورة مريضة غامضة ، عالم قد يحتم على عالمنا أن يعمل له حسابا ، وإن كنا لا ندري السرعة التي سوف يتم فيها ذلك . وما هذه الرسائل

المتقطعة المتقاطرة وهذا التهامس الذى تسجله لنا إبرة الجهاز وسط سكون المنحدرات الجبلية ، إلا الإنذار الأول الذى ينبئنا بالتغيير الطارئ على أحوالنا البشرية بصورة قلما تخيلناها قبل اليوم . فى هذا الكوكب التابع لأرضنا عناصر جديدة ، وآلات جديدة ، وتقاليد جديدة وتيارات جارفة من الأفكار الجديدة ، وشعب غريب سوف يتحتم علينا بلا شك أن نكافح معه لأجل السيطرة حيث الذهب يعم كما يعم الحديد أو الخشب......

القمرى الأعظم

تصف الرسالة قبل الأخيرة المقابلة التى تمت بين كافور والقمرى الأعظم حاكم القمر وسيده ، وصفا يتطرق بعض نواحيه بالتفصيل الدقيق ، ويبدو أن كافور أرسل معظمها دون تدخل منهم ، ولكنه لق مضايقة فى الجزء الأخير منها وهو الجزء الذى وصل إلى أيدينا بعد مرور أسبوع على الرسالة التى قبله .

وتبدأ الرسالة الأولى بهذه العبارة : « وهاأنذا أخيرا أتمكن من متابعة هذه — » ثم قطعت مرحلة منها فى كلام لا يقرأ ، وأخيرا تبدأ من نصف الجملة ، ولعل الكلمة الناقصة فى الجملة التالية هى كلمة « الزحام » التى يبدأ الكلام بعدها واضحا : ازداد عند اقترابنا من قصر القمرى الأعظم إذا حق لى أن أسمى هذه السلسلة من الحفائر قصرا . وكانت الوجوه تحدق فى من جميع الجهات ، وهى نقرات وقناعات غامضة صلبة ، عيون تطل من فوق أنوف ضخمة ، وعيون تحت جبهات كالألواح ، وثمة مخلوقات قميئة تراوغ وتتبع ، ووجوه فى شكل خوذات ترتكز فوق رقاب ملتوية طويلة المفاصل ممدودة فوق الأكتاف وتحت الآباط . وكان يحيط بى على بعد منسحب ، نطاق من الحراس الغلاظ لهم رءوس

كالأدلاء ، انضمو إلينا عند مغادرتنا للسفينة التي أبحرنا عليها فوق معابر البحر الأوسط . وانضم إلينا أيضا ذلك الرسام ذو النظرة السريعة والدماغ الصغير . وسارت معنا شرذمة من الخالين الحشرات النحاف وهم ينوءون بعبء عدد من لوازم الراحة التي عدوها ضرورية لرجل في مركزي . وفي المرحلة الأخيرة من رحلتي كنت أحمل على محفة مصنوعة من معدن مطاوع بدا أمامي قاتم اللون مشوها كشبكة وكانت المحفة مزودة بقضبان من معدن يقل عن ذاك قتاما . واجتمع حول أثناء سيرى موكب طويل معقد .

• كان يتقدم موكبي طبقا لنظام المواكب التي يسير أمامها المنادون أربعة مخلوقات لها وجوه كالأبواق أخذت تردد نشيدا قاصفا ، وتبعهم من قدام ومن خلف حجاب غلاظ يسيرون بخطوات حازمة ، تحيط بجانبيهم كوكبة من الرءوس المثقفة هي أشبه بالموسوعات المتحركة . كان عليها أن تحف بالقمرى الأعظم لتكون بمثابة مراجع يركن إليها (إذ لا يمكن أن توجد مادة في العلوم القمرية أو وجهة النظر أو طريقة للتفكير إلا وحملتها هذه الفئة المدهشة في رءوسها) وسار بعد ذلك الحراس والخالون يتبعهم في ... أو ، برأسه المرتعشة محمولا هو أيضا على محفة ، ثم تبعته أنا مرفوعا على محفة فاخرة تفوق على طماعي وثرائي ، وجاء بعد هؤلاء منادون آخرون تكاد الآذان تتمزق من عنف الصياح الذي ينطلق من حناجرهم ، وسارت وراءهم عدة أدمغة كبيرة تستطيع أن تسمى أصحابها مراسلين خصوصيين أو مؤرخين ، مكلفين بملاحظة وتذكر كل كبيرة وصغيرة مما يجرى في هذه المقابلة التاريخية وكانت

تلوح في المؤخرة جماعة من الأتباع يحملون البيارق ويحرونها ، ومنها كتل من القطر ذي الأريج ، وشارات غريبة ، واصطف في الطريق حجاب وموظفون في معداتهم التي كانت تلمع كالصلب ، وتبعت صفوفهم جماهير غفيرة لاحت رءوسها إلى المدى البعيد الذي استطاعت عيني اختراقه وسط الظلام .

• وأعترف بأني مازلت غير قادر البتة على تحمل الأثر الذي تركته في مناظر هذه المخلوقات القمرية ، ولم أستطع رؤية نفسي تخترق أمواج هذا البحر الخضم من الحشرات المتلهفة ، ووقع لي فترة من الوقت ما يخيل إلى أن الناس يعتورة عندما يتحدثون عن الأمور المرعبة . فقد سبق أن حدث لي ذلك في الأغوار القمرية عندما وجدت نفسي في إحدى المرات أعزل من السلاح لايحمى شيء ظهرى ، وسط جماعة من القمريين . ولكن لم يكن فزعي في ذلك الوقت بهذه القوة . وهو بطبيعة الحال إحساس لايمت قطعا إلى أي منطق كأي إحساس يحس به الإنسان ، وآمل أن أتغلب عليه شيئا فشيئا ولكن لازمني هذا الشعور لحظة حين اندفعت إلى الأمام وسط حماة هذا الجمع الغفير . ولم أنجح في كبت نفسي عن الصراخ أو إظهار نفسي بما يشبه هذا المظهر إلا بعد أن شددت قبضتي على محفتي واستعنت بكل مالدى من قوة إرادة . لم يدم هذا الشعور إلا نحو ثلاث دقائق استعدت بعدها رباطة جـأشي .

• وصعـدنا في الطريق اللولبي الصعودي بعض الوقت ثم مررنا بسلسلة من القاعات الضخمة لها قباب في سقوفها وبها زخارف بديعة

وجرت بالتأكيد اتصالات لمقابلة القمرى الأعظم تغرس فى النفس شعوراً قويا بعظمته . وبدت كل مغارة دخلناها أعظم من سابقتها وأكثر نقوشا منها ، وقد زاد تأثير هذا الاتساع المتزايد انتشار سحابة رقيقة من البخور ذات بريق أزرق ضعيف كانت تزداد كثافة كلما تقدمنا وحجبت عنا رؤية الأشباح الغريبة ذاتها بوضوح ، وخيل إلى أنى أنتقل بلا انقطاع إلى أمكنة أكثر اتساعا وأشد ظلاما وأقل مادية .

« ويجب أن أعترف أن هذا الجمع كله أشعرنى برثاثتى وعدم جدارتى المتناهيتين ، فقد كنت طويل اللحية أشعث الشعر ، لأنى لم أكن قد اشتريت موسى الحلاقة ولذلك وصلت لحيتى الكثة إلى أعلى فمى . كنت على الأرض أميل دائما إلى الازدراء بأى اهتمام يوجه إلى شخص يتعدى الاهتمام الصحيح بالنظافة أما وأنا تحت الظروف الاستثنائية التى وجدت نفسى فيها ، وأنا أمثل ، كما هو الواقع ، كوكبى وجنسى ، معتمدا اعتمادا كبيرا على الجاذبية أستمدها من مظهرى وترتب عليها حسن استقبال ، فقد كنت مستعدا لأعطى كثيرا فى مقابل شىء قليل من الفن والوقار يفوق القشور التى كنت ألبسها . لقد كنت مطمئنا ، اعتقادا منى أن القمر خلو من السكان ، لدرجة أنى تغاضيت تغاضيا تاما عن مثل هذه الاحتياطات . والحقيقة أنى كنت ألبس سترة قطنية وسروالا قصيرا وجوارب الجولف ملوثة بكل ما استطاع القمر أن يقدمه لى من أوساخ وبابوجاً (شبشب) سقط كعبه الأيسر ، وبطانية ، كنت أدخل رأسى فى أحد ثقوبها ، (ولا زلت أرتدى هذه

الملابس ذاتها) . وتلك الشعرات الخادة التى تكسو وجهى لا يمكن أن تكون تحسينا فى ترتيب ملامحى ، وكان على ركبة سروالى خرق ظاهر وأنا جالس القرفصاء فى عنقى ، وأصر جورى الأيمن على أن يلتف حول كعبى . إنى مدرك تماما للغبن الواقع على الإنسانية بسبب مظهرى ولو أنى استطعت أن أستنبط على الفور شيئاً يأخذ بمجامع القلوب وإن كان غريباً عن المألوف لفعلت ، ولكن لم يخطر شىء من ذلك ببالى . فاستعنت ببطانيتى بقدر ما تهيأت لى الاستعانة ، ملتفعا بها كأنها حلة ، أما فيما عدا ذلك فقد جلست فى عنقى جلسة مستقيمة بقدر ما سمح لى تحركها .

تخيل أكبر قاعة دخلتها فى حياتك ، وقد أضيئت إضاءة سيئة بالضوء الأزرق ، وبسط عليها الضباب الأزرق الأغبر سترا من الظلام . تخيلها وهى تعج بمخلوقات ذات ألوان صفراء أو زرقاء رصاصية ، ومتنوعة تنوعا جنونيا كما أشرت آنفا . تخيل هذه القاعة وهى تنتهى بطريق مقوس مكشوف يؤدى إلى قاعة أكبر منها ، ووراء هذه ثالثة أكثر اتساعا من سابقتها ، وهكذا فصاعدا . وترى فى نهاية هذا المشهد مجموعة من الدرج تبدو فى غير وضوح وتصعد كمدرج آراكولى فى روما ، إلى أن تغيب عن النظر ، وكلما اقترب الإنسان من قاعدة هذا الدرج بدا له كأن درجاته تصعد من عال إلى أعلى . على أنى وصلت فى النهاية إلى طريق مقوس ضخم ، رأيت من تحته قمة هذا الدرج ، وعليه القمرى الأعظم جالس فى مقام رفيع على عرشه .

« وكان يجلس فيما يمكن أن يسمى لنفيا وهجا أزرق متأججاً نما

يوحى — بالإضافة إلى الظلام المحيط به — أنه يسبح فى فراغ أسود مزرق ، وكان لأول وهلة يظهر كسحابة معتمة بذاتها ، وهو جالس على عرشه القائم مستغرقا فى التفكير ، ولابد أن قطر غلاف دماغه كان يبلغ عدة ياردات طولا ، والسبب لم أستطع أن أصل إلى كنهه كان ينبع من خلف العرش الذى يجلس عليه عدد من الأضواء الكثافة الزرقاء فضلا عن هالة كانت تحيط به مباشرة ، وكان يقوم على رعايته وخدمته نفر من الخدم الأخصاء ، الصغار الأجسام ، لم تتضح رؤيتهم وسط ذلك الوهج . أما أتباعه من ذوى الذهن والذاكرة حسابوه ورعاته وخدامه ، وسائر مشاهير الحشرات فى البلاط القمرى ، فقد كانوا يقفون تحت عرشه وقد حجبهم ظله ، وكان يقف تحت هؤلاء الحجاب والسعاة ثم الحراس وكانوا مصطفين على عتبات الدرج التى لا نهاية لها ، من أعلاها إلى أسفلها . واجتمع عند قاعدة الدرج جمهور غفير عجاج من أشراف القمر الذين يأتون فى المرتبة الثانية ، وكانوا من فئات متنوعة غير متميزة ، تتلاشى أعدادها وسط القتام الماحق . كانت الهمسات السحيقة تنطلق من أقدامهم وهى لا تفتأ تحتك بالأرض الصخرية ، فضلا عن حفيف أرجلهم وأذرعهم وهم يحركونها .

« وعزفت الموسيقى عند دخول القاعة قبل الأخيرة ، وتطورت إلى لحن ملكى عظيم ، تلاشت عنده صياحات مروجى الأنباء . . .

ودخلت القاعة الأخيرة ، أعظم القاعات جميعا . . . .

وابتدأ موكبى فى شكل مروحة ، فكان حجابى وحراسى عن يمينى

وعن يسارى وسارت العفات الثلاث التى تحملنى وتحمل فى سأى ، وهتى يقف ، وفوق أرض مظلمة لامعة تعترض قاعدة الدرج العظيم . وانطلقت بعد ذلك طلقات جياشة مضطربة اختلطت بأنغام الموسيقى . وترجل القمريان من تحتيهما . أما أنا فقد أمرت بأن أظل جالسا ، تكريما خاصا لى كما خيل إلى ثم وقفت الموسيقى ولكن الطنين ظل مستمرا . وبحركة صدرت فى وقت واحد من عشرة آلاف من الرءوس الموقرة ، تحول القياس إلى العقل السامى الذى كان يشرف على من الهالة المحيطة به .

وحين نظرت لأول وهلة إلى الوهج المشع بدا لى هذا العقل الجوهر كثير الشبه بمثانة معتمة لا حجم لها ، تحتوى على أشباح متماوجة من التلافيف ترى وهى تتلوى داخلها . والتفتت وأنا أشاهد عينيه الشقيقتين كأنها عيون الجن تطلان من وسط الوهج ، وقد بدتا تحت تلك المثانة الضخمة وفوق حافة العرش تماما . لم يكن ثمة وجه بل عينان تطلان من تقبين . ولم أستطع لأول وهلة أن أتبين شيئا سوى هاتين العينين المطلتين ولكنى بعد ذلك استطعت أن أميز تحتهما الجسم القصير منكمشا فى بياض ، والأطراف التى لها مفاصل الحشرات . وراحت العينان تحدقان فى بشدة غريبة ، فتحدت الجزء السفلى من الكرة المتنفخة وعندئذ بدت اليديتان الصغيرتان اللتان لم يكن لنظرهما أى شأن ، إلى تثبيت جسمه على العرش .

وكان منظره عظيما . وكان أيضا داعيا للحسرة . إن الإنسان لينسى القاعة وجمهور الشعب .

« وصعدت الدرج بخطوات مرتعشة وبدا لي كأن غلاف هذا الدماغ المتوهج توهجاً قاتماً فوق رءوسنا ، قد انبسط فوق واستمد شيئاً فشيئاً تأثير هذا الموقف لنفسه ، كلما اقتربت منه . وبدت طبقات الأشباح المتشحة حول سيقها وكأنها تتضاءل وتتلاشى وسط الليل ، ورأيت أشباح الخدم مشغولين برش ذلك الدماغ الكبير برشاش مبرد وبالزيت عليه ورعايته . أما أنا فكنت جالساً ممسكاً بمحفتي المتحركة ، أنظر إلى القمري الأعظم ، عاجز عن تحويل نظراتي عنه ، ووصلت في النهاية إلى عتبة صغيرة للدرج تفصلها عشر درجات عن الكرسي السامي . فوصلت أنغام الموسيقى إلى أوج روعتها ثم وقفت ، فتركت في ذلك التيه الفسيح كأني عريان تحت عيني القمري الأعظم الحادتين الفاحصتين .

« كان يفحص أول رجل وقعت عليه عيناه . . . . »

وفارقته عيناي ، ونزلت من تلك العظمة إلى الأشباح الناحلة البادية في السحابة الزرقاء المحيطة به ، ومن ثم هبطت الدرج إلى كتل المخلوقات القمرية التي تجمعت بالألوف على الأرض السفلى في صمت وانتظار : وجب الرعب إلى قلبي مرة ثانية ولكنه تولى عني .

وجاء دور التحية بعد ذلك الانتظار . فأعانوني النزول من محفتي ووقفت مرتبكاً بينما أخذ موظفان مديداً القامة يأتيان بحركات غريبة وبلا شك رمزية ، نيابة عن سيد القمر . ووقفت جماعة موسوعة المعارف التي كانت قد رافقتني إلى نهاية القاعة الأخيرة على بعد درجتين

مني ، وعن يميني ويساري اثنتين ، حاجة القمري الأعظم ، ووضع « فيــأو » وملقه الشاحب في منتصف الطريق بيني وبين العرش بحيث يستطيع المخاطب بينتاه دون أن يدير ظهره إلى القمري الأعظم أو إليّ أما « تيــ يف » فقد وقف خلفه ، ووقف حجاب مهرة جنباً إلى جنب في مواجهتي وبحيث تتجه وجوههم إلى الحضرة القمرية . وجلست القرفصاء ، وركع « فيــأو » و « تيــ يف » كذلك في مكان يرتفع عن مكاني . وحلت فترة انتظار تحولت بعدها أعين البطانة القريبة مني إلى القمري الأعظم ثم ارتدت إلى ثانية وصدرت أصوات الطنين والصفير من الجماهير الخافية عن النظر في أسفل الدرج مترقبة ، منتظرة ثم هدأت .

« ووقفنا ذلك الطنين » .

وسكن القمر ، وكانت هذه أول مرة وآخر مرة في حياتي أراه كذلك .

« ثم أحسست بأزيز خافت : لقد كان القمري الأعظم يخاطبني ، وانطلق صوته كنقر أصبع فوق لوح من الزجاج » .

« ورحت أراقبه لحظة ، ومن ثم ألقيت نظرة خاطفة على « فيــأو » اليقظ وشعرت وسط هذه المخلوقات النحيلة بأني سمين ، لحيم ، ملء الجسم بشكل يدعو إلى السخرية ، ورأسي كلعقك وشعر أسود ، وارتدت عيناي إلى القمري الأعظم . لقد سكت عن الكلام وراح أتباعه يعملون فقد كان سطح جسمه يلمع ويجري عليه الرشاش المبرد » .

« ورداح دق ـ أو » فى تأمل دام برهة . وجرت مشاورة بينه وبين « تس ـ يف » ثم بدأ يصفر بالتجاريته التى تعلمها ، وكان فى أول الأمر متوتر الأعصاب ولذلك لم يكن كلامه واضحا .

« م ... م ... يود القمرى الأعظم أن يقول ـ يود أن يقول .. لقد استنتج أنكم ـ م ... م رجال ـ إنك رجل من كوكب الأرض ـ يود أن يقول إنه يرحب بك ـ ويود أن يعرف ـ إذا حق لى استعمال الكلمة ـ أحوال عالمك ، وسبب مجيئك إلى هذا العالم » .

« وسكت لحظة ، وكنت على وشك الإجابة حين تابع حديثه . وانتقل إلى بيانات لم تتضح وجهتها ، على أنى أميل إلى الظن بأنها كانت مجاملات . قال لى إن العلاقة بين الأرض والقمر كالعلاقة بين الشمس والأرض وإن أهل القمر يرغبون بشدة معرفة شىء عن الأرض والناس . وكلنى أيضا بروح المجاملة دون شك عن مغنطيسية القمر وقطره وعن الدهشة والتفكير الدائبين اللذين قابل بهما أهل القمر كوكبنا . وتأملت مليا وأنا مطرق برأسى ، وقر رأيى أن أجيب بأن أهل الأرض أيضا يتساءلون عما فى القمر ، وأنهم حكموا بأنه ميت لا ينبض بالأبهة التى رأيتها فيه ذلك اليوم . وقدم القمرى الأعظم عربون عرفانه بماشعرت بأن جعل أشعة الزرقاء المديدة تدور بطريقة محيرة . فانطلقت أصوات جميع الذين فى القاعة الكبرى صفيرا وهمسا وحفيفا بمدلول الكلام الذى فهت به وعمد بعد ذلك إلى توجيه بعض الأسئلة إلى « دق ـ أو » فكانت الإجابة عليها أسهل منها .

« قال إنه عرف أننا نسكن على سطح الأرض ، وأن هواءنا وبحارنا تقع خارج الكرة ، وقد عرف هذه الحقيقة الأخيرة من المختصين بدراسة الفلك التابعين له . إنه يتوق إلى معرفة تفاصيل أخرى عما أطلق عليه « هذه الأحوال الغريبة » فقد كانوا يميلون إلى الظن دائماً بأن الأرض لا يعيش عليها أحد ، لأنها صلبة غير مجوفة ، وحاول أول كل شىء أن يتأكد من درجات الحرارة القصوى التى يتعرض لها أهل الأرض ، واهتم أشد الاهتمام بشرحى لطريقة معالجتنا للأمطار والسحاب ، وقد استعان فى تصوراته بحالة الجو القمرى فى الأروقة الخارجية أثناء الليل من أنها كثيراً ما تكون شديدة الضباب ، وكان ميالا إلى أن يدهش ، كما يبدو ، من أننا لا نجد ضوء الشمس قويا على عيوننا وأعجبه محاولتى تفسير ذلك بأن السماء تخفف من حدة ضوئها بالزرقة الخفيفة التى تكتسبها من انكسار الهواء ، رغم أنى كنت أشك فى فهمه لهذه الحقائق . وشرحت له كيف أن قدحية العين البشرية تستطيع أن تحمل إنسان العين يتقلص ويحمى باطن العين من الضوء الشديد . وسمح لى بأن أقترب عدة أقدام من الحضرة السامية ، ليرى تركيب عينى ، وأدى بنا هذا الكلام إلى عقد مقارنة بين العين القمرية والعين الأرضية . فعيون القمريين ليست شديدة الحساسية للضوء فحسب ، هذا الضوء الذى يستطيع أهل الأرض رؤيته ، بل إنها تستطيع أيضا أن ترى « الحرارة » . وكل اختلاف فى درجة الحرارة داخل القمر يجعل الأشياء واضحة للعين .

وكانت قزحية العين شيئاً جديداً بالنسبة للقمرى الأعظم ، الذى راح يتملى لحظة بتسليط أشعة من عينيه إلى وجهى ، ورؤية إنسان عينى يتقلص ، فبهرت من عمله هذا وعجزت برهة قصيرة عن الرؤية .

ولكنى على الرغم من هذه المضايقة وجدت عنصراً مطمئناً ، اطمئناناً جاء على درجات لم أشعر بها ، فى أن عملية الأسئلة والأجوبة هذه كانت عملية تنطوى على العقل . لقد كان فى مقدورى أن أغلق عينى وأفكر فى الإجابة وكنت بذلك أن أثنى أن القمرى الأعظم كلى بلا وجه .

وعندما نزلت ثانية إلى مكانى الصحيح سألنى القمرى الأعظم عن طريقة حماية أنفسنا من الحرارة والزوابع فأسهبت له فى الكلام عن فن العمارة والأثاث، ووقعنا بهذا فى كثير من ضروب سوء التفاهم وتعارض الأقوال ، التى أعترف أنها تعزى فى الغالب إلى عدم رصانة تعبيراتى وظللت وقتاً طويلاً وأنا أعانى صعوبة فى إفهامه طبيعة المنزل ، فقد بدا الأمر له ولأتباعه القمريين بطبيعة الحال أغرب شىء خيالى فى العالم أن يبنى الناس لهم بيوتاً بينما هم يستطيعون أن ينزلوا إلى الأغوار وقد برزت عقدة جديدة حين حاولت أن أشرح لهم أن الإنسان بدأ فى الأصل يسكن الكهوف وأنه شرع ينتقل بكثرة حديثاً وكثيراً من مؤسساته إلى تحت الأرض ، وقد سبب ذلك أنى خدعت ، على ما أظن ، فى دقيق إتمام موضوع ذهنى بدأته . ووقع ارتباك آخر سببه أيضاً محاولة

طائشة منى فى الكلام عن المناجم . وأخيراً ترك القمرى الأعظم الموضوع ناقصاً ، وسألنى ماذا نعمل بجوف كرتنا .

« وانطلقت موجات من الزقزقة والصفير من أبعد الأركان فى ذلك الحشد العظيم عندما أوضحت لهم فى النهاية أننا نحن معاشر الناس لا نعرف شيئاً على الإطلاق عن محتويات العالم الذى جرى عليه تطور أجيال سحيقة من أسلافنا . واضطررت إلى أن أذكر لهم القول ثلاث مرات أن من الأربعة آلاف ميل من المادة التى تحتويها الأرض من السطح إلى المركز لا يعرف البشر شيئاً إلا عما يقع على عمق ميل واحد وأن معرفتهم عن هذا الجزء يكتنفها الغموض الكثير . وكنت أفهم أن يسألنى القمرى الأعظم عن سبب مجيئى إلى القمر بينما نحن الأرضيين لم نكد نعالج كوكبنا ذاته إلى الآن ، ولكنه لم يزعج نفسه فى ذلك الوقت بالإدلاء بشرح للمسألة ، وذلك أنه كان تواقاً إلى متابعة تفاصيل قبى الجنوفى بجميع أفكاره .

« وعاد إلى السؤال عن الطقس ، فحاولت أن أصف له تغير الجو المستمر والجليد والصقيع والأنواء ، فسألنى :

« وعندما يحل الليل ألا يبرد الجو ؟ » .

« فقلت له إنه يكون أبرد منه فى النهار » .

« فعاد يسأل : « أو لا يتجمد هواؤكم الجوى ؟ » .

« فقلت له إن هذا لا يحدث وإن الجو عندنا لا يصل قط إلى هذه الدرجة من البرودة ، لأن ليالينا قصيرة » .

وعاد يسأل : « ولا يتحول إلى سائل ؟ » .

وكنت على وشك أن أقول له إن هذا لا يحدث ، ولكنى تذكرت أن جزءاً على الأقل من هوائنا الجوى ، وهو بخار الماء الذى فيه ، يتحول إلى سائل فيكون عندئذ الندى ، ويتجمد أحياناً فيكون الصقيع وهى عملية تشابه تماما عملية تجمد جميع الطبقة الهوائية الخارجية للقمر أثناء ليله وهو أطول من نهاره . وأوضحت هذه المسألة فانتقل القمرى الأعظم منها ليسألنى عن النوم ، ذلك أن الحاجة إلى النوم التى تأتى بنظام كل أربع وعشرين ساعة لجميع الكائنات هى جزء من ميزاتنا الأرضى إذ أنهم على القمر لا يستريحون إلا فى فترات نادرة وبعد القيام بمجهودات استثنائية . ثم حاولت أن أصف له عذوبة الليالى الصيفية وبهاءها ، وانتقلت منها إلى الكلام عن الحيوانات التى تتجول أثناء الليل وتنام نهاراً . أخبرته عن السباع والنمور ، فلما لنا عند الكلام عنها أننا وصلنا إلى مرحلة معقدة لا يمكن عبورها ذلك أنه لا يوجد على القمر إلا الحيوانات الأليفة تماما الخاضعة لإرادة القمريين فيما عدا ما يوجد فى مياهه ، ولقد ظلت الحالة على هذا المنوال لأجيال لا تعيها الذاكرة . فى مياهه حيوانات متوحشة ولكن برغم خلو من الحيوانات الكاسرة ، ومن الصعب عليهم تصديق فكرة وجود كائنات قوية ضخمة تعيش فى الخلاء أثناء الليل (وهنا يحوى السجل حوالى عشرين كلمة أو أكثر متقطعة يصعب نقلها) وراح ، فى ظنى ، يتكلم مع أتباعه عن غرابة الإنسان فى سطحيته وحياته غير المعقولة ، هذا (الإنسان) الذى يعيش على سطح عالمه فحسب ، معرضا نفسه للأمواج

والرياح وأحداث الفضاء ، هذا المخلوق الذى لا يستطيع حتى أن يتحد مع بنى جنسه ليتغلبوا على الوحوش التى تفترسهم ، وهو مع ذلك يجرؤ على غزو كوكب آخر وجلست أثناء هذه اللحظة الانفرادية أفكر ثم أطلعته وفقا لرغبته على أنواع الناس المختلفة ، فراح يسألنى : « وكل ضروب الأعمال تقوم بها عندكم فئة واحدة من الناس ؟ فمن المفكر ؟ ومن الحاكم ؟ » .

وأدليت له ببيان عن طريقتنا الديمقراطية .

« ولما انتهيت أمر بأن يرش ذلك الرشاش المبرد على جبينه ثم طلب منى أن أعيد شرح موضوعى ، خشية أن يكون قد سقط منه شىء » .

وسألنى « ف - آو » : « ألا يقومون إذن بأعمال مختلفة ؟ » .

« فاعترفت له بأن بعضهم مفكر والبعض يشتغل موظفا ، ومنهم الصيادون والميكانيكيون ورجال الفن وفالحو الأرض ولكنهم « جميعهم » يحكمون » .

«فعاد يسأل: « أو ليس لهم أشكال مختلفة تناسب مختلف الواجبات التى يؤدونها ؟ » .

فقلت له إنه لا يستطيع أن يرى شيئاً منها إلا فى الثياب على الأرجح على أن عقولهم قد تختلف قليلا .

فقال القمرى الأعظم : « بل يجب أن تختلف عقولهم كثيراً وإلا رغبوا جميعهم فى أن يؤدوا الأعمال ذاتها . » .

وقلت له إنه محق في تفكيره ، وذلك لأوجد تناسقاً أقرب مما بين ذي قبل بينه وبين آرائه السابقة ، ثم تابعت كلامي فبينت له أن هذه الاختلافات خافية في الدماغ ولكنها موجودة ، وبرجح أنه لو أمكن للإنسان أن يرى عقول الناس وأرواحهم لبدت له متنوعة مختلفة كالقمريين ، فهناك رجال عظماء ورجال يستطيعون أن يسيروا بسرعة ، ورجال لهم عقول كالأبواق تحدث ضوضاء ، ورجال يستطيعون أن يتذكروا دون أن يفكروا ...... (وهنا نجد غموضاً في تسجيل ثلاث كلمات)

«وقاطعني ليذكرني بكلام سابق ، فراح يقول لي مؤكداً : ولكنك قلت أن جميع الرجال يحكمون ،

« فقلت : « أجل إلى درجة ما . ولكنني أخشى أن يكون شرحي قد زاد المسألة غموضاً ،

ووصل إلى حقيقة بارزة فسألني : « أتعني أنه ليس لديكم أرضي أعظم ؟ »

« ورحت أفكر في عدد من الناس ، ثم أكدت له في النهاية أنه ليس لدينا مثل هذا الرجل ، وشرحت له أن الحكام المستبدين والأباطرة الذين جربناهم على الأرض انتهوا عادة بتعاطي الخمر وارتكاب الرذيلة وأعمال العنف ، وأن الشعب الأنجلو سكسوني الذي أنتمي إليه ، لم يعمدوا إلى تجربة هذا النوع من الحكام مرة ثانية ، فزادت دهشة القمري الأعظم لهذا الكلام ،

وسألني : « وكيف تحتفظون بالحكمة ، حتى بالحكمة التي عندك ، » فشرحت له طريقتنا في مساعدة ذوي (وهنا كلمـــة مخدوشة ولعلها « العقول ») المحدودة بمكتبات تزخر بالكتب وبينت له أن العلم سار قدماً بفضل تعاون الجمهور التي ينشط عدد لا يحصى من صغار الناس ، فلم يبد أية ملاحظة على هذا الموضوع سوى قوله إننا بلا شك أتقنا الكثير رغم همجيتنا الاجتماعية ، ولولا هذا التقدم العلمي ما استطعنا بلوغ القمر ، على أن المقارنة واضحة فقد استخدم القمريون معارفهم النمو والتطور أما أفراد الجنس البشري فقد وضعوا خزائن معارفهم إلى جانبهم وظلوا حيوانات مهندمة ، وقال : « إن هذا . . . (وهنا فقرة صغيرة غامضة من السجل)

« ثم طلب إلى أن أشرح له كيف ننتقل من مكان إلى مكان على سطح الأرض فوصفت له قطاراتنا وسفننا ، فلبث برهة وهو لا يستطيع أن يفهم أننا لم نستعمل البخار إلا منذ مائة سنة(*) ولكنه حين فهم ذلك ظهرت دهشته بوضوح . (وهنا أذكر حقيقة فريدة وهي أن القمريين يحسبون بالسنين كما نفعل نحن ، وإن كنت لا أفهم نظامهم العددي ، على أن هذا ليس بالأمر الهام ، لأن ويف أو يفهم نظامنا) وانتقلت من هذا الموضوع فأخبرته أن البشر لم يسكنوا المدن إلا منذ تسعة أو عشرة آلاف سنة ، وأننا لا زلنا غير متحدين في نظام أخوي واحد ولكننا نخضع لأنظمة حكومية مختلفة . فدهش القمري الأعظم

(*) بالنسبة إلى الزمن الذي صدر فيه هذا الكتاب وهو سنة ١٩٠١ (المترجم)

دهشة عظيمة حين أوضحت له هذه المسألة وظن فى أول الأمر أنى أشرت فى كلامى إلى المناطق الإدارية فحسب .

« فقلت له : « ما زالت حكوماتنا وامبراطورياتنا صوراً غير مهذبة لما سيكون عليه النظام يوما ما . وهنا بدأت أقص عليه ......

(ويقابلنا هنا عبارة من السجل لا تمكن قراءتها . تبلغ حوالى ثلاثين أو أربعين كلمة)

وتأثر القمرى الأعظم حق التأثر وتمسكهم بتعدد اللغات المرهقة فقال : « يريدون أن يتخاطبوا . ومع ذلك لا يتخاطبون » . ثم جعل يسألنى أسئلة دقيقة عن الحرب استغرقت وقتاً طويلا .

« وتحير فى البداية ولم يصدق ، ثم راح يسألنى ليتأكد من قولى :

« تعنى أنكم تكرون على سطح أرضكم ، هذا العالم الذى لم تستخرجوا كنوزه بعد ، وتقتلون الواحد الآخر ، كما تأكل الوحوش بعضها ؟ » .

« فقلت له إنه على حق كل الحق فيما رأى . »

وطلب منى إيضاحات تعينه على تكوين صورة لما يدور فى ذهنه فسألنى : « أولا تضار سفنكم ومدنكم المسكينة الصغيرة ؟ » ورأيت أنه يتأثر لضياع الممتلكات والمتاعب الناجمة عن الحروب كما يتأثر للقتل فقال لى : « زدنى علما ، دعنى أرى صورا ، فإنى عاجز عن فهم هذه الأمور . »

« وهكذا قضيت بعض الوقت أسرد له قصة الحرب العالمية فى شىء من الاشتراز .

أخبرته عن الأوامر الأولى التى تصدر بالحرب ، وعن الاجتماعات الرسمية والتحذيرات والإنذارات النهائية ، وقيادة الجيوش وتسييرها وأدليت له بفكرة عن المناورات العسكرية ومواقع تجمعات الجيوش والمواقع الحربية مجتمعة ، وعن كرات الهجوم والحصار وعن الجوع والصعوبات فى الخنادق وعن جنود الحراسة وهم يتجمدون وسط الثلوج وأخبرته عن المناوشات والمفاجئات والمواقف اليائسة الأخيرة والآمال الضعيفة والمطاردة العديمة الرحمة للهاربين والموتى فى الميدان وأوقفته أيضا على تاريخ الماضى وما حفل به من غزوات ومذابح ، وعن الهون والتتر وعن الحروب الإسلامية فى عصر النبى وخلفائه وعن الحروب الصليبية . وكان « فى - أو » يقوم بالترجمة بينما أنا أسردها والقمريون يهدلون ويتمتمون فى انفعال مطرد الشدة :

« وأخبرتهم أن المصفحة تستطيع إلقاء قذيفة وزنها طن مسافة اثنى عشر ميلا — وأننا نستطيع توجيه الطوربيد تحت الماء ، ووصفت حديثى فوصفت لهم مدفع مكسيم وقت الضرب ، وما استطعت تخيله من موقعة كولنزو * . وأوقف القمرى الأعظم الترجمة ليصدق ماذكرته وطلب منى تحقيق قصصى ، وكانوا على الأخص فى شك من وصفى لتهليل الجند وفرحهم وهم يندفعون إلى (؟ الموقعة) .

(*) موقعة كولنزو فى ١٠ ديسمبر سنة ١٨٩٩ بين الانجليز والبوير فى جنوب أفريقيا ومدينة كولنزو تقع على نهر وجالاق ناتال (للمترجم)

وترجم « ق — أو « عبارة قتال . . ولكنهم يكرهون ذلك دون شك . فأكدت لهم أن بنى جلدتى يعدون ميدان القتال أحد اختباراتهم فى الحياة . » وقد أصابت الدهشة جميعهم لهذا القول .

وقال القمرى الأعظم ، وهو لايزال متمسكا بوحدة موضوعه « وما الخير الذى تحتوته من هذه الحرب ؟ »

« فقلت » أجل . تسأل عن الخير ! إنها تقلل عدد السكان ! »

« فقال . » وما حاجتكم إلى — ؟ »

« وتبع ذلك فترة سكون تمنى بعدها الرشاش المبرد على جبينه ، ثم تابع حديثه . »

وعندهذا الموضع يمتلىء السجل بصورة مضطربة بسلسلة من التموجات ظهر أنها عبارات معقدة محيرة تعود بنا إلى وصف كافور للسكوت الذى سبق الحديث الأول الذى فاه به القمرى الأعظم ، ومن الواضح أن هذه التموجات نتيجة لإشعاعات آتية من مصدر قوى ، ويوحى تداربها المستمر من إشارات كافور المتناوبة بشكل غريب بوجود عامل من عمـــال الإشارات يحاول عمدا خلطها برسالته لتصبح غير مقروءة فهى فى بدايتها إشارات قصيرة منتظمة بحيث استطعنا أن نحل غوامضها بقليل من العناية ورغم ضياع بعض الكلمات . ثم إذا بها تصبح كبيرة عريضة وتعود فتضطرب لحظة اضطرابا له ذات الأثر الذى يحدثه شخص يكتب كتابة ركيكة فوق سطر مكتوب وتعجز بعض الوقت فى حل هذه الركاكة المؤلفة من خطوط متكسرة ثم يقف الاضطراب الخطى لحظة تاركا بعض

الكلمات الواضحة ، ثم يعود فيستمر إلى انتهاء الرسالة ، شاطبا جميع ما حاول كافور إرساله . فإذا كان هذا التدخل من جانبهم قد حدث حقيقة عن عمد فلماذا فضل القمريون السماح لكافور بالاستمرار فى إرسال إشاراته وهو سعيد بجهله أنهم يشطبون ما يسجل ، بينما الأمر واضح أنه فى مقدورهم فى أى وقت بأيسر وأسهل مايمكن أن يمنعوه من الإرسال ؟ إن هذه المشكلة لا يمكننى أن أساهم فى حلها . يبدو أن الأمر قد حدث على هذه الصورة وهذا هو كل ما أستطيع أن أقوله عنه وهذه العبارة الأخيرة فى وصفه للقمرى الأعظم تبتدىء من نصف الجملة .

« سألنى أسئلة دقيقة عن السر الذى أحمله . واستطعت فى وقت قصير أن أصل إلى تفاهم معهم وأن أستجلى فى النهاية ما كان أحجية لى منذ أن عرفت المدى الواسع الذى وصل إليه علمهم ، وكيف أنهم هم أنفسهم لم يكتشفوا المادة الكافورية بتاتا لقد وجدت أنهم يعرفونها بوصفها مادة موجودة نظريا ولكنهم كانوا دائما يعدون صنعها أمراً مستحيلا ، ذلك لأن الهليوم منعدم وجوده على القمر لسبب من الأسباب . والهليوم . . . »

وتعود خطوط الشطب فتظهر على الحروف الأخيرة من كلمة « هليوم » . كذلك لاحظ كلمة « سر » لأنى على هذه الكلمة وعليها وحدها أبنى تفسيرى للرسالة التى تليها ، الرسالة الأخيرة التى نعتقد الآن أنا والمستر فنديجى ، أنها الرسالة التى يحتمل أن يرسلها لنا .

رسالة كافور الأخيرة إلى الأرض

وتلاشت رسالة كافور قبل الأخيرة بهذه الطريقة غير المرجية وأتخيل أنى أراه بعيداً فى تلك الظلمة الزرقاء، وسط أجزاء جهازه يواظب على إرسال إشاراته إلى النهاية ، وهو لا يدرى بستار الاضطراب الذى انسدل بيننا ، بل إنه لا يدرى إلى تلك الساعة بالأخطار الأخيرة التى لا بد أن تكون محدقة به ، إذ رغبته فى أن يكون له إدراك شمسى ، هذه الرغبة المحفوفة بالكوارث ، قد خانته كلية . لقد تكلم عن الحروب ، وعن قوة البشر وطائش غضبهم ، عن عدوانهم الذى لا يعرف القناعة وعن صراعهم وعيشهم الذى لا يكل . إنه ملأ العالم القمرى جميعه بالتأثيرات التى انطبعت فى جنسنا البشرى ، وأراه واضحا أنه أدلى ثم بأخطر اعتراف ، وهو أن عليه وحده يتوقف احتمال وصول البشر مرة أخرى إلى القمر ، على الأقل إلى وقت طويل . إن الاتجاه الذى سوف يسير فيه العقل القمرى المتسم بالبرود والتجرد من الإنسانية يبدو واضحا لى بما فيه الكفاية . ولا بد أنه ساوره الشك فى أمره ثم عرف حقيقته فجأة بصورة لا هوادة فيها . وأتخيل كافور متجولا على القمر يلازمه تبكيت الضمير ، ويتفاقم فى نفسه بسبب تهوره المهلك . وأميل إلى الظن أن القمرى الأعظم راح يفكر فى الموقف الجديد برهة

من الزمن . وقد يكون كافور طيلة هذا الوقت مطلق السراح يتجول بحرية كسابق عهده . ولكن عقبات ما حالت دونه والوصول ثانية إلى جهازه المغناطيسى الكهربائى ، بعد إرساله الرسالة التى أوردتها آنفا . ومرت أيام لم نتسلم فيها شيئا . ويرجح أنه حظى بمقابلات جديدة وتنصل من اعترافاته السابقة . ولكن من يستطيع أن يجمع أمله فى الظن ؟

وجاءت الرسالة الأخيرة فى النهاية ، جاءت فجأة مثل صرخة فى الليل الصرخة التى يتبعها الصمت . إنها قطعة من رسالة ، وأكثرها اختصارا فهى البداية المثلومة لجملتين :

أما الجملة الأولى فكانت : « كنت مجنونا عنـــدما أخبرت القمرى الأعظم . . . »

ومرت فترة استغرقت دقيقة ، خيل إلى أثناءها أنه قد حدث تدخل خارجى ، وابتعد المرسل عن جهاز الإرسال ، فى تردد مرعب وسط أجزاء الجهاز التى لاحت فى تلك المغارة القاتمة بضوئها الأزرق الخافت وهاهو ذا يندفع ثانية نحو الجهاز ، يحثه حزم جاء متأخراً . ثم جاءت الرسالة الثانية ، وكأنها أرسلت بعجالة : « تصنع المادة الكافورية وفقا للوصفة التالية : (خذ . . .) »

وتبع ذلك كلمة لا معنى لها بتاتا ، وهى قائمة وحدها هكـــذا : « بلا جد » . . . . »

وهذا كل ما فى الأمر .

لعله أبدى محاولة عاجلة لحياء ، وبلا جدوى ، عندما حل القضاء ، إذ لا يمكننا أن نتنبأ بما كان يحدث حول الجهاز ، ومهما يكن ذلك الحادث فأنا أعلم أنه لن تصلنا أية رسالة أخرى من القمر . أما أنا فقد خفت لتحقق رؤيا قوية ، فإذا أنا أشاهد شبح كافور أشعث الشعر في ضوء أزرق ، يكافح للتخلص من قبضة الحشرات القمرية . أراه يكافح كما لم يكافح قط من قبل ، يكافح في يأس وعجز ، وقد أحدقوا به وهم يصرخون ويصفقون ، بل وربما يقتتلون في النهاية . ويسحطرونه إلى التقهقر ، خطوة خطوة إلى الوراء ، إلى حيث لا يصله كلام أو إشارة من زملائه . يدفعونه أبدا نحو المجهول ، إلى الظلمة ، إلى السكون الذي ليس له نهاية .

دار القلم

للطباعة والنشر والتوزيع
١٨ شارع سوق التوفيقية
تليفون : ٥٥٠٣٢

صدر عنها لمشروع

الألف كتاب

	ملّيم
• لن تدق الأجراس ج١	٢٢٥
• لن تدق الأجراس ج٢	٢٨٠
• الحرية المحرمة	١١٥
• ميكانيكا السيارات	٢٣٠
• قصص عالمية	٢٤٥
• إيزيس وأوزوريس	١٢٥
• حكايات فارسية	٢٥٥
• البيولوجيا في خدمة الإنسان .	٢١٥
• أول من وصل إلى القمر ...	٢٢٥

الثمن ٢٢,٥